الدكتور اسماعيلي مولاي عبد الحميد العلوي

kitabweb-2013.forumsmaroc.com

تاريخ وجدة وأنكاد في دوحة الأمجاد

الجزء الأول

1985 - 1406

الدكتور اسماعيلي مولاي عبد الحميد العلوي

تاريخ وجدة وأنكاد في دوحة الأمجاد

الجزء الأول

1985 - 1406

صورة الغلاف :

باب سيدي عبد الوهاب بمدينة وجدة.

الطبعة الأولى 1406 - 1985

جميع الحقوق محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أفضل المرسلين.

الإهـــداء

إلى أبوي، وزوجتي، وأبنائي.

تقديم

إن مدينة وجدة بمميزاتها الحضارية وخصائص منطقتها احتلت مقاما بارزا في المسيرة التاريخية المغربية قديما وحديثا وساهمت بقسط وافر في الأحداث التي عاشتها البلاد سواء في الظروف الزاهرة والمشرقة أو في الفترات الحالكة والحرجة.

فقد تفاعلت مع مجريات الأطوار السياسية وغيرها ولم تكتف بتلقي أصدائها ونقل أخبارها بل عملت كالعضو الحيوي في مجموعة تنبض بالنشاط الخلاق والديناميكية الايجابية.

وسوف لا أغالي إذا قلت ان اهتمامي بموضوع تاريخ وجدة وانجاد ينبع من أفكار وأحاسيس شبيهة بهذا التفاعل وهذا التجاوب، ليس لأنني من أبناء البلدة فحسب بل لأن معرفة الحقب التي مرت بها لن تزيد الباحث الذي يتوخّى النزاهة والموضوعية إلا اعتزازا وافتخارا بوطنه وإلا رسوخا وقوة في انتمائه لأمته.

ولبلوغ الأهداف التي رسمتها نصب عيني فكنت كلما خطوت خطوة وتخطيت عقبة في ميدان البحث والتنقيب عن المعلومات في المصادر العربية والأجنبية أحاول أن أحللها وامحصها بمقارنة بعضها ببعض وان ألقحها وأكملها بالمعطيات التي تحويها الوثائق العائلية والحبسية، ثم ادركت ضرورة الاطلاع على الأماكن التي جرت على أرضيتها أهم الوقائع أو تزدان بالمآثر الانسانية والطبيعية.

وأرجو من الذين ساعدوني في تحقيق المبتغى ان يستشفوا امتناني وشكري تحت كل سطر من سطور هذا الكتاب وان يتيقنوا بأن للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة.

وعلى الله التوكل وقصد السبيل ومنه الهداية والتوفيق.

وجدة في يوم الجمعة
8 صفر 1405 / 2 – 11 – 1984

الفصل الأول

في أعماق التاريخ

1 ــ مدلول اسم وجدة.

2 ــ أصداء الفتوحات الإسلامية في المغرب الشرقي.

1 – مدلول اسم وجدة :

إذا كانت بعض الحواضر التي شيدها الانسان في ظروف معينة من التاريخ البشري تحيط بنشأتها وتطورها هالة من الأساطير والغموض فمدينة وجدة من بين المدن التي تكتنفها أوسع هالة من الاحتمالات والتخمينات سواء من حيث اسمها أو من حيث بدايتها ونموها العمراني .

فإذا أردنا أن نحلل مدلول اسمها نجد أنفسنا أمام مجموعة من الأسئلة والاستفسارات :

فهل كانت بالنسبة للقبائل العربية بمثابة موقع تأخذ فيه الحيطة وتنصب فيه الكمائن (الوجدات) للأعداء الذين يتربصون بها الدوائر ويطمعون في الخيرات الطبيعية التي كانت تزخر بها هذه البقعة من سهل انجاد ؟

وإذن ، وباللغة الدارجة فكانت مدينتهم واجدة تنتظر حملات القبائل الظاعنة حولها والتي كانت تفرض عليها خراجا سنويا معينا وتحسدها على الخيرات الفلاحية والمياه العذبة التي حباها الله بها . ويشاع بأن سليمان بن جرير الشماخ الذي اغتال المولى ادريس الأول في 792م حاصره مطاردوه في شرق المغرب على مقربة من نهر ملوية فوجد هناك أو بعبارة أخرَى نصبوا له وجدة أي كمينا .

أم هل كانت قلعة محصنة للجيوش السلطانية التي كانت تراقب باستمرار حركات الجيوش المغيرة على هذه المنطقة طمعا في الاستيلاء على الاجزاء المغربية الأخرى ؟

ولذلك تعرضت خلال الأطوار التاريخية لعدة نكبات بسبب الصراعات السياسية اما بين رؤساء القبائل أو المتطلعين إلى كراسي الملك

(الموحدون ، المرينيون ، بنو زيان التلمسانيون ....) نظرا لموقعها الاستراتيجي والعسكري ونظرا أيضا لأهميتها في الميدان التجاري بحيث كانت قبلة للقوافل التجارية السائرة في المحورين الرئيسيين بين غرب المغرب (فاس ....) والمغرب الأوسط (شمال الجزائر الحالية) وبين الواحات الصحراوية والبحر المتوسط إذ كانت مرتبطة بميناء تابحريت القريب من السعيدية الحالية .

فحسب الجغرافي أبو عبيد عبد الله البكري (ق 11م) كانت مدينة وجدة آنذاك تتكون من مجموعتين قرويتين يحيط بكل واحدة منهما سور ، إحداهما بناها الأمير يعلى بن بلغين في منتصف القرن الخامس الهجري (11م) والتي كانت مركزا تجاريا كبيرا .

أما القرية الثانية فيحتمل أن تكون تلك التي أسسها زيري بن عطية المغراوي في 994م في خضم صراعه مع المروانيين الأندلسيين على أرض البلاد المغربية .

قال البكري : ....وتابحريت ساحل مدينة وجدة بينهما أربعون ميلا ومن تلمسان إلى وجدة ثلاث مراحل فمن تلمسان إلى الحمة ومن الحمة إلى قرية تسمَّى بالشهبا ومنها إلى مدينة وجدة ، ومد وجدة يسمى بالوجدات ، وهي مدينتان مسورتان أحدث إحداهما يعلى بن بلغين الورتغيني بعد أربعين وأربع مائة يسكن في المحدثة التجار وفيها أسواق ، والجامع خارج المدينتين على نهر قد أحدثت به البساتين وهي كثيرة الأشجار والفواكه طيبة الغذا جيدة الهوا يمتاز أهلها من غيرهم في نضارة ألوانهم ونعمة أجسامهم ، ومراعيها انجع المراعي وأصلحها للظلف والحافر ، ينتهي شحم شاة من شياههم مائتي أوقية ..... وعلى مدينة وجدة طريق المارة والصادرة من بلاد المشرق إلى سجلماسة وغيرها من بلاد المغرب ، والطريق منها إلى سجلماسة تخرج من وجدة إلى صاع (تاوريرت) وهي قرية ذات نهر وثمار ومزارع ومنها إلى تمللت ..... والطريق من

وجدة إلى فاس تخرج منها أيضا إلى صاع ومنها إلى تابريدا ومنها إلى مكناسة وهم أهل اخصاص ومنها إلى عين الطين ومنها إلى مدينة فاس . فاما الطريق من وجدة إلى مليلة فإلى صاع ومنها إلى اجرسيف مرحلة وهي قرية عامرة على نهر ملوية .... ومن اجرسيف إلى قلوع جارة .... ومنه إلى مدينة مليلة[1] .

وسوف لا نجانب الصواب إذا قلنا ان صاحب الاستبصار (ق 12م) استلهم وصفه لوجدة من السطور السابقة حيث قال :

... هي مدينة كبيرة ، مسورة قديمة أزلية ، كثيرة البساتين والجنات والمزروعات ، كثيرة المياه والعيون طيبة الهواء جيدة التربة يمتاز أهلها من غيرهم بنضارة ألوانهم وتنعم أجسامهم ، ومراعيها أنجع المراعي وأصلحها للماشية ، يذكر أنه يوجد في الشاة من شياههم مائتي أوقية شحما ويصنعون من صوفها أكسية ليس لها نظير في الجودة مثل العبيدي ، يساوي الكساء الجيد منها 50 دينارا وأزيد ، وعلى مدينة وجدة طريق المار والصادر من بلاد المشرق إلى بلاد المغرب وسجلماسة وغيرها ....[2] .

وإن هذا الازدهار العمراني والاقتصادي والبشري يفسر لنا اسم وجدات الذي أورده أبو بكر بن علي الصنهاجي المعروف بالبيدق في كتابه أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين (ق 12م) والذي اشتهرت به مدينة وجدة وقتئذ :

قال : ...نزلنا وجدات وكان بها ابن سامغين وقاضيها محمد بن فارة فنزلنا عندهما فاقبل الفقهاء يهرعون نحو الإمام المعصوم الذين منهم زيدان ويحيَى اليرناتي ويوسف بن سمغون وعبد العزيز بن يخلفتن السوسي فكان

---

(1) أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكرى ــ كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب. ترجمة دوسلان ــ باريس، 1965، ص. 87 ــ 88.

(2) الاستبصار في عجائب الامصار. مؤلفه مجهول. الاسكندرية. 1958 ــ ص. 177.

المعصوم يأمرهم ان يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، فلما خرج في اليوم الثاني نظر إلى النساء يستقين والرجال يتوضأون فقال أليس هذا منكرا . النساء مع الرجال مخلوطين اصنعوا لنا ساقية وصهريجا عند الجامع ففعل ذلك ....[3] .

وكل الدلائل التاريخية تشير أن مدينة وجدة كانت دائما تسترجع اشعاعها بعد الظروف الحالكة .

فالمؤرخ مارمول في القرن 16م يقول ان وجدة تمتاز بحدائقها المتعددة وسواقيها الكثيرة وحصونها القوية[4] .

أما الحسن بن محمد الوزان المعروف باسم ليون الافريقي فقد ذكر في نفس الفترة ان ... وجدة مدينة قديمة بناها الأفارقة في سهل فسيح جدا ، على بعد نحو 40 ميلا جنوب البحر المتوسط ، وعلى نفس البعد تقريبا من تلمسان محاذية غربا مفازة انكاد ، وأراضيها الزراعية كلها غزيرة الانتاج ، تحيط بها عدة حدائق غرست فيها على الخصوص الكروم وأشجار التين ، ويخترقها جدول يشرب السكان من مائه ، ويستعملونه لأغراض أخرى . وكانت أسوارها في القديم متينة عالية جدا ، ودورها ودكاكينها متقنة البناء ، وسكانها أثرياء ومتحضرين وشجعانا ، لكنها نهبت ودمرت أثناء الحروب المتوالية بين ملوك فاس وملوك تلمسان ، حيث كانت منحازة لهؤلاء ، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها أخذت وجدة تعمر بالسكان وشيدت فيها من جديد دور كثيرة ، الا أنها لم تسترجع حالتها الأولى وليس فيها اليوم أكثر من خمسمائة دار آهلة ، وسكانها فقراء لأنهم يؤدون الخراج إلى ملك تلمسان وإلى الاعراب المجاورين لهم بمفازة انكاد ، ويرتدون لباسا قصيرا خشنا شبيها بلباس الفلاحين ، ويربون عددا من الحمير الجميلة

---

(3) البيدق ــ اخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين. الرباط ــ 1971. ص. 20 - 21.

(4) Voinot L. Oudjda et l'Amalat. Oran. 1912. p.115.

الكبيرة القامة التي تنتج لهم بغالا جميلة عالية تباع في تلمسان بأغلى الأثمان ، ويتكلمون باللغة الافريقية- القديمة ، وقليل منهم يحسن العربية الدارجة التي يتحدث بها أهل المدن ...[5] .

ومن الأوصاف السابقة فلعل اسم وجدة أطلق على عدة قرَى متناثرة هنا وهناك من طرف الطلائع الأولى للمسلمين المجاهدين الذين بهرتهم مظاهر العيش الرغيد[6] للسكان الأصليين الذين عرفوا كيف يستغلون الخصائص الطبيعية وخاصة المياه الجيدة التي كانت تنهمر من ينابيع واحة سيدي يحيَى لتسقي الحقول الكثيرة والمزارع المترامية الأطراف عبر فروع من السواقي المتشابكة[7] .

وإذا افترضنا أن موقع المدينة كان عامرا ومزدهرا قبل عهد المملكة الزيرية التي اشتهرت وجدة أثناء حكمها بهذا الاسم فمن المسلم به عند الوجديين ان المدينة كانت تحمل اسم مدينة السدرة لأنها كانت في وسط غابة من هذا النوع من الأشجار التي لاتزال توجد منه بقايا لحد الآن في الضاحية الجنوبية قرب ضريح سيدي امعافة . وكانت تعرف أيضا باسم مدينة الحيرة أو الحَيْرة في أيام الدولة الادريسية اما لكونها كانت دائما مهددة من طرف القبائل البربرية المجاورة لها وبالدرجة الأولى قبائل بنَى يزناسن ، واما لأنها سميت بهذا الاسم تيمنا وتذكيرا بالمدينة العراقية التي كانت لها نفس الخصائص الطبيعية والاقتصادية .

ومن العوامل التي تؤكد احتمال الوجود البشري المنظم والمكثف والمستمر قبل انتشار الاسلام في ربوع منطقتها النقود الرومانية التي عثر عليها

---

(5) الحسن بن محمد الوزان ــ وصف افريقيا ــ ج ــ 2 ــ الرباط ــ 1982. ص. 12 - 13

(6) جاء في لسان العرب لمحمد بن مكرم ابن منظور المصري في الجزء 3 ــ ص. 445 ــ 446، وجدت في المال وَجدا ووِجدا ووُجدا ووِجدانا ووجدة أي صرت ذا مال. والوَجد والوِجد والوُجد، اليسار والسعة، والواجد هو الغني الذي لا يفتقر، وهذا من وُجدى أي من قدرتي.

(7) انظر الفصل الخاص بالحياة الاقتصادية.

بضواحي وجدة وفي قلعة تمزدكت[8] وبعض الأسماء البربرية التي وردت في الوثائق العائلية وفي الخرائط الجغرافية الفرنسية، منها كلمة أفسو أو أفثو التي تعني الأحجار الكثيرة التي كانت تعرف بها الضاحية الجنوبية للمدينة الحالية والممتدة من تلة سيدي عيسَى إلى ضريح سيدي امعافه والتي تتكون أرضيتها من الأحجار البيضاء المتنوعة الأحجام مما يميزها في الميدان الجيولوجي والاقتصادي عن الأراضي الممتدة شمالا .

وكذلك اسم تيس الذي كان متداولا منذ أقدم العصور في النظام الدقيق لتوزيع الماء النابع من واحة سيدي يحيَى على القطع الزراعية الفردية والجماعية ، وهذا يبرهن على المستوَى الحضاري الذي طبع حياة الناس آنذاك .

وإن المكان الذي يقع على الضفة اليمنَى لوادي طايرت على بعد 15 كلم جنوب وجدة[9] والذي يعرف عند الأهالي باقبور ليهود يدل على وجود جالية يهودية ربما قبل الفتوحات الإسلامية بالمغرب الأقصَى . وإذا نقبنا على المآثر التي تشتمل على أسس بنايات منها أسس سور عرضه 1،50م كان يمتد على مسافة تفوق كلم واحد ، وكذلك إذا سألنا من يستغل ، أبا عن جد[10] ، جزءا من هذه الأرض التي تناهز مساحتها 15 هكتارا نزداد يقينا بأن سكان هذه القرية اليهودية كان لهم شأن عظيم في المنطقة كلها حيث أنهم كانوا يهتمون بالزراعة وبتربية المواشي وباستغلال

---

(8) Jean Marion ; Les Ruines Anciennes de la Région d'Oujda. Bulletin d'Archéologie Marocaine. T II. 1957. p.157.

(9) المسافة بين مدينة وجدة واقبور ليهود 15 كلم انطلاقا من ثانوية عمر بن عبد العزيز ومرورا بقرية سيدي يحى التي تبتدىء منها طريق غير معبدة وصعبة المسلك.

اما اذا مررنا بطريق تويست فالمسافة تبلغ 28 كلم منها 12 كلم غير معبدة.

(10) حوالي ثلث هذه الأرض يتكون من صخور صلبة والثلث الثاني بيد الفلاح الشيخ خوخي بلقاسم بن بلقاسم الذي ينتمي للشرفاء الادارسة أولاد افرج (بني بو حمدون) ـــ وبحوزة الفقيه خوخى امبارك ظهائر تثبت هذا النسب ـــ، والثلث الاخر في ملكية مقدم دوار أولاد عزوز الشيخ بن عشور بلهوارى.

الغابات الكثيفة التي كانت إلى عهد قريب[11] تكسو السهول والمرتفعات ، فضلا عن اتقانهم المعاملات التجارية والصناعات التقليدية[12] المختلفة وأيضا الأساليب الحربية ، وبازدياد عددهم مع مرور السنين اتسع العمران فصارت المقبرة التي بداخل أسوار القرية لا تكفي موتاهم فخصصوا مكانا آخر وراء تلك الأسوار لمقبرة ثانية ، وحتّى لا تنتهك حرمتها كانوا يضعون على الأضرحة أحجارا وصخورا كبيرة نشاهد الآن أكواما منها هنا وهناك في مزرعة الشيخ خوخى بلقاسم بن بلقاسم وبالأخص حول ثلاث أشجار من الزبوج ، وقد نقلت منها كميات هائلة أيام الحماية الفرنسية إلى محطة عين طايرت التي تزود مدينة وجدة بالماء العذب والتي تبعد جنوبا عن اقبور ليهود بأقل من كلمترين[13] .

ومما يسترعي الانتباه العين التي تزخر بماء صاف في الضفة اليسرَى لوادي طايرت والمشهورة بعين ليهودي والتي كانت تشرف عليها القرية المذكورة بأقل من 100م ، وقد تخالجنا بعض التساؤلات : فهل جاء هذا الاسم من جراء النفوذ السياسي والاقتصادي الذي بلغه رئيس هذه القرية في حقبة من الحقب التاريخية ؟

أم ورد على لسان الأهالي المسلمين الذين كانوا بأسفل وادي طايرت وكانوا يغبطون أو يحسدون الجالية اليهودية على استفادتها قبل غيرها من ذلك الينبوع الحيوي ؟

أم جاء هذا الاسم ليفسر لنا جانبا من قصة السلطان مولاي رشيد

---

(11) خلال حرب التحرير الجزائرية (1954 ــ 1962) التجأت قبائل بني بوسعيد وبني اسنوس واولاد انهار .... إلى السهل الممتد بين وادي طايرت غربا وجبل المحيصر شرقا واستغلت استغلالا مفرطا غابات الكريش والعرعار والضرو ... لصناعة الفحم وتسويقه إلى المدن.

(12) ان كلمة تزَدشة البربرية التي تعني الدكاكة وهي الآلة اليدوية التي تستعمل في صناعة النسيج على المنوال التقليدي والتي يعرف بها الجبل المطل على هذا المكان، من المحتمل أنها إشارة رمزية حية لازدهار المنسوجات التقليدية وقتئذ.

(13) رواية الشيخ خوخى بلقاسم بن بلقاسم الذي يبلغ من العمر أكثر من 70 سنة.

العلوي مع اليهودي ابن مشعل الذي كانت له اليد العليا في جهة ما من المغرب الشرقي ؟[14] .

2 – أصداء الفتوحات الإسلامية في المغرب الشرقي :

بما أن الديانة الإسلامية كانت تحمل مزيا اجتماعية وأخلاقية واعتقادية عديدة فليس من المستبعد انها ملكت قلوب بعض الناس في مدينة الحيرة على اثر اتصال أصحاب المنافع من المغامرين والأعيان والتجار بطلائع المسلمين المجاهدين في سبيل الله أي في سبيل إعلاء كلمته أينما حلوا وارتحلوا .

وبما أن عقيدة توحيد الألوهية التي حملها المسيحيون الحقيقيون وكذلك اليهود قبلهم لم تكن مجهولة في المنطقة[15] فقد كانت النفوس مستعدة لاعتقاد الحق إذا تبين بطلان المعتقدات القديمة وإذا حل في المجتمع العدل والفضيلة والرحمة محل الظلم والرذيلة والقسوة .

ولكن مادام وجود الفاتحين يخضع لحركة المد والزجر تبعا لنتائج المعارك فكان من العسير على البرابر المسلمين ان يظهروا اسلامهم لبني جلدتهم بسبب العصبية القبلية القائمة على العرق واللغة وتاريخ الاجداد وعلى ظروف الحياة اليومية والمصالح المشتركة وعلى أخلاق النخوة والتضامن للدفاع عن حوزة القبيلة والعشيرة .

ورغم ذلك فهل كانت كل القبائل البربرية في صف واحد ضد الجيوش العربية ؟ وهل كانت تحت قيادة موحدة ؟

فإذا كانت بعض العوامل تفرض على أهل المغرب الأصليين التضامن فيما بينهم في الظروف الحرجة والاستثنائية فقد كانت عوامل أخرى تفتت عضدهم وتفرقهم شيعا وأحزابا متنافرة ومتصارعة .

---

(14) انظر الفصل الخاص بعهد الملوك العلويين.

(15) انظر الفصل الخاص بالحياة الدينية والثقافية.

فنمط الحياة الاقتصادية لم يكن يكتسي شكلا واحدا في السهول وفي الجبال وفي الصحاري ، والفصائل والأفخاذ القبلية كانت تعتريها أسباب التفكك بين الفينة والأخرى بسبب النعرات والحزازات السياسية اما بين مجالس الجماعات أو بين شيوخ الفرق ، وكذلك بسبب تعدد الملل الدينية من عباد الأوثان ومجوسيين ونصارَى ويهود وأصحاب الخرافات ... وكل هذه الطوائف كانت في الحقيقة من الرواسب التاريخية القديمة التي توالت في حقب مختلفة على بلدان شمال افريقيا . ولقد كان من الطبيعي ان يستغل المسلمون الفاتحون كل هذه العوامل لاقناع الاعداء بالحكمة والموعظة الحسنة والبيان الواضح لفضائل الإسلام وأيضا بالمعاملة الطيبة واحترام العهود وأخيرا إذا اقتضَى الحال بالجهاد بالسيف لضمان الحرية الكفيلة لتبليغ كلمة لا إله إلا الله ــ محمد رسول الله ــ إلى القاصي والداني . ولولا تلك الخصال الفاضلة والتفاني في أداء الرسالة المحمدية لما تمكنت الحملات العسكرية العربية ان تحقق الانتصارات السريعة على البربر وعلى حلفائهم البيزنطيين أولا في المغرب الأدنَى في أيام الوالي عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنتي 25 ــ 26هـ / 647 ــ 646م ثم في عهد الوالي معاوية بن حديج سنة 45هـ / 666 ــ 665م ثم في ولاية عقبة بن نافع سنة 50هـ / 671 ــ 670م حيث أسس مدينة القيروان ثم في أيام الوالي أبي المهاجر سنة 55هـ / 675م إذ احتل مدينة تلمسان ثم في الولاية الثانية لعقبة بن نافع سنتي 62 ــ 63هـ / 681 ــ 683م حيث فتح المغرب الأقصَى معززا بفلول كثيرة من أهل المغرب الشرقي أي من القبائل الزناتية مرورا بمدينة طنجة ومدينة وليلي (قصر فرعون) واغمات وتارودانت ...[16] ولقد جاء في كتاب الاستقصا ان عقبة بن نافع حين وصل إلى مدينة أسني بعد انتصاراته الباهرة على المصامدة ومن لف لفهم ادخل قوائم فرسه في البحر

---

(16) احمد بن خالد الناصري ــ الاستقصا ــ ج 1 ــ من ص. 75 إلى ص. 82 ــ تاريخ بن خلدون ــ ج 6 ــ ص. 108.

وقال لأصحابه : ارفعوا أيديكم ، ففعلوا ، وقال :

....اللهم إني لم أخرج بطرا ولا أشرا وانك لتعلم أننا نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين وهو أن تعبد ولا يشرك بك شيء ، اللهم إنا معاندون لدين الكفر ومدافعون عن دين الإسلام ، فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والاكرام[17] .

ولما قفل راجعا من الممكن جدا أنه مر بمدينة وجدة حيث أسس المسجد الجامع وهو أقدم مسجد في المدينة والذي لايزال يحمل اسم سيدي عقبة على غرار المسجد القائم بمدينة تهودة في المغرب الأوسط وهو المكان الذي استشهد فيه عقبة بن نافع وجماعة من أصحابه رضي الله عنهم في معركة مع البيزنطيين والبربر بعد أن غدر بهم كسيلة الأوربي[18] .

ولقد كان لردة كسيلة عن الإسلام أسوأ الأثر على استتباب الأمن إذ دارت بينه وبين الوالي زهير بن قيس حروب طاحنة سنة 69هـ / 689 ـ 688م سواء حول مدينة القيروان أو في شرق المغرب قرب وادي ملوية حيث لاذ الأعداء بالفرار إلى قلاعهم الجبلية .

وعقب رجوع زهير بن قيس إلى المشرق وفي نفس السنة قاد حسان بن النعمان الغساني حملة جهادية قوامها 40 ألف مقاتل نحو مدينة قرطاجنة التي كانت أهم قاعدة عسكرية وبحرية للبيزنطيين فاقتحمها وأمر بتخريبها فأصبحت لا ترى إلا مساكنها ، ثم شرد حلفائهم البربر وتوجه صوب عصبة المقاومة المتمثلة في قبائل اجراوة والبتر التي كانت تحكمها امرأة عظيمة القدر ، الكاهنة داهيا البترية الزناتية منذ مدة تناهز 30 سنة في

---

(17) الاستقصا ـ ج 1 ـ ص. 82.

(18) المصدر السابق ـ ص. 83.
ـ تاريخ بن خلدون ـ ج 6 ـ ص. 109.
ـ نفس المصدر ـ ج 2 ـ ص. 129.

جبال أوراس الوعرة والحصينة ، والعامرة بالسكان والمغمورة بالثروات الطبيعية . وهناك وقعت بين الفريقين حرب شديدة انهزم فيها المسلمون وتقهقروا إلى مدينة طرابلس حيث مكثوا خمس سنوات .

وأثناء هذه الفترة من الزمن عمدت الكاهنة إلى اخلاء المدن والقرَى من سكانها وتخريبها بوحي من شياطينها من الجن والانس ظنا منها أن العرب تحركهم أطماع مادية دنيوية ولا يمكن صدهم بصفة نهائية إلا بهذه الوسيلة[19] ولكن هذه الخطة التخريبية كانت بمثابة الرمح الذي يطعن صاحبه إذ تذمر قومها وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وظنوا أن لا ملجأ لهم سوَى المسلمين الذين يمنعهم دينهم الحنيف عن الفساد في الأرض واهلاك الحرث والنسل . قال ابن خلدون :

...وخربت الكاهنة جميع المدن والضياع ، وكانت من طرابلس إلى طنجة ظلا واحدا في قرَى متصلة ، وشق ذلك على البربر فاستأمنوا لحسان فأمنهم ، ووجد السبيل إلى تفريق أمرها وزحف إليها وهي في جموعها من البربر فانهزموا وقتلت الكاهنة بمكان البئر المعروف بها لهذا العهد بجبل أوراس ، واستأمن إليه البربر على الإسلام والطاعة وعلى أن يكون منهم اثنا عشر ألفا مجاهدين معه فأجابوا وأسلموا وحسن إسلامهم وعقد للأكبر من ولد الكاهنة على قومهم من اجراوة وعلى جبل أوراس فقالوا : لزمنا الطاعة له سبقْنا إليها وبايعناه عليها ، وأشارت عليهم بذلك لاثارة من علم كانت لديها بذلك من شياطينها[20] . إلا أنه ما كانت تنتهي فتنة الكاهنة سنة 74هـ / 694 ــ 693م حتَّى اضطرمت نار الفتنة في مناطق أخرى من المغرب من جراء نزوح الكثير من الناس إلى الجبال كجبال بني يزناسن والزكارة والمحصر للاعتصام بها والبحث عن أسباب العيش لاسيما إثر

---

(19) الاستقصا ــ ج 1 ــ ص. 91 ــ 92.

(20) تاريخ بن خلدون ــ ج 6 ــ ص. 109 ــ 110.

القحط الشديد الذي اجتاح البلاد سنة 77هـ / 697 ــ 696م . وقد صادفت هذه السنة استخلاف حسان بن النعمان بموسَى بن نصير الذي حث المسلمين على التضرع إلى الله عز وجل وعلى إقامة صلاة الاستسقاء فاستجاب الله دعواتهم وفرج كرباتهم[21] ومكن لهم في الأراضي النائية ، تافيلالت وسوس ودرعة في 88هـ / 707 ــ 706م .

ومن هذا العهد كثرت أعداد العرب في المغرب من أجل الدعوة إلى الإسلام والمرابطة للجهاد في سبيل الله[22] خصوصا بعد الانتصارات التي حققتها في الجزيرة الايبيرية جيوش طارق بن زياد في 92هـ / 711م وموسَى بن نصير في 93هـ / 712م[23] .

وما إن اتسعت رقعة الإسلام في شمال افريقيا حتَّى بدأت الخلافات السياسية بين الفرق العربية اما بسبب حب الرئاسة والعصبية القبلية واما من جراء الاختلاف في المذهب الديني أو بغية الانفصال عن الدولة الأموية أو بسبب الأساليب الاستبدادية التي انتهجها بعض الحكام والولاة . ومن بين الأمثلة نسوق ما يلي :

---

(21) يذكرنا موقف المسلمين مع موسى بن نصير بموقف المغاربة الذين استجابوا لنداء ملكهم الحسن الثاني في ظروف مماثلة فتوجهوا في مواكب حافلة ومتضرعة وخاشعة إلى المساجد والمصليات لاقامة صلاة الاستسقاء يومي الجمعة سابع ورابع عشر صفر 4/1402 + 11 دجنبر 1981.
ولقد استجاب الله لهم وجعل من بعد عسر يسرا والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.
وفي مدينة وجدة أم المصلين الفقيه الفاضل الحاج لحبيب العلمي الفيلالي في المصلى الواقع قرب محطة البث الاذاعي وبمحضر العامل الحاج حميد البخاري. وبعد ذلك توجهت حشود المؤمنين إلى المسجد الأعظم لاداء صلاة الجمعة، عبر شارع الشهداء، ثم شارع ادريس الأكبر ثم باب الغربى فزنقة القصبة مهللين ومكبرين ومبتهلين ومستبشرين. وفي يوم الجمعة 21 صفر 18/1402 دجنبر 1981 نزلت في وجدة كمية من الأمطار قدرت بثلاثة عشر مليمترا.

(22) عبد العزيز سالم ــ تاريخ المغرب الكبير ــ ج 2 ــ 1981ــ ص. 256.
ــ الاستقصا ــ ج 1 ــ ص. 95 ــ 96.
ــ تاريخ بن خلدون ــ ج 6 ــ ص. 110.

(23) الاستقصا ــ ج 1 ــ من ص. 96 إلى ص. 99.

ففي 96هـ / 715 ــ 714م استخلف موسَى بن نصير ابنه عبد الله على افريقيا وتوجه من القيروان نحو دمشق ، حاضرة الخلافة ، بالغنائم الكثيرة التي غنمها في معاركه ضد قوط الأندلس . وحين وصل إلى مصر بلغه الخبر بأن الخليفة الوليد بن عبد الملك مريض ويستحثه للاسراع إلى مقابلته بينما جاءه كتاب من أخ هذا الأخير ــ سليمان ــ يثبطه رجاء وفاة الوليد ليستأثر هو بالغنائم . فواصل سيره ودخل دمشق قبل أن يلفظ الوليد أنفاسه بثلاثة أيام مما جلب له نقمة سليمان أثناء خلافته ، فنكبه ودبر اغتيال ابنه عبد العزيز ، والي الأندلس ، وعزل عبد الله عن المغرب[24] .

وهذا يدل على فساد نوايا بعض الخلفاء الأمويين إزاء الفتوحات الإسلامية إذ سيطرت عليهم نزوات الجشع والأبهة ففرضوا على المسلمين الجدد من العجم والبربر أداء الجزية لملء خزائنهم الخاصة وسخروا أوليائهم لأغراضهم .

فهذا يزيد بن أبي مسلم الذي عينه يزيد بن عبد الملك واليا على المغرب يثقل كاهل البربر بالضرائب الباهضة فيثير جام غضبهم عليه فيقتلوه في 102هـ / 721 ــ 720م[25] .

وكان يزيد بن أبي مسلم من الذين لا يخافون في مؤمن إلا ولا ذمة ، غليظ الطبع ، قوي الشكيمة ، حتَّى قال فيه الوليد بن عبد الملك بعد وفاة الحجاج بن يوسف الثقفي الذي حكم العراق بالحديد والنار بمساعدة يزيد بن أبي مسلم كاتبه ورئيس شرطته :

...ما مثلي ومثل الحجاج وابن أبي مسلم بعده إلا كرجل ضاع منه درهم فوجد دينارا !

---

(24) نفس المصدر ــ ص. 99 ــ 100.

(25) نفس المصدر ــ ص. 103.
ــ تاريخ بن خلدون ــ ج 6 ــ ص. 110.

وقال الوضاح بن أبي خيثمة ، حاجب عمر بن عبد العزيز :

أمرني عمر بن عبد العزيز اخراج قوم من السجن وفيهم يزيد بن أبي مسلم فأخرجتهم وتركته فحقد علي . فلما مات عمر هربت إلى افريقية إذ قيل قدم ابن أبي مسلم واليا . فاختفيت فاعلم بمكاني وأمر بي فحملت إليه فلما رآني قال :

....طالما سالت الله أن يمكنني منك ! .

فقلت : وانا والله لطالما سألت الله أن يعيذني منك ! .

فقال : ما أعاذك الله ... والله لأقتلنك ولو سابقني فيك ملك الموت لسبقته !

ثم دعا بالسيف والنطع فأتى بهما ، وأمر بالوضاح فأقيم عليه مكتوفا وقام السياف وراءه . ثم أقيمت الصلاة ، فتقدم يزيد إليها ، فلما سجد طعن بسيف أعدائه ! فنجا الله بذلك الوضاح بن أبي خيثمة[26] .

وفي أيام الخليفة هشام بن عبد الملك قدم إلى افريقية الوالي عبد الله بن الحبحاب سنة 114هـ / 733 ــ 732م فاستقر بمدينة تونس واستعمل في الجزء الشمالي من المغرب الأقصى عمر بن عبيد الله المرادي الذي عاث في الأرض فسادا وأجبر البرابر المسلمين على أداء ضرائب لا شرعية ولم يكتف بذلك بل أراد أن يخمسهم ظنا منه بأنهم فيء وأباد عددا هائلا من أغنامهم بحثا عن الجلود الجيدة : فكانت الصرمة من الغنم تهلك ذبحا لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها ولا يوجد فيها مع ذلك إلا الواحد وما قرب منه ! فاضطربت الحياة الاقتصادية خصوصا في شرق المغرب الذي كان ولايزال مشهورا بتربية الأغنام[27] .

---

(26) الاستقصا ج 1 ــ ص. 102 ــ 103.

(27) المصدر السابق ــ ص. 106.

واستعمل في الجزء الجنوبي ابنه اسماعيل بن عبيد الله الذي اضطهد أهل سوس وانتهب أموالهم ثم بعث جيشا بقيادة حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع إلى هذه النواحي فقاتل قبيلة مسوفة ثم توغل في الصحراء للاجهاز على القوافل الآتية من بلاد السودان والمحملة بالذهب والفضة فأصاب منها ومن السبي الشيء الكثير[28] .

ولقد كونت هذه الأوضاع المناخ الملائم للمنافسات السياسية تارة بدافع من العصبية العربية التي أدت إلى صراع مرير بين الفرق كالقيسية واليمنية في المغرب والأندلس وتارة أخرى لنشر المذهب الديني الذي انتحلته طائفة الخوارج أثناء الأحداث التي مزقت صفوف الأمة الإسلامية في خلافة الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

ففي ولاية عبيد الله بن الحبحاب ثار ميسرة المضغري أو المدغري البتري في منطقة طنجة حاملا لواء الفرقة الخارجية الصفرية فقاتل عمر بن عبيد الله المرادي سنة 122هـ / 740 ــ 739م وانتصر عليه ، إلا أن ميسرة لم يعمر طويلا لأن استبداده بالأمر أدّى إلى سقوطه واستخلافه بخالد بن حميد الزناتي[29] الذي هزم جيش خالد بن أبي حبيب الفهري قرب وادي شلف في المغرب الأوسط في 123هـ / 741 ــ 740م فقضَى في هذه المعركة على : حماة العرب وفرسانها وكماتها وأبطالها : ولذلك سميت معركة الاشراف[30] .

ومما زاد في نشوب الصراعات على الحكم ما آلت إليه خلافة بني أمية

---

(28) المصدر السابق ــ ص. 105 ــ 106.
ــ محمود اسماعيل. الخوارج في المغرب الاسلامي. ص. 48.
(29) الاستقصا ــ ج 1 ــ ص. 109 ــ 108.
ــ محمود اسماعيل ــ ص. 49.
(30) محمود اسماعيل. ص. 50 ــ 51.
ــ ابن عذارى ــ البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب. ج 1 ــ ص. 53 ــ 54.

من ضعف واختلال أدَّى إلى اضمحلالها وقيام الدولة العباسية في المشرق العربي في 139هـ / 756م .

وإن الأحداث التي برز فيها دور الطائفتين الخارجية الصفرية والأباضية جعلت بعض المؤرخين الأروبيين وحتَّى العرب يفسرونها صراعا عرقيا بين العرب والبربر لما أظهر العنصر الأول أحيانا من سلوك سيء واستعلاء مقيت ، غير أن مميزات الديانة الإسلامية صهرت العنصرين في بوتقة واحدة وشكلت منهما أمة قوية حينما تضع المصالح المشتركة فوق الأنانيات الإقليمية المفككة والنزعات القومية الضيقة .

الفصل الثاني

عهد الأمراء الزيريين

ينتمي زيري بن عطية بن عبد الله بن تبادلت بن محمد بن خزر إلى قبيلة مغراوة الزناتية التي كانت تنتقل بين نهري ملوية وتافنا وتخوم الصحراء المغربية .

ومن الجدير بالذكر ان جده خزر بن صولات قدم من بلاده إلى المدينة المنورة في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي أكرم وفادته ودعاه إلى الإسلام فرضي به وحسن إسلامه .

وفي النصف الثاني من القرن الرابع أي منذ سنة 368هـ / 978م كان زيري بن عطية سيد قومه لدرجة أن ابن عذاري يقول بأنه صار أمير زناتة كلها[1] .

ولقد كان في بداية الأمر متحالفا مع الأمير الأموي الأندلسي هشام بن الحكم المؤيد بالله[2] أو على الأصح مع حاجبه محمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور ، خصوصا ضد الخلفاء الفاطميين .

ففي 375هـ / 985م ساعده في اخماد الثورة التي حركها في شمال المغرب أحد أحفاد الأدارسة الحسن بن جنون الذي استسلم لقائد الجيش الأموي فحمله إلى قرطبة فأمر المنصور بقتله قبل أن يصل إليه[3] .

وفي 377هـ / 987م استولى على مدينة فاس بعد اجلاء بني ايفرن الزناتيين منها ثم نهض إلى مدينة تلمسان فانتصر على الأمير الصنهاجي أبي

---

(1) البيان المغرب — ج 1 — ص. 252.

(2) ان هشام بن الحكم اعتلى على العرش وهو صبي لا يتجاوز عمره تسع سنين، فتولى دفة الحكم الوزير محمد بن ابي عامر الذي كان يتمتع بشخصية فريدة والذي لقب بالمنصور عقب انتصاراته الباهرة على جيوش المسيحيين.
احمد مختار العبادي — في تاريخ المغرب والاندلس. — ص. 223 — 224.
— احمد بن محمد المقرى — نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب — ج 1 — ص. 396.

(3) احمد مختار العبادي — في تاريخ المغرب والاندلس — ص. 236.
— ابن عذارى — ج 2 ص. 281.

البهار بن زيري بن مناد[4] ، وفي السنة الموالية آزر الوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود في بسط النفوذ الأموي ضد الأمير اليفرني يدوي بن يعلى[5] .

وبعد الرخاء العظيم الذي ميز سنة 380هـ / 990م إذ كان «الزرع لا يجد من يشتريه لكثرته وكان الحراثون يتركونه في فداديهم ولا يحصدونه لرخصه»[6] توجه زيري بن عطية في 381هـ / 991م إلى قرطبة استجابة لدعوة من المنصور حاملا إليه هدايا نفيسة منها «طائر فصيح يتكلم بالعربية والبربرية (ببغاة) ، ودابة من دواب المسك ، ومهات وحشية تشبه الفرس ، وحيوانات غريبة ، وأسدان عظيمان في قفصين من حديد ، وشيء كثير من التمر في غاية الكبر الواحدة منه تشبه الخيارة من عظمها»[7] فخصص له المنصور اكراما فائقا «واستقبله بالجيوش والعدة واحتفل للقائه وأوسع نزله وجرايته ونوه باسمه في الوزارة واقطعه رزقها وأثبت رجاله في الديوان ووصله بقيمة هديته وأسنَى فيها وأعظم جائزته وجائزة وفده»[8] .

ونستشف من الأحداث اللاحقة أن كلا من الرجلين كان يقصد من هذه المجاملات اظهار العظمة والافتخار بعلو المقام رغم أن ابعاد سياستهما كانت متناقضة إلى حد ما . فالمنصور كان يريد أن يوطد سلطته في المغرب بواسطة زيري بن عطية بينما كان هذا الأخير يفضل ان يتعامل معه كأمير له

---

(4) تميزت سنة 377 هـ أيضا بالجراد الذي فتك ببلاد المغرب.
علي بن ابي زرع الفاسي ــ الانيس المطرب ــ ص. 102.

(5) تاريخ بن خلدون ــ ج 7 ــ ص. 28 ــ 29.
ــ الانيس المطرب ــ ص. 102 ــ 103.

(6) الانيس المطرب. ص. 102.

(7) المصدر السابق. ص. 104.
ــ الاستقصا ــ ج 1 ــ ص. 210 ــ 211.

(8) تاريخ بن خلدون ــ ج 7 ــ ص. 30.
ــ الانيس المطرب. ص. 104.

استقلال الرأي والنفوذ بحيث لم يرض بلقب الوزير وقال لبعض رفاقه الذي دعاه بهذا الاسم : ...«وزير من يالكع ؟ فما والله إلا أمير بن أمير ، واعجبا من ابن أبي عامر ومخرقته ، والله لو كان بالأندلس رجل ما تركه على حاله ، وإن له منا ليوما ، والله لقد تأجرني فيما اهديت إليه حطا للقيم ثم غالطني بما بذله تنبيتا للكرم إلا ان يحتسب بثمن الوزارة التي حطني بها من رتبتي ..»[9] .

ويبين لنا هذا الموقف مدَى اعتزاز زيري بن عطية بشخصيته القوية وبسمو مكانته في قومه وبحنكته السياسية . فقد كان على علم بمحاولات المروانيين لاصطناع رؤساء القبائل المغربية ولدرء التطلعات إلى توسيع مناطق النفوذ سواء من جانب الأدارسة الذين كانوا يقفون حجرة عثرة في وجه الأمويين أو من جانب الفاطميين الذين كانوا يستغلون الصراعات الطائفية والظروف الاقتصادية لبث مذهبهم في شمال افريقيا .

ولادراك الدواعي التي أملت على الأمير المغراوي أن يتخذ موقفا شجاعا وحازما أمام الأمويين ينبغي لنا أن نتتبع التطورات الخاصة بالحركة الفاطمية في المغرب .

لقد بدأ هناك النشاط الشيعي المتستر في مرحلة أولى منذ القرن الثاني بفضل دعاة جاءوا من المشرق العربي لاستمالة البربر للتعبير عن تقدير خاص لآل بيت رسول الله ﷺ والاقتداء بهم والالتفاف حولهم . وفي النصف الثاني من القرن الثالث تلتها مرحلة ظهرت فيها جموع مهمة من قبائل كتامة بين جبال أوراس والبحر المتوسط بقيادة الامام أبو عبد الله ، فنشبت حروب مع دولة الأغالبة التي كان مقرها مدينة القيروان ومع دولة الخوارج من بني رستم التي كانت عاصمتها مدينة تاهرت في المغرب الأوسط ، فقضَى عليهما أبو عبد الله في نفس السنة أي في 297هـ /

(9) تاريخ بن خلدون — ج 7 — ص. 30.

909م ثم اتجه نحو مدينة سجلماسة ليلتحق بالإمام الحقيقي عبيد الله المهدي الذي جاء متخفيا من المشرق وكان قد سجن هناك من طرف الأمير الخارجي اليسع بن مدرار ، فخلصه أبو عبد الله من السجن وتنازل له عن مقاليد الأمور وبذلك تأسست أول دولة فاطمية في المغرب الأدنى والأوسط .

وكان من الطبيعي أن يحدث صدام بين مصالح الفاطميين وأموي الأندلس بحكم التباين الهائل في مذهبهم الديني إذ أن الطائفة الشيعية كانت تستهدف استقطاب كل المسلمين والاستئثار بلقب الخلافة دون غيرها ولذلك كانت تستحل دم كل من أعلن نفسه خليفة على المؤمنين مثل الأمير الأموي عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر لدين الله (300 ــ 355هـ) .

وإذن ، يطرح هذا السؤال : كيف كانت تطورات الصراع بين الدولتين ؟

لقد قرر الخليفة عبد الرحمن الثالث عدة تدابير حاسمة لمواجهة كل خطر محتمل من جانب الفاطميين ، فشرع في تحصين موانئ العدوة الأندلسية مثل طريف والجزيرة الخضراء في 302هـ / 914م ، ثم احتل ثغور العدوة المغربية مثل مليلية في 314هـ / 927م وسبتة وطنجة في 319هـ / 931م فحولها إلى قواعد أمامية وجدد تحصيناتها للسيطرة على الملاحة في مضيق جبل طريف من جهة ، ومن جهة ثانية للتدخل في السياسة المغربية واثارة القبائل ضد الفاطميين واعوانهم وخصوصا لاستعمال قبيلة زناتة ضد قبيلة صنهاجة[10] ، فاضطربت أحوال البلاد المغربية من القيروان إلى طنجة بسبب الدسايس السياسية واستفحل الصراع بين

(10) في تاريخ المغرب والاندلس. ص. 173 إلى 190.
ــ ابن عذارى ــ ج 2 ــ ص. 204.
ــ ابن حيان القرطبي ــ المقتبس. ج 5 ــ ص. 288 إلى 290.

منطقتين يفصلهما على وجه التقريب وادي شلف ، منطقة شرقية تحت سيطرة بني زيري الصنهاجيين ، حلفاء الفاطميين الذين كانوا قد حولوا مركز دولتهم إلى مصر في 358هـ / 969م ، ومنطقة غربية تابعة للقبائل الزناتية التي كانت تارة مستقلة وتارة متحالفة مع الأمويين[11] ؛ مما جعل التوازن في القوى معرضا لاخطار ناتجة عن التغيرات في موقف المتحالفين وكذلك في مواقف القبائل المتصارعة على الساحة المغربية .

ويتجلى لنا من مشاركة قبيلة ازناتة في مسيرة الأحداث أن أميرها محمد بن خزر وهو من أسلاف زيري بن عطية كان من بين شيوخ البربر أول من كاتبه الخليفة الناصر لدين الله نظرا لعلو مقامه فيهم فكسب مودته وولائه وخلع عليه أصناف المكافآت الجليلة .

لقد كان محمد بن خزر حميد الصفات ، تقيا ، ورعا وشجاعا لا يميل إلا مع الحق البين والنهج القويم ، فآثر أن يعلن بيعته للجانب الذي له المواصفات الإسلامية الأصيلة بدل أن يستعمل أسلوب الموادعة بين الطرفين المتنافرين أو أن ينهج سياسة المتذبذب بينهما أو أن يتشيع للخلافة العباسية .

ويكفينا دليلا نص الرسالة التي وجهها إلى الخليفة الأموي في أواخر 317هـ / 929م :

....والله يا أمير المؤمنين ما اعلم على وجه الأرض أحدا أعرف بما أوجب الله لك مني ، لأني ما قمت بدعوتك إلا تقربا إلى الله تعالى وتوصلا إلى قتال كفار المشارقة بحقها وصدقها ، فقد يعلم الله تعالى أني لم أتعرض للمشارقة ، أهلكهم الله على يدك ما تعرضوني ، كما اني كففت زمانا عنهم قبل استحكام البيصرة فيك ، فكفوا عني ورضوا بذلك مني

(11) في تاريخ المغرب والاندلس. ص. 213 — 214.
— ابن عذارى — ج 2 — ص. 242 — 243.

حتَّى رأيت أمرهم قد عم الناس شره ، وقد حاولوا أن يبطلوا نور الإسلام بما كادوا به أهله ، فاستخرت الله في جهادهم ، وقمت أدعو ربي في جوف الليل في التوفيق والتسديد وان يخير لي وللمسلمين في مناهضتهم ويكشف عنا ما أغمنا من غيهم وشرهم ، وفكرت في امام اعتلق حبله وأكون على بينة من أمري في الدعاء إليه ، وقد تشبثت في حبال المسودة من بني العباس ، واستدعاني أخي المقيم عندهم بمصر ، في أول الأمر ، يروم ثنيي إليهم واستجلابي نحوهم ، فعصمني الله من ذلك باتباع الحق ، وأخذي برأي الناصح المرشد ، واصغائي إلى ما أوضح من الأمر ، حتَّى علمت يا أمير المؤمنين أنك أحق الناس بالخلافة ، انها بيدك ميراث لا ينازعك فيها إلا من دفع الحق وعصَى الله ورسوله .

فاطرحت الهوادة وأثرت الحق ، وهربت بنفسي إلى أمير المؤمنين بنية صادقة وبصيرة نافذة ، وبرئت من الناس الا منه ، ودفعت الإمامة إلا هو ، ورجوت أن ينصرني الله به وعلى يديه وأن ينظر في أمري وأمر المسلمين من أهل افريقية المضطهدين النظر المأمول منه حتَّى يكشف الله تعالى عنهم ما هم فيه من البلاء والردة ، وأن يعزنا الله ، معشر زناتة بهذه الدعوة الحق المنصورة ، حتَّى يرفعنا على جميع الناس بها ، فنكون أولياء دعوتك وأنصار دولتك ، فإنك يا أمير المؤمنين مولى كل بربري على الأرض إذ ببني أمية هداهم الله للاسلام ، وعساكرهم هي التي ادخلتهم فيه وأخرجتهم من المجوسية بإذن ربهم ، فمن كفر منهم هذه النعمة فهو كافر بالله ورسوله موليها ، ثم لا يقبل الله له صدقا ولا عدلا ، ووالله ما حابيناك يا أمير المؤمنين ، بالاقرار لك إذ وجدنا الحق في يدك ، والاجماع من الناس على أنك أولى بالخلافة من كل من ينتحل اسمها معك ، كذلك يشهد لي كل من تقدم إلينا من المشرق من نواحي افريقية ، فكلهم يشكر

فعلي ويقر لي بأن الحق معي ، وبه أحمد رأي من نصحني ، وبالحق عرفني ، وعليه حضني ..[12] .

ولابد من الإشارة إلى أن هذه الرسالة كانت مصحوبة بهدايا سنية منها : «...عشرة نجب مخصية .. بسروجها وارسانها وازمتها ... معلقا عليها عشر درقات من نفائس درق اللمط ، وعشرين ناقة ، حوامل عشارا وغيرها ، معها فحل لها جليل الخلقة رفيع البنية ، معها راعيها عبد أسود ماهر يرعَى الابل بصير بأدواتها ، وثمانية عشر فرسا من جياد الخيل العربية ، منها فرس أصفر أسود العرف والذيل مهضوم ، وفرس كميت أزرق العينين بذيله سواد ، وفرس أشقر عناسي أغر مخضب الأربع ، وفرس أشهب عناسي بأذنيه وطرف ذنبه وردة ، وأربعة من عتاق الخيل ، قيود للعيون ، بزت مقودات الناصر لدين الله ببراعة الحسن وغرابة الخلقة ، فلم يكن لها في جميع خيل ركابه على كثرتها أشباه لها ، اثرها على جميع الهدية . وقرن بذلك من غريب الحيوان ببلد الأندلس أسدين ضاريين مع سباع يسوسهما ، وأربع نعائم ...» فانعم عليه الخليفة الأموي بالطاف وهدايا تشتمل على ملابس وكسي وحلي رفيعة القيمة منها : «عشر قطع مختلفة الأجناس مما استعمل لكسوته الخاصة ، من عتيق الخز العبيدي لوغريبه وبديعه في التأليف والصنعة ..» مطرزة باسم محمد بن خزر[13] .

ويبدو أن العلاقات الودية بين إمارة الزناتة والخلافة الأموية الأندلسية لم تزدها الأيام إلا رسوخا ومتانة أمام الخطر المشترك الذي تمثل في أطماع الخلافة الشيعية ، ولكن سرعان ما بدأ هذا الخطر يبتعد عن المغرب الأقصَى فتغيرت تلك العلاقات شيئا فشيئا حين شعر الأمير زيري بن عطية بعدم الفائدة في موادعة دولة أصبحت في الواقع في يد الوزير المنصور بن

(12) المقتبس — ج 5 — ص. 265 إلى 267.
(13) المصدر السابق. ص. 267 — 268.

أبي عامر الذي استبعد بمقاليد الأمور وأظهر رغبته في السيطرة على المغرب برمته ، مما حدا بالأمير المغراوي إلى اتخاذ قرارين هامين إثر رجوعه من رحلته إلى قرطبة في 381هـ / 991م لتدعيم مركزه في المغرب :

أولا : حسم منافسة الأمير اليفريني يدوي بن يعلَى الذي احتل مدينة فاس فضرب عليه الحصار وقضَى عليه في 382 ــ 383هـ / 993 ــ 992م[14] .

ثانيا : تأسيس مدينة تكون بمثابة عاصمة ثانية وقاعدة خلفية يلتجئ إليها إذا اقتضَى الحال ان يترك العاصمة فاس[15] ، ويخلد بها ذكره وتكون رمزا لنفوذه السياسي في شمال المغرب الأقصَى والأوسط وتعبر كذلك عن ارادته في تعزيز الإمارة الزناتية ، فاختار موقعا في سهل منبسط يتوسط إمارته ويوجد على مقربة من ينابيع سيدي يحيَى ولا يبعد عن البحر المتوسط إلا بمسيرة أقل من مرحلتين ، وتؤمه قوافل التجار والقبائل البدوية الضاربة حوله ، فأسس قصرا وقصبة ومسجدا جامعا وحمامات في أرباض مدينة وجدة في غرة رجب 384هـ / غشت 994م[16] ، فعلا بها

---

(14) الانيس المطرب ص. 104 ــ 105.

(15) لقب زيرى بن عطية بالقرطاس تشبيها بحديقة القرطاس التي غرست في عهده بضواحي مدينة فاس. في تاريخ المغرب والاندلس. ص. 237.
اما اسم الفرطاس أي الاقرع الذي ورد في بعض النصوص التاريخية فمن المرجح أنه اسم عامي جاء من كثرة استعمال كلمة قرطاس.

(16) الاستقصاء ــ ج 1 ــ ص.213.
ــ الانيس المطرب ــ ص. 105.
ــ احمد بن القاضي المكناسي ــ جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس. ص. 198 ــ199.
ــ كان انشاء وجدة الزيرية في فترة يمن وبركات حيث هطلت امطار غزيرة بعد ثلاثة اعوام من القحط الشديد والمجاعة المفرطة من 377 إلى 379.
ومن الراجح أن المدينة تضررت بالرياح الهائلة التي هبت في 995/385م «وهدمت المباني بمدينة تلمسان واحوازها واقتلعت الاشجار العظام ونظر الناس إلى البهائم تمر بين السماء والأرض....» الانيس المطرب. ص. 114 إلى 116.

شأنه وأعلن مناوآته لحاكم الأندلس بدافع من نزعة وطنية واستنكارا لاستبداد المنصور بالحكم «وتغلبه على هشام وسلبه ملكه»[17] .

وليس من الغريب أن زيري بن عطية حاول أن يتدخل بدوره في الشؤون السياسية ليضع دفة الحكم بيد الخليفة هشام بن الحكم إذ تآمر مع أم هذا الأخير السيدة صبح التي ضاقت بالمنصور ذرعا فدبرت وسيلة لامداد زيري بن عطية بالأموال اللازمة فأخذت كمية من بيت المال ووضعتها في جرار في شكل هدايا لحملها إليه . ولكن المنصور أحبط هذه الخطة بفضل جواسيسه وقرر نقل بيت المال من قصر الخليفة بمدينة الزهراء إلى قصره بمدينة الزاهرة التي بناها لنفسه[18] .

ولم يتوان المنصور في مواجهة الموقف بحزم وقوة فانفذ إلى المغرب جيشا برئاسة واضح الفتَى تعزز بامداد من قبائل صنهاجة وغمارة فدارت بينه وبين زيري بن عطية معارك ضارية قرب مدينة طنجة مدة ثلاثة أشهر دون أن ترجح كفة احداهما . ومن الجدير بالتنويه انه أثناء الملحمة كان شعار الأندلسيين : يامنصور ! ! ! بينما كان جنود الأمير المغراوي يرددون شعارا له مغزَى معين وهدف واضح وهو : هشام يامنصور ! ! !

واستأنفت المعركة حين جاءت نجدات أخرى من الأندلس تحت لواء عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر في حين التفت قبائل الزناتة من أرجاء المغرب ، من بلاد ملوية وتلمسان والزاب وغيرها حول زيري بن عطية الذي كان واثقا في قوته بحيث حاصر أعداءه في أحواز طنجة وأغار عليهم مرارا بدون هوادة ، إلا أنه حيكت ضده مؤامرة من طرف أحد خدامه اسمه كافور بن سلام الأسود للثأر لأخيه اعتقادا منه انه اغتيل

---

(17) ابن عذارى — ج 2 — ص. 281 — 282.
— نفح الطيب — ج 1 — ص. 398.

(18) في تاريخ المغرب والاندلس. ص. 238.

بايعاز من زيري بن عطية ، فتحين الفرصة وطعن هذا الأخير بسكين في عنقه ثم قصد عبد الملك المظفر ليزف إليه الخبر.

والراجح أنه ليس من المستبعد أن تكون خيوط المؤامرة بوحي من المنصور الذي قد سبق له أنه تعرف بكافور أثناء رحلات الأمير المغراوي إلى الأندلس فلجأ إلى تسخيره لانهاء النزاع بطريقة محكمة وسريعة[19].

وحسبنا ان زيري بن عطية نجا من المكيدة مثخنا بالجراح فتقهقر أمام خصومه في شهر رمضان من سنة 387هـ / شتنبر 997م ، وقفل راجعا إلى مدينة فاس التي تنكر له أهلها فاغلقوا دونه الأبواب بعد أن سمحوا لأهله وحاشيته بالالتحاق به ثم لاذ ببني جلدته إلى الصحراء[20].

ومما يدل على قوة المقاومة الزيرية لهجمات الأمويين انه عقب هذه الأحداث بلغت أريحية المنصور إلى اعتاق 1500 مملوك وثلاثمائة مملوكة والاكثار من الصدقات على الفقراء والمساكين شكرا لله[21].

ثم توجهت أنظار زيري بن عطية إلى المغرب الأوسط ، فانطلق من مدينة وجدة لاستنفار القبائل الزناتية ضد الأمير الصنهاجي باديس بن منصور بن بلكين فاستولى على عدة حواضر منها تلمسان والمسيلة وتاهرت ، ثم أظهر رغبته في المصالحة فعقد تحالفا مع الأمير الأندلسي المؤيد بالله إلى

---

(19) المصدر السابق. ص. 238 ــ 239.
ــ جذوة الاقتباس. ص. 199.
ــ ورد في رواية اخرى ان زيرى بن عطية طعن برمح في قفاه من طرف ابن عمه الخير بن مقاتل. ابن عذارى ــ ج 2 ــ ص. 282.

(20) تاريخ بن خلدون ــ ج 7 ــ ص. 32 ــ 33.
ــ الاستقصا ــ ج 1 ــ ص. 213 إلى 215.
ــ ابن عذارى ــ ج 2 ــ ص. 282.
ــ الانيس المطرب. ص. 106 ــ 107.

(21) المصدر السابق. ص. 107.
ــ ابن خلدون ــ ج 7 ــ ص. 32 ــ 33.
ــ الاستقصا ــ ج 1 ــ ص. 216.

أن توفي في يوم الثلاثاء 12 رمضان 391هـ / 5 غشت 1001م ، قرب وادي شلف أثناء رجوعه من حصاره لمدينة آشير[22] .

فخلفه ابنه المعز الذي حافظ على علاقات وثيقة مع أموي الأندلس سواء في أيام المنصور بن أبي عامر أو في عهد ابنه عبد الملك المظفر الذي ولاه على المغرب بعد أن عزل من فاس واضح الفتَى في إطار الاتفاقية التي أبرمت سنة 393هـ / 1002م والتي بمقتضاها ارسل المعز ابنه معنصر إلى قرطبة كرهينة شاهدة على حسن نواياه . وكان نص المعاهدة التي حملها إليه الوزير أبو علي بن خديم كما يلي :

«...من الحاجب المظفر سيف الدولة ، دولة الامام الخليفة هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين أطال الله بقاءه عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر إلى كافة أهل مدينتي فاس وكافة أهل المغرب سلمهم الله ، أما بعد ، أصلح الله شأنكم ، وسلم أنفسكم واديانكم ، فالحمد لله علام الغيوب ، وغفار الذنوب ، ومقلب القلوب ، ذي البطش الشديد ، المبدئ المعيد ، الفعال لما يريد ، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه ، بل له الملك والأمر ، وبيده الخير والشر ، إياه نعبد وإياه نستعين ، وإذا قضَى أمرا فإنما يقول له كن ، فيكون ، وصلَّى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين ، وعلى آله الطيبين ، وجميع الأنبياء والمرسلين ، والسلام عليكم أجمعين ، وان المعز بن زيري بن عطية أكرمه الله ، تابع رسله لدينا وكتبه ، متنصلا من هنات دفعته إليها ضرورات ، ومستغفرا من سيئات حطتها من توبته حسنات ، والتوبة ممحاة الذنوب ، والاستغفار منقذ من العتب ، وإذا اذن الله بشيء يسره ، وعسَى أن تكرهوا شيئا ولكم فيه خيره ، وقد وعد

---

(22) المصدر السابق. ص. 216 — 217.
— ابن عذارى — ج 1 — ص. 250 — 252 — 266.
— الانيس المطرب. ص. 107.
— تاريخ بن خلدون — ج 7 — ص. 33.

من نفسه استشعار الطاعة ، ولزوم الجادة ، واعتقاد الاستقامة ، وحسن المعونة وخفة المؤونة ، فوليناه ما قبلكم ، وعهدنا إليه أن يعمل بالعدل فيكم وان يرفع أعمال الجور عنكم ، وان يعمر سبلكم ، وأن يقبل من محسنكم ، ويتجاوز عن مسيئكم ، الا في حدود الله تبارك وتعالى ، وأشهدنا الله عليه بذلك ، وكفَى بالله شهيدا ، وقد وجهنا الوزير أبا علي بن حذيم أكرمه الله وهو من ثقاتنا ، ووجوه رجالنا ، ليأخذ بشأنه ويؤكد العهد فيه عليه بذلك وأمرنا باشراككم فيه ، ونحن بأمركم معتنون ، ولأحوالكم مطلعون ، وأن يقضي على الأعلى للأدنَى ولا يرضي فيكم بشيء من الأدنَى ، فثقوا بذلك واسكنوا إليه وليمض القاضي أبو عبد الله أحكامه مشدودا ظهره بنا ، معقودا سلطانه بسلطاننا ، ولا تأخذه في الله لومة لائم ، فذلك ظننا به إذ وليناه ، وأملنا فيه إذ قلدناه والله المستعان ، وعليه التكلان ، لا إله إلا هو ،....[23]

وإذا استثنينا عامي المخمصة والقحط والوباء في 407 ــ 411هـ / 1016 ــ 1020م وكذلك المحاولة الفاشلة التي قام بها المعز بن زيري في 407هـ / 1016م للاستيلاء على امارة سجلماسة التي كانت بأيدي بني واندين بن خزرون يمكن القول ان عهده كان عهد أمن ورخاء[24] فازدهرت فيه الحركة التجارية داخل البلاد وخارجها وتوطدت المبادلات بين الموانئ الأندلسية ونظيراتها المغربية ، ولا أدل على ذلك من الهدايا التي كان أميرا البلدين يتبادلانها في البعثات الديبلوماسية وفي شتَّى المناسبات . ففي 399هـ / 1008م بعث المعز بن زيري إلى عبد الرحمن بن المنصور بهدية نفيسة فيها 50 فرسا وأخرى فيها 900 فرس وأحمال كثيرة من درق

(23) المصدر السابق. ص. 34.
ــ الاستقصا ــ ج 1 ــ ص. 217 ــ 218.
ــ الانيس المطرب. ص. 108.
(24) المصدر السابق. ص. 118.
ــ تاريخ بن خلدون ــ ج 7 ــ ص. 34 ــ 35.

اللمط والسلاح[25] . غير أن أحوال المغرب اضطربت بعد وفاة المعز بن زيري في 422هـ / 1031م[26] أي في عهد ابن عمه حمامة بن المعز الذي فقد المساندة السياسية والعسكرية الأندلسية إثر الفتن التي نشبت بين ملوك الطوائف فثار عليه أمير مدينة سلا ، أبو الكمال تميم بن زيري اليفرني سنة 424هـ / 1033م وأرغمه على اجلاء مدينة فاس والاستقرار بمدينة وجدة حيث تجمعت حوله وفود قبائل شرق المغرب ، مغراوة وأنجاد مديونة وزناتة ومن انضاف إليهم من بطون المغرب الأوسط . وبعد اعداد العدة وحشد المقاتلين زحف حمامة إلى فاس سنة 429هـ / 1037 ـ 1038م واستردها من خصمه[27] .

أما أيام دوناس بن حمامة (431 ـ 451هـ / 1039 ـ 1059م) فقد اتسمت بالازدهار العمراني وتشييد القصور والمساجد والأسوار والفنادق ووفرة السلع رغم الحرب التي وقعت بينه وبين ابن عمه حماد بن معنصر بن المعز في الفترة 431 ـ 435هـ / 1039 ـ 1043م .

وتميز عهد الفتوح بن دوناس (451 ـ 455هـ / 1059 ـ 1063م) بحركة المعارضة والتمرد التي قادها أخوه الأصغر عجيسة مدة ثلاث سنوات ترتب عنها نقص هائل في الأموال والثمرات ونزوح بعض القبائل من مواطنهم المألوفة بسبب المجاعة المفرطة والغلاء الفاحش في الأسعار . وكان

---

(25) الاستقصا ـ ج 1 ـ ص. 219.
ـ ابن عذارى ـ ج 1 ـ ص. 253 ـ 254.
(26) حسب ابن خلدون توفي المعز بن زيرى في 417هـ/1026م. ج 7. ص. 35.
(27) الانيس المطرب. ص. 109 ـ 110.
ـ تاريخ بن خلدون. ج 7. ص. 35.
ـ الاستقصا. ج 1. ص. 220 ـ 221.

ذلك نذيرا بانقراض دولة بني زيري بن عطية إذ ظهرت حركة المرابطين في خلافة معنصر بن حماد بن معنصر (455 ـ 460هـ / 1063 ـ 1067م) ثم تميم بن معنصر الذي قتل أثناء الحصار الذي ضربه يوسف بن تاشفين على فاس قبل الاستيلاء عليها سنة 462هـ / 1069م[28] .

(28) المصدر السابق. ص. 222 ـ 224.
ـ ابن عذارى. ج 1. ص. 254 ـ 255.
ـ تاريخ بن خلدون. ج 7. ص. 35 ـ 36.
ـ الانيس المطرب. ص. 111 إلى 114. ـ 139 ـ 140.

الفصل الثالث

وجـــدة :
المدينة التي تنبعث من أجداثها

إن بعض الشواهد التاريخية تشير غير ما مرة إلى عوارض النكبات التي تلاحقت على مدينة وجدة والتي بلغت درجة من العنف والتخريب والتحطيم كادت تمحوها من خريطة البلاد لولا عوامل البقاء والحياة التي كانت راسخة في أرضها وسكانها .

فما هي الأسباب التي نقلت أهم حاضرة في سهل أنجاد من أيام السعادة والازدهار إلى أيام البؤس والاندثار ؟

ولماذا كان الجانب المنتصر يصب جام انتقامه وحنقه على تحصينات المدينة ودورها وأسواقها ؟

يبدو لأول وهلة أن هناك على الأقل عاملين أثرا أيما تأثير على مجريات الأحداث بالمنطقة بكاملها :

أولا ، رغبة بعض الملوك في بسط نفوذهم على أطراف واسعة من افريقيا الشمالية كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا .

ثانيا ، سواء حصلوا على مبتغاهم أو كانت الكرة عليهم فمعطيات هذه الصراعات ولاسيما حينما كانت تتكون مملكة أو إمارة بمدينة تلمسان كانت تنعكس على مدينة وجدة بكيفية أو بأخرى انطلاقا من موقعها ومن المقومات الشخصية والعصبيات القبلية لمن كان يعمرها أو يظعن بضواحيها .

ولقد ظهرت تلك المعطيات بشكل واضح حينما بدأ نجم الدولة الموحدية يميل إلى الأفول والاضمحلال في عهد السلطان أبو محمد الرشيد الذي واجه الصعاب أمام المرينيين المتطلعين إلى الحكم ، فاضطر إلى التماس مساعدة الأمير يغمراسن بن زيان مؤسس دولة بني عبد الواد بتلمسان .

ثم ان أخاه علي بن ادريس الملقب بأبي لحسن السعيد الذي خلفه في

1242م ــ وعمره 24 سنة ــ حاول أن ينهج نفس الخطة لكن بدون فائدة تذكر ، فقرر أن يقضي على الدولة الفتية في مهدها فزحف بجيشه وعسكر بسهل انجاد في يونيو 1248م بينما فضل خصمه يغمراسن الاحتماء بقلعة تمززدكت[1] الواقعة فوق جبل المحصر ، جنوب مدينة وجدة بـ 25 كلم الذي لاتزال توجد به آثار هذه القلعة .

ولابد من الوقوف أمام بعض المعلومات لمعرفة أهمية هذا الموقع .

فهو في قبيلة بني يعلا وبالضبط في دوار أولاد امعمر ، ويبلغ ارتفاع جبل المحصر 1354م وقمته لها شكل مثلث متساوي الضلعين (ضلعه 750م وقاعدته 350م) ينحدر قليلا من الجنوب إلى الشمال . وإن الصعود إليها شاق جدا إلا في الناحية الشمالية الغربية التي تكسوها غابة من الأشجار المتنوعة : العرعار ، البطوم ، الضرو ، الطاكة ، الكروش ، الكندول ، الزبوج ، اليزير ... والتي ينبع فيها ماء زلال يتدفق في صهريج مربع الشكل وتحت صخور ضخمة مسطحة ، وان قوة تدفقه تخضع للظروف المناخية حيث يقل سيله في السنوات الجافة (من 1982 إلى 1984 مثلا) وينحصر في الرحبة التي تشرف عليها العين والتي تبلغ مساحتها حوالي هكتارا واحدا والتي يعمرها السياح والزوار يوم الأحد ويتنزهون في ظل أشجار البطوم الضخمة والمتفرعة الأغصان . ومن الجدير بالذكر أنه في الفترة 1957 ــ 1962 كان المجاهدون الجزائريون يستريحون في هذه الرحبة بعد عملياتهم العسكرية في التراب الجزائري ضد الفرنسيين .

وغير بعيد من هذا المكان آثار بنايات ملتصقة ــ من جهة ــ بجدار

---

(1) تخليدا لأهمية حصن تمززدكت في بداية تاريخ اجداده في غربي إمارتهم فإن الملك أبو تاشفين عبد الرحمن بن ابي حمو الاول أسس قلعة بوادي بجاية في 719/1319 ــ 1320م «سماها تامززدكت على اسم المعقل الذي كان لأوليهم بالجبل قبالة وجدة وامتنع يغمراسن به على السعيد...».
تاريخ بن خلدون ــ ج 7 ــ ص. 251.

يصل ارتفاعه إلى 20م – ومن جهة أخرى – بالمنحدر العلوي الشاهق للجبل ، تتكون من سبع غرف متوازية من نفس الشكل والبنية ، كل واحدة يبلغ طولها 60،4م وعرضها 65،1م وعلو جدرانيها المتوازيين ستة أمتار ، أما سمك الجدار فيصل إلى متر على وجه التقريب . ومن المحتمل جدا أن هذه المجموعة من الغرف كان عددها عشرة اعتمدا على ما نشاهده الآن ، وانها كانت معدة لأسرَى الحرب والعناصر المتمردة .

ومن هنا ، إذا واصلنا صعودنا نمر بجزء من سور له المواصفات الآتية : طوله 6 أمتار ، عرضه 3 أمتار وسمكه 70،1م .

ويشرف على تلك الآثار سور من أحجار كبيرة ذات أحجام مختلفة ، وعلى قمة الجبل يوجد سور آخر من نفس الطراز يبعد عن هذا الأخير بحوالي 30م .

أما على سطح الجبل وفي نصفه الغربي نشاهد آثار بنايات مستطيلة لا يتجاوز طول إحدها 26م ، وفي وسطه أطلال من قصبة مربعة ، ضلعها 150م ، من الطوبة الصلبة يوجد بزاويتها الجنوبية الشرقية بقايا من جدراني السور ، طولها 5 أمتار و7 أمتار ، علوهما 3 أمتار ، سمكها أكثر من متر ، أساسها من أحجار صلبة مختلفة الأحجام ، ويوجد قرب زاويتها الشمالية الغربية غرفة صغيرة بنتها مصالح المياه والغابات في 1983 وشجرة واحدة من الطاكة على مقربة من حافة الجبل .

وقد عثر بعض الباحثين على نقود رومانية وبقايا من أواني فخارية جد قديمة وقراميد وقرط من حجر وصفيحة برونزية صغيرة[2] .

ومما يزيد في أهمية هذا الموقع وجود كهف عميق تحت بحيرة مستطيلة

---

(2) Georges Samuel. Une Enigme : Le Jebel Mahseur. Bulletin de la Sociéte d'Histoire du Maroc. 1972'73. pp. 21 à 36.

(150م × 30م) وجافة في جزئه الجنوبي[3] كان الأهالي يستعملونه كمستودع لذخيرتهم أو يلتجئون إليه في زمن الفتن والحروب.

وإن هذا لدليل ساطع على الوجود البشري هناك من العصور البدائية إلى الحقب القريبة، وتؤكده التسمية العربية ـ المحصر ـ المشتقة من الحصار والمحاصرة ـ وكذلك التسمية البربرية تمززدكت ـ المشتقة من فعل ازدك الذي يعني سكن أو استوطن أو التجأ أو اختبأ[4]. وإذا تتبعنا وصف الحصار الطويل والعسير الذي ضربه ماريوس على يوغرطة في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد (سنة 106) في نطاق الحروب الرومانية ضد المملكة النوميدية نشعر بأنه يعني هذا المكان بالذات إذ يقول المؤرخ سالوست بأن موقع الوقعة لم يكن بعيداً عن وادي ملوية الذي كان الحد الفاصل بين مملكة بوكوس (المغرب الأقصى) ومملكة يوغرطة (شرق المغرب وغرب الجزائر)[5].

---

(3) يعيش الان في هذه المغارة رجل تظهر عليه سمات الزهد والتنسك اسمه رحال بن الجيلالي بن بلقاسم، أصله من قبيلة بني مسكين، فخذ اولاد عامر، دائرة البروج، فبعد تجوال في ربوع المغرب العربي استقر بمغارة بجبال بوقرنين قرب قرية تيولي مدة خمس سنوات ثم انتقل إلى كهف جبل المحصر منذ عشر سنوات.

وقبل ان يصل الزائر إلى هذا المكان يلاحظ عناية ساكنه بزواره فقد سهل لهم الهبوط بالمنحدرات الوعرة بوضع حبل من دوم وسلسلة من حديد وسلمين من خشب، وبعدها يخطو حوالي 50م نحو فوهة المغارة التي سد نصفها بطبقات من الاحجار بدون تمليط بالتراب وبالاسمنت، ثم يدخل من باب صغير من خشب مكتوب عليها : ممنوع الدخول الا بإذن. فيستقبل ببشاشة ولباقة وكرم في خيمة متوسطة الحجم من البلاستيك نصبت بوسط المغارة وجهزت بأفرشة وأواني منزلية.

اما المغارة فلها شكل دائري، قطر دائرتها 15م وعلوها 10م، وبها اعمدة من اسطلاكميت بعضها اغلق مدخل نفق اتخذه العابد الانف الذكر محرابا للصلاة على مقربة من الغار الذي يصعد إليه بسلم علوه 4 امتار لينام فيه.

(4) ذكر علي ابن زرع هذه القلعة باسم تامزجدرت. الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية. ص. 72.
ـــ وحسب رأي صبري الحسن، استاذ اللغة العربية بثانوية عمر بن عبد العزيز بوجدة فان أصل هذا الاسم من كلمة تمزيزشت في لهجة اهل تمسمان أي العين التي تنبع من الصخور.

(4) Emile Laoust. Etude sur le Dialecte Berbère des Ntifa. p.205.

(5) محمد التازي سعود. حرب يوغرطة للمؤرخ اللاتاني سالوست. ص. 135.

وإن الخطة الدفاعية التي استعملها يوغرطة، الملك النوميدي، أمام ماريوس ، الجنرال الروماني ، هي التي مكنت يغمراسن بن زيان من مقاومة الحصار الذي ضربه عليه أبو لحسن السعيد الموحدي ، بل القضاء على هذا الأخير في الظروف التي وصفها ابن خلدون :

...ونهض إلى تلمسان وما وراءها ونجا يغمراسن بن زيان وبنو عبد الواد بأهليهم وأولادهم إلى قلعة تامزدكت قبلة وجدة فاعتصموا بها ووفد على السعيد الفقيه عبدون وزير يغمراسن موديا ... في مذاهب الخدمة ومتوليا من حاجات الخليفة بتلمسان وما يدعوه إليه ويصرفه في سبيله ومعتذرا عن وصول يغمراسن ، فلج الخليفة في شأنه ولم يعذره وأبَى إلا مباشرة طاعته بنفسه وساعده في ذلك كانون بن جرمون السفياني ، صاحب الشورَى بمجلسه ، ومن حضر من الملأ ، ورجعوا عبدونا لاستقدامه ، فتثاقل خشية على نفسه ، واعتمد السعيد الجبل في عساكره وأناخ بها في ساحة ... وأخذ بمخنقهم ثلاثا ولرابعها ركب مهجرا على حين غفلة من الناس في قائلة ليتطوف على المعتصم ويتقرى مكامنه ، فبصر به فارس من القوم يعرف بيوسف بن عبد المومن الشيطان كان أسفل الجبل للاحتراس وقريبا منه يغمراسن بن زيان وابن عمه يعقوب بن جابر فانقضوا عليه من بعض الشعاب وطعنوا يوسف فاكبه عن فرسه وقتل يعقوب بن جابر وزيره يحيَى بن عطوش ثم استلحموا لوقتهم مواليه ناصحا من العلوج وعنبرا من الخصيان وقائد جند النصارَى أخو الغمط ، ووليدا يافعا من ولد السعيد ، (ويقال) انما كان ذلك يوم عبَى العساكر وصعد الجبل للقتال وتقدم أمام الناس فاقتطعه بعض الشعاب المتوعرة في طريقه فتواثب به هؤلاء الفرسان وكان ما ذكرناه وذلك في صفر سنة ستمائة وستة وأربعين (646) ووقعت النفرة في العساكر لطائر الخبر فاجفلوا وبادر يغمراسن إلى السعيد وهو صريع بالأرض فنزل إليه وحياه وفداه وأقسم له على البرء من هلكته ، والخليفة واجم بمصرعه يجود بنفسه إلى أن فاض

وانتهب المعسكر بجملته وأخذ بنو عبد الواد ما كان به من الأخبية والعازات واختص يغمراسن بفسطاط السلطان[6] ... ولما سكنت النفرة وركد عاصف تلك الهيعة نظر يغمراسن في شأن مواراة الخليفة فجهز ورفع على الأعواد إلى مدفنه بالعباد بمقبرة الشيخ أبي مدين عفا الله عنه ثم نظر في شأن حرمه وأخته تاعزونت الشهيرة الذكر بعد أن جاءها واعتذر إليها مما وقع وأصحبهن جملة من مشيخة بني عبد الواد إلى مأمنهن وألحقوهن بدرعة من تخوم طاعتهم ...[7] .

وإذا اعتمدنا على المعلُومات التي أفادنا بها ليون الافريقي فليس هناك شك بأن قصر تمززدكت كان على جبل المحصر إذ يقول :

...(قصر تمززدكت) هو قصر واقع في الحد بين هذا القفر (سهل انجاد) وبلاد تلمسان ، شيد قديما على صخرة ، وكان ملوك تلمسان يجعلونه في حالة تأهب دفاعي لحراسة أماكن المرور لجنود ملك فاس ، ويسيل في سفحه نهر التافنة ، وتحيط به أراض جيدة كانت تزرع فيها حاجيات السكان ، ومادام هذا القصر خاضعا لحكم ملك تلمسان فإنه كان موضع صيانة تامة ، اما الآن وقد سقط في أيدي الاعراب فإنه أصبح شبه اصطبل لا يدخرون فيه سوَى قمحهم وبراذع جمالهم ، وقد هرب السكان من جراء تعسفاتهم[8] .

---

(6) تاريخ بن خلدون — ج 7 — ص. 82.
— الاستقصا — ج 2 — ص. 250 إلى 252.
— قتل أبو لحسن السعيد في منتصف شهر يونيو 1248م (النصف الثاني من شهر صفر 646هـ) اذا صدقنا ابن أبي زرع الذي ذكر بأن ابا بكر بن عبد الحق المريني احتل مدينة تازة «في منسلخ شهر صفر من سنة ست واربعين المذكورة وبعد موت السعيد بثمانية أيام «الدخيرة 1 ص.72. وأكد في الانيس المطرب، ص. 256 بان وفاته كان في يوم الثلاثاء منسلخ صفر ... الموافق لـ 1248/6/23.

(7) تاريخ بن خلدون — ج 7 — ص. 83.
— يحى بن خلدون — بغية الرواد في ذكر المُلوك من بني عبد الواد. ج 1 — ص. 152 — 153.

(8) وصف افريقيا — ج 2 — ص. 11 — 12.

وإن الصراع الذي دار بين بني عبد الواد وبين بني مرين جعل مدينة وجدة تنتقل من هذا إلى ذاك فأصبحت كأنها بين فكي الكماشة ، مما جر عليها أوخم العواقب .

في 647هـ / أواخر 1249 ــ أوائل 1250م تحرك أبو بكر ليتصدَّى ليغمراسن الذي أوشك أن يحتل مدينة تازة فرد على أعقابه إلى أحواز مدينة وجدة ، وهناك دارت بينهما معارك عظيمة «هزم فيها يغمراسن هزيمة شنعاء ... وفر وترك أمواله وأقبيته فاحتوَى الأمير وبنو مرين على ذلك كله ، وقتل فيها من بني عبد الوادي جماعة من خيارهم وأنجادهم ... وهي أول حرب كانت بين أولاد عبد الحق وأولاد زيان العبد الوادي ...»[9] .

وفي 651هـ / 1253م تفقد أبو بكر ثانية شرق المغرب وهدد يغمراسن في عقر داره ، ولما وصل إلى وجدة فر هذا الأخير أمامه «..ولم يلقه فرجع عنه دون قتال ..»[10] .

وفي منتصف رجب 670هـ / 16 فبراير 1272م وقعت معركة بين الجانبين على ضفتي وادي اسلي ، بالقرب من مدينة وجدة ، وهي الواقعة المشهورة بذلك المكان حسب تعبير ابن خلدون .

«...وكان جيش المرينيين يضم قبائل أهل تامسنا ، سفيان والخلط والعاصم وبني جابر وقبائل الاثبج وذوي حسان والشبانات من المعاقل ، وقبائل سوس وقبائل رياح أهل ازغار وبلاد الهبط .

وبعدما عبر نهر ملوية رتبه الملك يعقوب بن يوسف على شكل هلال ، هو في وسطه ، وابنه عبد الواحد في الميمنة وابنه يوسف في الميسرة ، ثم دهم جيش يغمراسن الذي ... «انكشف جموعه وقتل ابنه فارس ونجا بأهله بعد أن أضرم معسكره نارا تفاديا من معرة اكتساحه ونجا إلى

---

(9) الذخيرة. ص. 76.

(10) المصدر السابق. ص. 80.

تلمسان[11] ثم دخل الملك المريني مدينة وجدة وعاث فيها فسادا فدمر أسوارها ومبانيها «وجعل عاليها سافلها ولم يبق لها رسما وتركها قاعا صفصفا» ففر أهلها إلى المرتفعات وضربوا الخيام ريثما يتمكنوا من إعادة تعمير مدينتهم[12].

فهل كان ذلك الهدم تأديبا لأهلها على خيانة صدرت منهم بموالتهم العدو؟ أم كان فقط عبرة للمرابطين في الثغور الأخرى كي يتفانوا في محاربة الطامعين بدون وهن ولا هوادة ولا استكانة؟ أم كان لمناعة تحصينات المدينة لاسيما إذا احترز بها من له دراية بفنون الحرب؟

فعلى أية حال فإن بني مرين كانوا وقتئذ واثقين في قوتهم وتفوقهم على بني عبد الواد لأنهم كرروا عليهم الغارات وشددوا الخناق على مدينتهم تلمسان أثناء حكم عثمان بن يغمراسن في السنوات الآتية: 689هـ/ 1290م، 695هـ/ 1295 ـ 1296م، 696هـ/ 1297م، 697هـ/ 1298م.

ففي السنة الأخيرة كلف السلطان يعقوب بن يوسف أخاه أبا يحيَى بجمع الفعلة لتجديد أسوار مدينة وجدة[13]، ومنها انطلقت الجيوش التي حاصرت مدينة تلمسان من 698 إلى 705هـ/ 1299 إلى 1306م وأسست في ضاحيتها حصن المنصورة وتوغلت في المغرب الأوسط حينا من الدهر[14] وبما أن مدينة وجدة كانت مهددة باستمرار بحكم موقعها قرب

---

(11) ان يوسف الشيطان، قاتل الملك الموحدي أبو لحسن السعيد أثناء حصار قلعة تمزدكت في صفر من سنة 646هـ كان من بين الضحايا التي حصدتهم معركة اسلي الذخيرة. ص. 133.

(12) تاريخ بن خلدون ـ ج 7 ـ ص. 84 ـ 86.
الاستقصا. ج 3 ـ ص. 31 ـ 32.
ـ الذخيرة ـ ص. 132.
ـ الانيس المطرب. ص. 310.

(13) تاريخ بن خلدون ـ ج 7 ـ ص. 94.

(14) المصدر السابق ـ ص. 95.
ـ الاستقصا ـ ج 3 ـ ص. 77 ـ 78.

تخوم مملكة بني عبد الواد فإن يعقوب بن يوسف قرر انشاء قصبة بمدينة تاوريرت التي كان يستقر بها أحيانا عامل بني عبد الواد ، فطرده منها «واختط الحصن الذي هنالك لهذا العهد ، تولاه بنفسه يغادي الفعلة ويراوحهم وأكمل بناءه في شهر رمضان من سنة 694هـ (يوليوز ــ غشت 1295م) ، واتخذه ثغرا لملكه وأنزل بني عسكر لحياطته وسد فروجه وعقد عليهم لأخيه أبي يحيَى ...»[15] .

ومن أراد أن يطلع على تصاريف الأيام على مدينة تاوريرت فليرجع إلى النبذة المختصرة والواقعية التي تركها ليون الافريقي في بداية القرن 16 :

«...توريرت : هي مدينة قديمة بناها الأفارقة على تل مرتفع قرب نهر زاع ، تحيط بها أراض زراعية جيدة ، لكنها لا تمتد بعيدا لمحاذاتها صحراء وعرة جافة ، وتتاخم هذه الصحراء من الشمال صحراء كرط ، ومن الجنوب صحراء الظهرة ، ومن الشرق صحراء انكاد حيث تبتدئ مملكة تلمسان ، ومن الغرب صحراء تفراطة المتاخمة لمدينة تازا .

كانت توريرت مدينة متحضرة آهلة بالسكان ، تحتوي على نحو ثلاثة آلاف كانون ، وعلى قصور جميلة ومساجد مبنية بالحجر الكلسي ، غير أنه لما استولى بنو مرين على مملكة الغرب أصبحت هذه المدينة موضع نزاع وميدان حروب عديدة فقد رغب المرينيون في أن تتبع توريرت مملكة فاس ، بينما أراد بنو زيان ملوك تلمسان أن يضموها إلى مملكتهم ، فأدَّى ذلك إلى أن احتلها بنو مرين ودمروا قسما كبيرا منها كان يسكنه أعداؤهم ، ولما اشتغلوا بعد ذلك بحروب مراكش واستأثرت بهم حوادثها الخطيرة حتَّى لم يعودوا يولون أمر توريرت كبير اهتمام ، وثب عليها ملك

---

(15) تاريخ بن خلدون. ج 7 ــ ص. 220.

ــ ان ابن ابي زرع جعل بناء حصن تاوريرت في 695 ــ الانيس المطرب. ص. 385. ولقد جدده الملك عثمان في 721هـ/1321م. نفس المصدر. ص. 400 ــ 401.

تلمسان فاستردها وخربها وذهب الجانب الذي كان يسكنه أعداؤه منها ، وما كاد يعقوب المريني يستولي على مراكش حتّى أسرع إلى توريرت واستردها ، وهكذا استبدلت توريرت رؤساءها عشر مرات في ظرف خمسين سنة ، تارة تخضع لملك فاس ، وتارة لملك تلمسان إلى أن دمرت أخيرا وهجرت في الحرب الأخيرة التي شنها أحمد حادي عشر ملوك بني مرين بفاس عام 780 للهجرة ، وبعد ذلك اقطعوها لأحد رؤساء الاعراب ورأي سكانها القليلون انهم بعد أن هدتهم تلك الحروب أصبحوا تحت رحمة هؤلاء الأعراب ، فغلبهم اليأس وعزموا على الهجر وترك المدينة وذات ليلة فروا إلى ندرومة ، وهي مدينة تابعة إلى ملك تلمسان وبقيت توريرت خالية موحشة كما نراها اليوم ، ومازالت لحد الآن أسوارها وأبراجها وبيوتها قائمة سليمة لم يتهدم منها غير السقوف»[16] .

أما مدينة وجدة فإنه مما يدل أنها كانت تميل طوعا أو كرها إلى ملك تلمسان في هذه الأثناء[17] ، زحف الجيوش المغربية تقريبا في كل سنة لردع هذا الأخير .

ففي 695هـ / 1295 ــ 1296م هدم يعقوب بن يوسف أسوارها وهو في طريقه إلى مدينة تلمسان ، إلا أنه في 697هـ / 1298م أعاد تحصينها «...واتخذ بها قصبة ودارا لسكناه وحماما ومسجدا ..»[18] .

وفي السنة الموالية .. «أنزل بها الكتائب من بني عسكر لنظر أخيه أبي يحيَى بن يوسف كما كانوا بتاوريرت وأوعز لهم بترديد الغزاة على اعمال

---

(16) وصف افريقيا. ج 1 ــ ص. 271 ــ 272.

(17) بغية الرواد ــ ج 2 ــ ص. 39.

(18) تاريخ بن خلدون ــ ج 7 ــ ص. 220.
ــ الاستقصا. ــ ج 3 ــ ص. 76.
ــ في هذا الشأن اورد ابن ابي زرع سنة 696.
ــ الانيس المطرب. ص. 385.

يغمراسن وافساد سابلتها»[19] . ومما لاشك فيه أن بني عبد الواد حين أيقنوا بانه لا طاقة لهم بمناجزة بني مرين في ساحة الوغَى عمدوا إلى الاعتصام بالامصار ومدافعة عدوهم وراء الأسوار. وهذا جعلهم يصمدون أمام الهجمات المتوالية التي شنها عليهم السلطان أبو سعيد عثمان وهم معتصمون بمدينة وجدة في 714هـ/ 1314م «فقاتلها قتالا شديدا ... بعسكرين عظيمين بقيادة ابنيه أبي الحسن علي وأبي علي عمر وهو في ساقتهما ... وامتنعت عليه ، حسب تعبير ابن خلدون ، وذلك على اثرَ لجوء رئيس بني عسكر الحسن بن علي ابن أبي الطلاق إلى أبي حمو موسَى بن عثمان العبد الوادي ، ثم نهض إلى تلمسان التي حاصرها بدون جدوَى ثم توغل في جبال بني يزناسن .. «وفتح معاقلها وأثخن فيها وانتهَى إلى وجدة ..»[20] .

ومن الراجح أن مدينة وجدة ما كانت تنفك من قبضة بني عبد الواد إلا مدة يسيرة ثم تضطرب وضعيتها بسبب دسائس أصحاب المصالح وخصوصا بعض التجار وشيوخ القبائل وكذلك بسبب المنافسات السياسية في بني مرين أنفسهم[21] ، ولذلك فلا عجب إذا رأينا الملك أبو الحسن

---

(19) المصدر السابق. ص. 385.
— الاستقصا — ج 3 — ص. 79.
— تاريخ بن خلدون — ج 7 — ص. 220.

(20) المصدر السابق. ص. 242 — 243.
— الاستقصا — ج 3 — ص. 105.
— الانيس المطرب. ص. 399.

(21) ان الملك ابو الحسن، اثناء تنقلاته في غربي الجزائر في 1337/738 — 1338م، صحبة ابنيه ابو عبد الرحمن وابو مالك اعتراه مرض الزمه الفراش مدة من الزمن، فبذل الاميران الأموال والتحف لتقوية حزبيهما في الجيش تمهيدا للامساك بزمام الحكم، الا أن اباهما تفطن لسياستهما فعزلهما عن عسكرهما وعاقب حاشيتهما، فاوجس عبد الرحمن منه خيفة ولاذ بحماية اولاد علي امراء بني زغبة، فخذله رئيسهم موسى بن ابي الفضل ورده إلى أبيه الذي اعتقله بوجدة وعين من يشدد عليه الحراسة، فبقي هناك إلى سنة 1342/742م 1341. ولما حاول أن يطلق سراحه بالقوة قبض عليه وكلف الملك ابو الحسن حاجبه علان بن محمد ليضرب عنقه.
الاستقصا — ج 3 — ص. 132 إلى 134.

يضرب عليها حصارا شديدا في 735هـ / 1334 ــ 1335م وهو متوجه إلى تلمسان «...فجمر الكتائب لحصارها ثم مر بندرومة فقاتلها بعض يوم واقتحمها فقتل حاميتها واستولى عليها آخر سنة خمس ثم سار على تعبيته حتّى أناخ على تلمسان ، وبلغه الخبر بتغلب عساكره على وجدة سنة ست وثلاثين (1336م) ، فأوعز إليه بتخريب أسوارها فاضرعوها بالأرض وتوافت أمداد النواحي وجهاتها وحشودها وربض على فريسته ...»[22] .

وإذن فإن مدينة وجدة أدت ثمنا باهضا في ملابسات ونتائج الصراع المريني ــ العبد الوادي طيلة ما يناهز نصف قرن من الزمن أي إلى أن شتت أبو الحسن شمل أبي تاشفين في فاتح ماي 1337م[23] .

ولقد بلغت السيطرة المرينية أوجها حين وحدت المغرب العربي من غربيه إلى شرقيه أيام الملك أبو الحسن في سنة 748هـ / 1347م الذي اذن لابناء الأمير أبي عبد الله بن أبي بكر الحفصي التونسي ــ منهم أبو يزيد ــ بالاستقرار بمدينة وجدة ومنحهم المبالغ السنوية لجباية زكواتها وأعشارها[24] .

إلا أن دولة بني عبد الواد سرعان ما استرجعت أنفاسا أخرى ، محاولة تارة الاستفادة من التمزيق السياسي الداخلي بين أمراء بني مرين أو متحالفة مع أمير منهم ضد الآخرين تارة أخرى ، أو معتمدة على كل ناعق من أوباش العرب الذين يسعون في الأرض فسادا ، وهذا ما وقع في بداية

---

(22) تاريخ ابن خلدون ــ ج 7 ــ ص. 256.
ــ الاستقصا ــ ج 3 ــ ص. 124.

(23) فوانو. وجدة... ص. 420.
ــ ان ابن خلدون اثبت تاريخ احتلال مدينة تلمسان من طرف ابي الحسن في 27 رمضان 737 الموافق ليوم الثلاثاء 1337/4/29. ج 7 ــ ص. 257.

(24) المصدر السابق. ص. 267 إلى 270.

حكم الملك أبي عنان بن أبي الحسن الذي هادن أبا سعيد عثمان ثم قرر حسم الموقف معه .

ففي يوليوز 753هـ / 1352م جرت بينهما معركة عنيفة على ضفتي وادي القصوب قرب لعيون سيدي ملوك انتهت بهزيمة أبي سعيد عثمان الذي تسلل لواذا مختفيا تحت زي رث مع المتولين الأدبار من أتباعه ، فقبض عليه وسيق إلى أبي عنان مغلـلا في الأصفاد ، وقضَى نحبه بسجن تلمسان [25] .

وفي هذا الشأن قال ابن خلدون : «...لما كان فتح سنة ثلاث وخمسين نادَى (أبو عنان) بالعطاء وأزاح العلل وعسكر بساحة البلد الجديد واعترض العساكر وارتحل يريد تلمسان ، واتصل الخبر بأبي سعيد وأخيه (أبي ثابت) فجمعوا قومهم ومن إليهم من الأشياع والأحزاب من زناتة والعرب وارتحلوا إلى لقائه ، ونزل السلطان بعساكره وادي ملوية ، وتلوم به أياما لاعتراض الحشود والغرب ، ثم رحل على التعبية حتَّى إذا احتل ببسيط انكاد وتراءى الجمعان انفض سرعان المعسكر ولحقوا بالعرب ، وركب السلطان في التعبية وخاض بحر القتال وقد أظلم الجو به حتَّى إذا خلص إليهم من غمره وخالطهم في صفوفهم ولوهم الأدبار ومنحوهم الاكتاف واتبع بنو مرين آثارهم فاستولوا على معسكرهم واستباحوه واستباحوهم قتلا وسبيا وصفدوهم أسرَى ، وغشيهم الليل وهم متسايلون في أثرهم وتقبض على أبي سعيد سلطانهم فسيق إلى السلطان فأمر باعتقاله ، وأطلق أيدي بني مرين من الغد على حلل العرب من المعقل فاستباحوهم واكتسحوا أموالهم جزاء بما شرهوا إليه من النهب في المحلة في هيعة ذلك المجال ، ثم ارتحل على تعبيته إلى تلمسان فاحتل بها لربيع من

---

(25) جعل صاحب بغية الرواد هذه الوقعة في 8 جمادى الاولى 753/23 ــ 6 ــ 1352. ج 1 ــ ص. 211.

سنته واستوت في ملكها قدمه وأحضر أبا سعيد فقرعه ووبخه وأراه أعماله حسرة عليها وأحضر الفقهاء وأرباب الفتيا فافتوا بحرابته وقتله فأمضَى حكم الله فيه فذبح في محبسه لتاسعة من اعتقاله[26].

وعقب وفاة أبي عنان في 30 / 11 / 1358 تمكن أمير آخر من بني عبد الواد ــ أبو حمو الثاني ــ من الاستيلاء على تلمسان في 31 ــ 1 ــ 1359 ثم اخلاها في ربيع الثاني 760هـ / مارس 1359 حين قدم الوزير مسعود بن رحو بقوات هائلة ، فتوجه إلى النجود العليا ليستنفر القبائل العربية وفي طليعتهم بني عامر من زغبة وفرق من ذوي عبيد الله (جعوان ، لمطارفة ، الغوسل ، حجاج ، لعثامنة ... من المعاقل الذين «...احتلوا بانكاد بحللهم وظواعنهم ، وجهز إليهم مسعود بن رحو عسكرا من جنوده انتقَى فيه مشيخة بني مرين وأمراءهم وعقد عليهم لعامر بن عمه عبو بن ماسي وسرحهم ، فزحفوا إليه بساحة وجدة وصدقهم العرب الحملة فانكشفوا واستبيح معسكرهم واستلبت مشيختهم وارجلوا عن خيلهم ودخلوا إلى وجدة عراة ...» يوم السبت 21 جمادَى الثانية 760هـ[27].

ومما يؤكد اهتمام الملوك المرينيين بالأطراف الشرقية للبلاد حتَّى في فترات الضعف والأزمات انهم كانوا يقودون أو يبعثون حملات عسكرية لتثبيت نفوذهم واظهار قوتهم أو الاستظهار بها.

فني 21 ماي 1360 / 4 رجب 761 احتل الملك أبو سالم مدينة

---

(26) تاريخ بن خلدون. ج 7 ص. 288.
ــ فوانو. وجدة .. ص. 421 ــ 422.
ــ بغية الرواد ــ ج 1 ــ ص. 212.

(27) المصدر السابق ــ ج 2 ــ ص. 50 إلى 52.
ــ تاريخ بن خلدون ــ ج 7 ــ ص. 303.
ــ فوانو ــ وجدة .. ص. 422.

تلمسان بينما تراجع خصمه أبو حمو الثاني إلى سهل انجاد ليعيش على حساب السكان بالنهب والسلب والتشريد[28].

وفي 1364 ـ 1366 ـ 1370 جرت مناوشات بين الجانبين أيام الملوك أبي زيان وعبد العزيز، من جهة، وأبي حمو الثاني، من جهة أخرى. ولقد حاول هذا الأخير أن يضع قدمه بتاوريرت ودبدو وتازة لتكون له اليد العليا على المغاربة، سنة 1383 في الوقت الذي كان أبو العباس يواجه منافسيه بمراكش، ولولا الاستنجاد بالقبائل العربية المرابطة شمال نهر ملوية[29] لانقرض حكم المرينيين لأن أبا حمو الثاني هيأ جيشين ضخمين، الأول بقيادة ابنه أبي تاشفين، والثاني بقيادته.

وفي هذا الصدد لنا شهادة ابن خلدون الذي يقول:

«....كان السلطان عند سفره إلى مراكش استخلف على دار ملكه بفاس علي بن مهدي العسكري في جماعة من الجند واستنجد بونزمار بن عريف، شيخ سويد، وولى الدولة المقيم باحياء ملوية، فحالف بين عرب المعقل واستألف منهم العمارنة والمنبات وهم الأحلاف، واجتمع مع علي بن مهدي، وساروا لمدافعة العدو بنواحي مكناسة، فصدوهم عن مرامهم ومنعوهم من دخول البلاد، فأقاموا متواقفين أياما، وقصد أبو حمو في عسكره مدينة تازة وحاصرها سبعا وخرب قصر الملك هنالك ومسجده المعروف بقصر تازروت، وبينما هم على ذلك بلغ الخبر اليقين بفتح مراكش وقتل الأمير عبد الرحمن «الذي كان متحالفا مع أبي حمو» فاجفلوا من كل ناحية وخرج أولاد حسين... وأبو تاشفين «ابن أبي حمو»، والعرب الأحلاف في أتباعهم، وأجفل أبو حمو عن تازة راجعا إلى تلمسان، ومر بقصر ونزمار في نواحي بطوية المسمَّى بمرادة فهدمه،

(28) بغية الرواد ـ ج 2 ـ ص. 75 إلى 77.
(29) انظر الفصل الرابع.

ووصل السلطان إلى فاس ..»[30] ولقد انتقم أبو العباس من أبي حمو في نفس السنة فخرب قصور وتحصينات تلمسان وتربص به الدوائر مستغلا ثورة أبي تاشفين الثاني ضد أبيه الذي كان يلتجئ أحيانا إلى قلعة ماما الواقعة على جبل أورير أو جبل رأس عصفور قرب مدينة وجدة قبل أن يلقَى مصرعه في المعركة التي دارت بينه وبين جيش مريني بناحية سبدو ، في 1388م[31] .

---

(30) تاريخ بن خلدون — ج 7 — ص. 348.
— ان ابن خلدون عاين احداث سنة 772هـ/1370م اذ كان يبعثه عبد العزيز لدى ابي حمو الثاني لاجراء مفاوضات أو لدى مشايخ القبائل العربية (رياح، ازواوة...) ليحرضهم ضد سياسة بني عبد الواد — ج 7 — ص. 329.

(31) المصدر السابق. ص. 328 إلى 331.
— فوانو. وجدة ... ص. 422 إلى 424.

الفصل الرابع

العصبيات القبلية
في مجريات الأحداث التاريخية

1 ــ استيطان الأفواج الأولى من القبائل العربية بشرق المغرب.

2 ــ وجدة في عهد المرابطين.

3 ــ هجرة القبائل العربية إلى المغرب الكبير، بعد القرن 4 هـ / 10 م.

4 ــ امـارة دبـدو.

1 – استيطان الأفواج الأولى من القبائل العربية بشرق المغرب :

ليس من الهين أن نتتبع كل الملابسات التي تم فيها استيطان القبائل العربية بشرق المغرب وبالأحرى أن نضبط اعداد أفرادها اعتمادا على المصادر التي لدينا ونظرا للتغيرات السياسية التي تركت بصماتها على حياة الأفراد والجماعات .

وليس من الهين كذلك ، إذا أردنا أن نمعن النظر في أية قبيلة أن ندقق في أصولها وفي فروعها وأيضا في أصالتها العربية لأن تمازج الفاتحين بالسكان الأصليين أو بعبارة أخرى تمازج العرق العربي بالعرق البربري على أساس العقيدة والشعائر الدينية وعلى أساس المعاشرة والمصاهرة والتحالف في ظروف معينة في شكل مؤازرة عسكرية أو تضامن اجتماعي والمشاركة – جنبا لجنب – في الحملات الجهادية أو في الصراعات السياسية ، فكل هذه العوامل أدمجت أو ألصقت بعض الأقليات بأفخاذ يخيل للمرء في أول وهلة بأنها تشكل كتلة قبلية ذات أصل واحد .

إنما يجدر بنا أن نذكر مساهمات تلك القبائل في مجريات الأحداث التاريخية اعتقادا منا بأنه لولا الديانة الإسلامية التي أخرجت معتنقيها من الظلمات إلى النور لم يتأت للرعيل الأول من دعاتها أن يمهد الطريق للافواج المتتابعة التي ستعزز الوجود العربي والإسلامي في بلدان شمال افريقيا : وبالتالي ينبغي أن نتصور أن هذا الوجود مر بمراحل متفاوتة في الحجم والرسوخ والرقعة الجغرافية .

فلاشك أنه كان محدودا جدا في بداية الفتوحات الإسلامية إلى عهد عقبة بن نافع الذي زرع البذور الأولى في عدة مناطق مغربية .

ومن الثابت أن العناصر العربية التي استقرت هناك في وسط القبائل البربرية الزناتية كانت من التابعين وأبناء التابعين من اليمنيين والقيسيين .

ولقد انضاف إلى هؤلاء من كان ينزح من مناطق أخرى بحثا عن الأمن والطمأنينة أو من أجل التجارة أو التطوع في جيوش الولاة خصوصا أثناء حكم الأمير الادريسي حمزة بن ادريس الثاني ، في المنطقة الواقعة شرقي نهر ملوية في عهد أخيه محمد الذي عين كل واحد من اخوته الثمانية واليا في جهة من الجهات المغربية[1] .

ويمكن القول بأن الوجود العربي تعزز كثيرا بالشرفاء الأدارسة بسبب ظروف اقتصادية سيئة[2] وعلى اثر المنافسات السياسية التي فككت أواصرهم قبل وبعد انقراض دولتهم في 375هـ / 985م ، والاضطهادات التي لحقتهم على يد موسَى بن أبي العافية أمير قبيلة مكناسة . ومنذ هذا الوقت وفي الحقب اللاحقة التجأت عدة عائلات ادريسية إلى بسيط أنجاد وجبال بني يزناسن وجبال الكواكب (سلسلة جبال بني بوسعيد ورأس عصفور ....) : منها : أولاد بلكايد ، أولاد سيدي يوسف الحاج ، أولاد ابن عزا ، أولاد بو يعقوب ، أولاد المهدي ، أولاد مولاي العباس ، أولاد ابن علا ، البلاعشة ، أولاد ابن قاشور ، أولاد المير[3] ، اشقارنة ، أولاد بوزيد ، أولاد عبد الوهاب[4] ، الدرافيف[5] ، أولاد سيدي جابر .....

---

(1) الانيس المطرب. ص. 51

(2) قلت الاقوات واجذبت الأرض في 260هـ/874م وفي 303هـ/915م، وكثرت الوفيات في 344هـ/955م. الانيس المطرب. ص. 97 — 98 — 100.

(3) انظر الفصل الثامن.

(4) فوانو. وجدة ... ص. 131.

(5) النقيب الحالي للشرفاء الدرافيف هو الحاج مصطفى بن الحاج لخضر بن علي بن لخضر بن المختار. يبلغ من العمر 65 سنة، وادى فريضة الحج 27 مرة. فهو من فضلاء وأعيان المنطقة حسبا ونسبا وشجاعة وكرما. وهو رئيس جمعية حفظة القرآن الكريم التي تضم أكثر من 600 فقيه.
ولقد اثبتت نسب هذه الأسرة الكبيرة عدة ظهائر، منها : ظهير المولى اسماعيل في 14 جمادى الثانية 1098/ الاحد 27 — 4 — 1687، وظهير المولى عبد الملك في 22 شوال 1140 — / الثلاثاء فاتح يونيو 1728، وظهير سيدي محمد بن عبد الله في 22 شوال 1170 / الاحد 10 — 7 1757، وظهير سيدي محمد بن عبد الرحمن في 2 محرم 1279 / الاثنين 30 — 6 — 1862، =

فديار هؤلاء – أي أولاد سيدي جابر – هي بسفح جبل المُحيْصر وجبل رأس عصفور منذ حوالي 10 قرون. ولعلهم اختاروا هذا المكان بالذات تحت تعسفات واعتداءات القبائل الزكراوية أو انكادية المجاورة لهم والتي ضيقت عليهم الآفاق بكيفية أو بأخرى رغم الحماية الحسية والمعنوية التي كانوا يتمتعون بها برسائل مخزنية نسرد منها نموذجين :

– الأول يحمل طابع اسماعيلي في يوم الأحد 14 ربيع الأول 1107 / 23 أكتوبر 1695م :

...جددنا لحملته الشرفاء أولاد سيدي جابر الحمدوني وهم الفقيه

= وظهير حسني في 27 شعبان 1293 / الاحد 17 – 9 – 1876، وظهير عزيزي في 15 صفر 1313 / الأربعاء 7 – 8 – 1895.

ومما نستنتج منها :

1) ان اعيان الشرفاء الدرافيف كانوا دائما من جملة الوفد الذي كان يبايع الملوك المغاربة سواء في بداية عهد احدهم أو في المناسبات الدينية المعهودة.

2) ان احد اجدادهم وهو سيدي محمد بن علي الذي عاش في القرن 11هـ/17م اي في عهد مولاي اسماعيل، والذي دفن بالمكان الذي يعرف بسيدي درفوف، الواقع بقبيلة لمزاوير غربي مدينة وجدة بحوالي 15 كلم، كان من أهل الفضل والعلم والتصوف، وكثيرا ما كانت تذرف عيناه بالدموع من ذكر الله وخشيته. ولذلك لقب بالذرفوفي.

3) كان باهل انجاد رجال لهم قدم راسخ في العلم والفقه، وهذا يفند قول القائلين بأن الجهل كان متفشيا فيهم لدرجة انه اذا توفي منهم أحد لا يجدون من يصلي عليه صلاة الجنازة إلا في الحالة التي يكون معهم فقيه من بني يزناسن !!!

ولتعميم الفائدة نورد نص الظهير المؤرخ في 22 شوال 1140 :

...

يعلم من كتابنا اعلا الله قدره ومقداره وجعل على مركز العز والسعادة مداره اننا بحول الله وقوته وشامل يمنه ومننه جددنا لحملته المتمسكين بالله ثم به ابناء عمنا الشرفاء الدرفوفيين أولاد الوالي الصالح والقطب الواضح سيدي محمد بن علي الملقب ذرفوف نفعنا الله به، القاطنين بقبيلة لمزاوير بانكاد والبعض منهم بمدينة وجدة الذين منهم العالم العلامة السيد المختار بن أحمد بن علي الذرفوفي حكم ما بأيديهم من ظهير سيدنا ومولانا الوالد قدس الله روحه في دار السلام، وأقررناهم على ما عهد لهم من مزيد التوقير والتعظيم والاحترام، والحمل على كاهل المبرة والاكرام والرعي الجميل المستدام، وزاويتهم معظمة محترمة، لا يلحق حرمها امتضاع ولا يخرق عليهم عادة، ولا يحدث في جانبهم نقص ولا زيادة، ومن حام بسوء حماهم أو رام اذاهم أو عاملهم بغير ما أمرنا به أو انزلهم في غير المنزلة التي انزلناهم بها، فلا يلومن الا نفسه ولا يضر الا رأسه، وعلى الواقف عليه من عمالنا وولاة أمرنا أن يعمل بمقتضاه ولا يتعداه، والسلام .... (و. ع.).

امحمد بن عمر بن عثمان وكافة اخوانهم حكم ما بيدهم من الظهائر السلطانية المتضمنة توقيرهم واحترامهم ومحاشاتهم من كل وظيف قوي ... (ووصينا) الباشا لمنصور بن الرداحي وكذلك مسعود النجاعي وكافة الأعراب الشيخ عد بن كروم الهواري بن دالي وابن رقية الأيتر كواحد من أصحابهم يصلون إليهم .... ومن عذبهم وكلمهم بزرطوقة وغيرها من سآى الكلام لا يلومن إلا عليه ... يعلمنا به ولابد والسلام ....

— النموذج الثاني مؤرخ في يوم الثلاثاء 7 جمادَى الثانية 1246هـ ، الموافق لـ 23 — 11 — 1830م ، في شكل رسالة من أحد كبار الموظفين إلى أحد القواد المخزنيين لعله عامل إقليم وجدة :

...صاحبنا ابن يوسف سلام عليك ورحمة الله وبركاته عن خير مولانا نصره وبعد ، فاستوصَى خيرا بالشرفاء بني حمدون واعمل لهم التوقير التام والحرمة حتَّى لا يجوز عليهم ضيم ولا تترك أحدا يؤذيهم من القبائل المجاورين لهم فقد لاذوا بجانبنا الأحمَى والله يصلحك والسلام ...[6] .

2 — وجدة في عهد المرابطين :

يبدو أن مدينة وجدة استعصت على المرابطين اللمتونيين بعد أن قضوا على الدولة الزيرية بفاس ، ذلك أنه لما بعث يوسف بن تاشفين قائده مزدلي بن تيلكان في 472هـ / 1079م بجيش قوامه عشرين ألف مقاتل لفتح شرق المغرب تمكن فقط من الاستيلاء على مدينة تلمسان . ولم تخضع لنفوذهم إلا أثناء الحملة التي شنها الأمير المرابطي بنفسه في

---

(6) بالاضافة إلى هاتين الوثيقتين، لدى الفقيه اسى امبارك خوخى ظهائر مؤرخة في :
— فاتح ذي الحجة 1092/ الجمعة 12 — 12 — 1681.
— 7 شعبان 1102/الاحد 6 — 5 — 1691.
— 14 ربيع الأول 1107/الاحد 23 — 10 — 1695.
— فاتح محرم 1113/الاربعاء 8 — 6 — 1701.
— 20 رجب 1233/الثلاثاء 26 — 5 — 1818.
— 8 رمضان 1291/الاثنين 19 — 10 — 1874.

474هـ / 1081م والتي بلغ صداها مواطن بني يزناسن والمغرب الأوسط من مدينة وهران إلى مدينة الجزائر[7] . ولقد وجد بها آثار الزلزال الطبيعي الذي توالى على المغرب في كل يوم وليلة من أول ربيع الثاني إلى آخر يوم من جمادَى الثانية من سنة 472هـ / من أكتوبر إلى دجنبر 1079م «...فهدمت البنْيان ومات فيها خلق كثير تحت الردم ووقعت الصوامع والمنارات ...»[8] .

ومن السمات البارزة لأيام هؤلاء استتباب الأمن وإقبال الناس على بيوت الله وانتشار الرخاء وازدهار العمران ، فلم «...يجر في عملهم طول أيامهم رسم مكس ولا معونة ولا خراج في بادية ولا في حاضرة ، وخطب لهم على أزيد من ألفي منبر ، وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن ، تناها القمح في أيامهم إلى أن بيع أربعة أوسق بنصف مثقال ، والثمار ثمانية أوسق بنصف مثقال ، والقطاني لا تباع ولا تشترا ، كان ذلك مصطحبا بطول أيامهم ، ولم يكن في عمل من بلادهم خراج ولا معونة ولا تقسيط ولا وظيف من الوظائف المخزنية حاشا الزكاة والعشر ، وكثرت الخيرات في دولتهم وعمرت البلاد ووقعت الغبطة ، ولم يكن في أيامهم نفاق ولا قطاع ولا من يقوم عليهم وأحبهم الناس إلى أن خرج عليهم مهدي الموحدين في سنة خمس عشرة وخمسمئة ...»[9] .

بالإضافة إلى ذلك فقد تميز تاريخهم بمناصرتهم المسلمين بالأندلس ضد الهجمات الصليبية التي كانت تستهدف القضاء على الحكم الإسلامي في غربي وفي شرقي العالم العربي على السواء . وليس من قبيل المصادفات أن

---

(7) الاستقصا — ج 2 — ص. 32.
— الانيس المطرب. ص. 143.
(8) المصدر السابق. ص. 168.
(9) المصدر السابق. ص. 167.

يتزامن دورهم الجهادي مع هجرة قبائل بني هلال وبني سليم من مصر إلى افريقية ثم إلى المغرب في شكل أفواج متراصة ومتحمسة أضافت «إلى حضارة شمال افريقية سمات جديدة» فنتج عن امتزاج العنصر العربي بالعنصر البربري «أجيال أقوَى شكيمة وأشد مراسا من أجدادهم»[10] .

3 – هجرة القبائل العربية إلى المغرب الكبير بعد القرن 4هـ / 10م :

في النصف الثاني من القرن 11م انصهر مرة أخرى العنصر العربي بالعنصر الأصلي في بلدان الغرب الإسلامي بتوافد فصائل من قبائل بني هلال وبني سليم انطلاقا من صعيد مصر وبايعاز من الحكام الفاطميين الذين أرادوا أن يضربوا عصْفرين بحجر واحد :

أولا ، التخلص من الاضطرابات التي كانت تسببها لهم تلك القبائل ، وثانيا ، الانتقام من صاحب افريقية المعز بن باديس الصنهاجي الذي تنكر لهم وأعلن موالاته للدولة العباسية[11] .

وكان من الطبيعي أن يتم استقرار الوافدين هناك حسب الظروف والملابسات ، فتارة كانت أفواجهم المتتالية تزحزح بقوة السلاح عدة قبائل من أماكنها المألوفة ، وتارة كانت تبرم معها معاهدات حسن الجوار والمعاملة الطيبة أو تتحالف معها ضد خصم مشترك ، بل اثبتت سطوتها على الدولة الصنهاجية فالحقت بها الهزائم وارغمتها على التفاوض والاكتفاء ببعض المدن الساحلية . وبما أنه من المؤكد أن أهم الأفخاذ العربية التي استوطنت شرق المغرب تنتسب إلى شعبين أساسيين ، هما بنو هلال والمعقل فسنهتم بهما اهتماما خاصا[12] .

---

(10) مصطفى أبو ضيف أحمد. اثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين. ص. 61.

(11) تاريخ ابن خلدون. ج 6 — ص. 13 — 14.
— عبد الوهاب بن منصور. قبائل المغرب. ج 1 — ص. 390.

(12) يعتبر بعض النسابين المعقل من بني هلال بينما يصفهم آخرون بأنهم هاشميون من نسل جعفر بن أبي طالب. قبائل المغرب. ج 1. ص. 424.

ا – المعقـل :

كانت فصائلهم تضم الثعالبة وذوي حسان وذوي منصور وذوي عبيد الله والرقيطات والشبانات . واستقرت فلول من ذوي عبيد الله وذوي منصور في المنطقة الممتدة من مدينة تلمسان إلى مدينة تاوريرت خصوصا في القرن 12م ، ومنها كانوا ينتجعون في مشاتيهم إلى تخوم الصحراء الكبرَى مرورا بتافيلالت وواحة فكيك . ومنهم من كان يكتفي بمصاحبة القوافل التجارية لحمايتها من قطاع الطرق مقابل ضريبة الإجازة أو الخفارة . فذوو عبيد الله كانوا ينقسمون إلى فخذين كبيرين : الخراج والهراج .

يتفرع الأول إلى الجعاونة والمطارفة والعثامنة والغسل ولمهايا . ويتفرع الثاني إلى أولاد فكرون وأولاد مرين وأولاد مناد . أما ذوو منصور فكانوا يشكلون غالبية قبائل المعقل . ومنهم أولاد حسين وأولاد أبي الحسين والمنبات أو المنابهة والعمارنة . وكان يطلق على العمارنة والمنبات معا اسم الاحلاف[13] . وفي العصر الراهن فإن مدينة تاوريرت هي عاصمتهم ، كما أن أهم بطونهم هي : لكرارما ، أولاد المهدي ، أولاد سليمان ، لرباع ، غفولة ...[14] .

ويضم لكرارما الفرق الآتية : أولاد عدو ، أولاد الخثير ، أولاد مامو ، أولاد امبارك ، أولاد ونان ، لمحريك ، أولاد عبد الله ، أولاد لعموري[15] ... ولعل تسمية العمارنة والمنبات بالاحلاف تفسر بروابط

---

(13) المصدر السابق. ص. 424 إلى 427.
— تاريخ ابن خلدون ج 6 — ص. 59 — 61.
— اثر القبائل العربية ... ص. 147.

(14) Lt Lefevre + Nehlil. La Région de Tafrata et les Tribus qui l'habitent. L'AF.R.C.Juin 1910.p.158.

(15) تحقيق شخصي.

المؤازرة بينهما وبين بني عبد الواد في بادئ الأمر إذ اقطعوهما بعض المزارع والحقول بضواحي عاصمتهم ورتبوهما في سلك الموالين لهم والمتحالفين معهم[16] إلا أنه سرعان ما انقلبتا ضدهم وأعلنتا طاعتهما وولائهما لبني مرين ، فكان لهما دور مهم في تدعيم سلطة هؤلاء وأولئك كما كان لهما دور خطير في انهيارهم وانقراض دولتهم[17] .

ب - بنو هلال :

يدخل تحت هذا الاسم من ينتسب لهذه القبيلة ومن لف لفها بالخدمة والموالاة والمصاهرة .

الأثبج : منهم قبائل دريد وكرفة ولطيف ومقدم والضحاك والعاصم والعمور وعياض وبني قرة ... ولقد تفرعت مع مرور السنين إلى عدد من الأفخاذ والبطون . فإلى دريد ينتمي أولاد عطية وأولاد سرور .... ويدخل في لطيف ذوو مطرف وذوو أبي الخليل وذوو جلال وأولاد جرير . وفي عياض يحسب لمهاية والخراج .

جشم : منهم بنو جابر والخلط وسفيان .

رياح : منهم الخضر ومرداس وأولاد سعيد وأولاد مسلم .

زغبة : منهم حصين وبنو مالك وبنو عامر وبنو يزيد وعروة وسويد . .

وقد تكون بعض المجموعات من هذه القبائل تفرقت هنا وهناك في المغرب الأوسط والأقصَى ، إنما أول فوج مكثف من جشم ورياح وعدي نقل بأمر من الخليفة عبد المومن بن علي[18] حينما بسط نفوذ الدولة

(16) تاريخ ابن خلدون — ج 7 — هنا وهناك.
— اثر القبائل العربية ... ص. 148.

(17) ابن خلدون — ج 7 — ص. 86 — 184.
— الاستقصا — ج 3 — ص. 31 — 32.

(18) خضعت مدينة وجدة للدولة الموحدية على يد عبد المومن بن علي في 540/1145هـ إلا أنها لم يكن لها شأن كبير في سياستها الجهادية التي كانت تعتمد في شمال افريقيا على المواصلات البحرية.=

الموحدية على افريقية في 541هـ/ 1146م وفي 553هـ/ 1158 ـ 1159م فنظمهم في جيشه ودافع بهم عن حوزة الإسلام في الأندلس وخضد بهم شوكة المتمردين بالمغرب[19] ثم انضافت إليهم فيما بعد قبائل كرفة ورياح وجشم ومقدم والعاصم في 583هـ ـ 1187م في عهد يعقوب المنصور حينما نزح عدد لا يتجاوز المائتين من عرب المعقل إلى شرق المغرب وواحات تافيلالت ، اعتبارا لشهامتهم وأنفتهم وقوة بطشهم مما جعلهم يرتقون إلى أعلى المراتب العسكرية والإدارية[20] .

ففي الحملات الجهادية كانوا يرتبون في كتائب خاصة بهم ، برایاتها وطبولها وشعاراتها ، وكان لهم شعراء يذكون حماسهم ويحرضونهم على القتال بامداح تذكرهم بامجادهم وبطولاتهم الماضية[21] .

ولاشك أنهم نالوا نفس الحظوة أو أكثر في الدولة المرينية التي اعتمدت على أولى الرأي والفضل منهم امثال عريف بن يحيَى الذي كان بشرق المغرب ، من أعظم رؤساء سويد ، منذ سنة 720هـ/ 1320م في عهد أبي سعيد ، وكذلك ابنه ونزمار مما دفع أبا الحسن بن أبي سعيد لاتخاذه خليلا ووزيرا مشيرا وسفيرا بينه وبين ملوك مصر وتونس وغرناطة

= ولعل هذا كان سببا في تأخير تجديد أسوارها إلى عهد الناصر في 602هـ/1205م وفي 604هـ/1207م.
. الانيس المطرب. ص. 233 ـ 263 ـ 272.
الاستقصا. ـ ج 2 ـ ص. 219.

(19) تاريخ ابن خلدون ـ ج 1 ـ ص. 397 ـ 400 ـ 420.
ج 6 ـ ص. 20 ـ 235 ـ 236.
ج 7 ـ ص. 22.

(20) المصدر السابق ـ ج 6 ـ ص. 59.
ـ الاستقصا ـ ج 2 ـ ص. 151.
ـ قبائل المغرب .ج 1. ص. 418 ـ 419.

(21) ابن خلدون. المقدمة. ص. 258.
ـ اثر القبائل العربية ... ص. 284.

ورفع مقامه على كل عربي في ممالكه حتّى أطلق ابن خلدون عليه شيخ المجالس الملوكية[22] .

وكان يقف باستمرار في وجه بني عبد الواد التلمسانيين ويوصي بنيه ونزمار ، محمد ، أبو بكر وعيسَى بنهج سياسة الصرامة ضدهم[23] . ولهذا الغرض أقام ابنه الأكبر ونزمار قصبة بأسفل وادي ملوية بمرادة حيث كان يستشير معه رؤساء بني مرين لثقابة عقله وحسن تدبيره وسيرته[24] وليكلفوه أحيانا بمهمة التفاوض مع بني عبد الواد من أجل المهادنة والسلم وتبادل الأسرَى أو ليحرضوه على مهاجمتهم وتضييق الخناق عليهم[25] .

ففي آخر ربيع الثاني 753 / منتصف يونيو 1352 زحف بعرب سويد والمعقل على معسكراتهم في وقت القائلة ، قرب مدينة وجدة ، وهزمهم وطارد الفارين حتّى تمكن من أسر وقتل الأمير أبي ثابت انتقاما للهزيمة التي أوقعها به هذا الأمير أيام أبي الحسن المريني[26] .

وحسبنا ان ملوك بني زيان كانوا يقدرون خطره حق قدره ويشنون الغارات على مركز امارته بمدينة كرسيف .

---

(22) المصدر السابق. ص. 280.
— ابن خلدون. — ج 6 — ص. 46 — 47.
ج 7 — ص. 98.
(23) اثر القبائل العربية ... ص. 160.
— الاستقصا ج 3 — 125 — 127 — هنا وهناك إلى ص. 172.
(24) ابن خلدون — ج 7 — ص. 126 — 127 — 340.
(25) المصدر السابق — ص. 126 — 127.
— اثر القبائل العربية ... ص. 153.
— بغية الرواد. ج 2 — ص. 89 — 90 — 101.
(26) المصدر السابق. ج 1 — ص. 160 — 162.
— الاستقصا. ج 3 — ص. 182 إلى 185.
— ابن خلدون ج 7 — ص. 121 — 289.
— اثر القبائل العربية ... ص. 184.

في 766هـ / 1364 ــ 65 هاجمه أبو حمو «وانتهب الزروع وشمل بالتخريب والعيث سائر النواحي ...» ، فاعتصم بمدينة دبدو ــ مقر حليفه محمد بن زكراز ، شيخ بني علي بن بني ولكاس ، فلم يسع أبو حمو إلا التراجع إلى تلمسان[27] . وبما أن الحرب كانت سجالا بين الجانبين ، ففي 771 ــ 772هـ / 1369 ــ 1370م وبطلب من ونزمار ، جاس الملك عبد العزيز بن أبي الحسن خلال بلاد بني زيان ، وقد شاركت في هذه الحملة قبائل ذوي عبيد الله والأحلاف من المعقل بكيفية حاسمة ودفعوا جموع بني عامر إلى تخوم الصحراء[28] .

ولما خرب بنو عبد الواد قصور عريف بن يحيَى بمرادة في 785هـ / 1383م عاقبهم بالمثل في عقر دارهم بمساعدة الجيش المريني[29] .

وبخصوص المنافسات الدائرة بين الأمراء المرينيين فمن المؤكد أنه كان لذرية عريف بن يحيَى تأثير على مجريات الأحداث . فاثناء الصراع الذي وقع بين أبي الحسن وولده أبي عنان في 749هـ / 1348م نصح عريف ابنه ونزمار أن ينضم إلى أبي عنان ، وإذا رفض فسيقتل ابنه عنتر بن ونزمار الموجود معه فأصغَى ونزمار إلى نصيحة وتهديد أبيه ، وبذلك رجحت كفة أبي عنان وتألقت مكانة ونزمار فنال الاقطاعات الشاسعة ببلاد سرسو وقلعة ابن سلامة وبلاد توجين[30] .

وإثر وفاة الملك عبد العزيز بن أبي الحسن في 774هـ / 1372م كان

---

(27) المصدر السابق ــ ص. 154.
ــ ابن خلدون ــ ج 7 ــ ص. 128.
ــ بغية الرواد ــ ج 2 ــ ص. 156.
(28) ابن خلدون ـج 7 ــ ص. 132.
(29) الاستقصا. ــ ج 4 ــ ص. 67.
ــ اثر القبائل العربية ... ص. 281.
(30) المصدر السابق. ص. 183 ــ 184.
ــ ابن خلدون ــ ج 6 ــ ص. 47. ــ ج 7 ــ ص. 286.

ونزمار هذا يصدر توجيهاته من قصره بمرادة إلى القبائل العربية حتّى لا تستكين وتركن إلى الدعة والخمول أمام المعطيات السياسية التي كانت تدفع أميرا مرينيا ضد آخر ، كما أنه أيد السلطان أبا العباس في 789هـ/ 1387م وحثهم على مبايعته[31] . وما هذا الشأن الذي بلغه شيخ من أشياخ البطون العربية إلا مثال للدور الذي اضطلعت به مجموعات عربية أخرى أو بربرية ، من أجل أهداف مرسومة كالاحتفاظ بالامتيازات المادية وصون حرمة العشيرة وموارد أرضها وأيضا المحافظة على كيان الأمة المتمثل في ملكها ومقاليد الأمور التي بأيدي أولي الأمر والحل والعقد . وسوف لا نجانب الحقيقة إذا افترضنا أن هذه الدوافع كانت وراء المشاغبات والفتن التي اضرمت سعيرها بعض القبائل العربية ــ الهلالية أو غيرها ــ في الأقطار المغربية ، وهذا يجعلنا لا نؤيد ما رددته فئة من المؤرخين الأجانب[32] التي اعتمدت على رواية ابن خلدون القائلة بأن : «...العرب دخلوا البلاد واستباحوه واكتسحوا المكاسب وخربوا المباني وعاثوا في محاسنها وطمسوا من الحسن والرونق معالمها ... وعطفوا على المنازل والقرَى والضياع والمدن فتركوها قاعا صفصفا أفقر من بلاد الجن وأوحش من جوف العير ، وغوروا المياه وأحبطوا الشجر وأظهروا في الأرض الفساد ...»[33] .

ولا نعتقد أن هذه الكيفية وهذه الدرجة في التخريب والتنكيل كانتا بدافع نزعة شريرة متأصلة في العناصر العربية الوافدة على شمال افريقية . وبصرف النظر عن الغلو في الوصف الآنف الذكر فمن المحتمل ان العرب أرادوا أن يكونوا على شاكلة خصومهم في تصرفهم معهم بالمثل لاسيما إذا كانت ــ أحيانا ــ الكلمة المسموعة لسفلة القوم وأوباشها .

---

(31) المصدر السابق ــ ج 7 ــ ص. 339 ــ 341 ــ 356 ــ 357.
ــ اثر القبائل العربية ... ص. 191 ــ 192.

(32) المؤرخون أمثال تيراس ــ جوليان ...

(33) ابن خلدون ــ ج 6 ــ ص.16 ــ 19 ــ 20.

وأحيانا أخرى – في حالة السلم – يبرز مثل هذا الموقف الثائر لكون الحكام أرادوا أن يستغنوا عن خدمات بعض القبائل ويجردوها من امتيازاتها وأقطاعاتها[34] .

ولا عجب إذا كان بعض المسافرين المارين ببسيط أنكاد يشاهدون مثلما شاهده محمد بن محمد العبدري في 688هـ/ 1289م ، حيث يقول :

«...ولما انتهينا إلى المفازة التي في طريق تلمسان وجدنا طريقها منقطعا مخوفا لا تسلكه الجموع الوافرة إلا على حال حذر واستعداد ، وتلك المفازة مع قربها من أضر بقاع الأرض على المسافرين لأن المجاورين لها من أوضع خلق الله وأشدهم إذاية لا يسلم منهم صالح ولا طالح ولا يمكن أن يجوز عليهم الا مستعد يتفادون من شره وطلائعهم أبدا على مرقب لا يخلو منها البتة ، اطلع الله عليهم من الآفات ما يستحتهم جميعا أصلا وفرعا ، ويقطع دابرهم أفرادا وتثنية وجمعا ، حتّى يكونوا آية للمعتبرين وعبرة للناظرين بعزة الله وقدرته ، وحوله وقوته ...»[35] .

هذا في الفترة التي كانت مدينة وجدة تتشكل من مدينتين : «...بينهما مسافة قليلة في بسيط مستو وقد دثرتا فلم يبق منهما الا رسوم حائلة وأة..والقديمة أشدهما دثورا وبهما عمارة قليلة ...»[36])

---

(34) اثر القبائل العربية ... ص. 113.

(35) محمد بن محمد العبدرى. الرحلة المغربية .ص. 9.

(36) المصدر السابق. ص. 279.

4 – إمـارة دبـــدو :

سوف يندهش المرء إذا تعرف على الأساليب العدائية التي كانت تتفنن فيها الفرق المتصارعة حتّى داخل مدينة واحدة أو داخل مجموعات قروية متلاصقة ومترابطة بعرَى المصالح .

فهذه مدينة دبدو التي تقع في منطقة جبلية بين سهل تاوريرت وهضاب الظهرا وتمتاز بمناخها الصحي ومياهها العذبة المتدفقة[37] ، وثرواتها الغابوية والفلاحية ومناظرها الطبيعية الرائعة ، كانت تتكون من مجموعتين قرويتين أساسيتين :

الأولى توجد على سطح هضبة يبلغ ارتفاعها 1.100م يطلق عليها اسم القصبة[38] ، والثانية تمتد في أسفل هذه القصبة وتتشكل من عدة أحياء أهمها حي الملاح اليهودي الذي كان قلبها النابض بالنشاط التجاري والانتاج الاقتصادي والكثافة السكانية .

وفي الحقبة التي من المحتمل أن تندرج في الفترة التي تألق نجم أمراء بني ورطاجن ، في القرن 15 ، دارت رحَى الحرب بين أهل القصبة وسكان الاحياء الأخرى فاسرع هؤلاء إلى تطبيق خطة ماكرة إذ استحوذوا

---

(37) اهم الموارد المائية تنحدر من عين تافرنت التي تقع على 3 كلم من القصبة. ولقد تقلصت في السنوات الاخيرة لا سيما من 1982 إلى 1984 بسبب الجفاف الذي شمل المنطقة مما قضى على غلتها الاساسية التي هي غلة الزيتون وزيته. وجريا على عادة قديمة فلا زالت مياه تافرنت توزع على ثلاث حصص : للقصبة النصف، ولكل من حي اولاد يوسف وحي الكياديد الربع. تحقيق المؤلف.

(38) ان القصبة كان لها شكل مربع غير متساوي الأضلاع وكان يحيط بها سور جد مرتفع (8 امتار)، به الان بعض الثلم نظرا لتلاشي بنيانه، بالاضافة إلى تحصينات أمامية تعزز الواجهة الشرقية المطلة على الوادي المفضي إلى الاحياء الاخرى. وكان لها ثمانية أبراج لم يبق منها إلا ستة. وكانت أبراج الزوايا تحمل هذه الأسماء :

برج الحبس، برج المقبرة أو برج الشافة، برج بركّون، برج ارفيفة. اما البابان الرئيسيان فكانتا : باب تافرنت غربا، وباب تِنْزلْفت شرقا.

ومما يعطى لهذه القلعة مناعة وجلالا ان واجهتها الغربية تشرف على خندق كبير عرضه 10م وعمقه 20م، استعمل ترابه لبناء السور.
تحقيق المؤلف.

على مياه عين تافرنت أو على الأصح منعوا أهل القصبة من الاستفادة من حصتهم من تلك المياه بعد أن ضربوا عليهم حصارا شديدا طالت وطؤته وعظم ضرره .

ومن الممكن أيضا ان حصتهم من تافرنت تضاءلت بشكل خطير بسبب عارض من الجفاف . ولذلك ، فكروا في الأمر ولم يجدوا مخرجا إلا في حفر نفق يعرف بكاف الماء ، قرب المدخل الرئيسي للقصبة في الجهة الشرقية .

وكان لهذا النفق انحدار ملائم لهبوط وصعود الدواب المحملة بالماء الضروري لحياتهم ومزارعهم . وفضلا عن ذلك «ادركوا أن الماء الذي عثروا عليه هو الذي يخرج إلى الأسفل في عين تسمَّى (عين اسبيلية) وهو الاسم الذي أطلقه عليها اليهود الذين هاجروا من مدينة اشبيلية الاسبانية إلى هناك[39] فلم يتأخروا في تعكير مائها بالتراب والرماد ومختلف الأوساخ»[40] .

ولقد أدركت مدينة دبدو أوج ازدهارها العمراني ورخائها المادي في أواخر القرن 15 وبداية القرن 16 تحت أمرة أسرة بني ورطاجن الزناتيين إثر انهيار الدولة المرينية . فبفضلها نعمت بالأمن والاستقرار بعد ما تمكنت من رد الهجومات العنيفة من قبل القبائل العربية المجاورة لها ، بقيادة الأمير موسَى بن حمو ، بل نجح حفيده محمد بن أحمد بن موسَى في بسط نفوذه على جزء من هضاب الظهرا وعدد من المدن والقصور الواقعة في سفح الأطلس نحو الجنوب .

ثم أولى عناية فائقة لعاصمة امارته فزينها بالبنايات الفاخرة والفنادق

---

(39) انظر الفصل السادس.

(40) اسماعيلي مولاي عبد الحميد دور امارة دبدو في تاريخ المغرب الشرقي ــ مجلة جمعية تاريخ المغرب. عدد 1. 1978 ــ ص. 24 ــ 25.
ــ محمد العسري. رحلة إلى مدينة دبدو. نفس المجلة عدد 2. 1979. ص. 25.

التجارية والمؤسسات التعليمية فقصدها الفقهاء والتجار فضلا عن أبناء السبيل الذين غمرهم بأريحيته وإحسانه «...وقام بنفقاتهم أحسن قيام إلى أن طار صيته بين العديد من القبائل»[41].

وذات يوم من سنة 904هـ / 1498 — 1499م طرق أبواب قصره وفد من مدينة تازة جاء مستصرخا ضد الحكام الوطاسيين فاصغى إليه واتفق معه على المؤامرة التالية :

يذهب محمد في يوم السوق الأسبوعية إلى تازة في زي رجل جبلي كسائر الناس ليشتري ما يحتاج إليه ووقتئذ ينقض المتآمرون على قائد المدينة ، غير أن هذه الخطة أحبطت وقرر السلطان محمد الشيخ أن ينطلق من مدينة فاس بجيشه في يونيو من نفس السنة ليحتل إمارة بني حمو .

ومن حيث العدد والعدة فكانت القوتان غير متكافئتين إذ أن الدبدوبيين لم يكن يتجاوز عدد مقاتلتهم ستة آلاف ، لكنهم عوضوا ذلك النقص ببسالتهم ومهارتهم في استغلال موقع المعركة ، فتراجعوا مكرا وخديعة أمام الجيش الزاحف وتركوا قسما منهم يتوغل في منعرجات وأودية الجبل الضيقة والوعرة حتّى يبلغ منه التعب مبلغه ثم انقضوا عليه بشدة وحماس فارتكب وتقهقر تاركا حوالي ثلاثة آلاف قتيل . منهم من سقط من أعلى الصخور بسبب الذهول والخوف فدقت أعناقهم . وهل تخلى محمد الشيخ عن مشروعه بعد هذه الهزيمة المنكرة ؟

كلا ، بل حاصر مدينة دبدو من كل جانب ورتب على مقربة منها نخبة من خمسمائة من قاذفي السهام وثمانمائة من أصحاب البندقيات الخفيفة .

ولما طال الحصار أدرك محمد الدبدوبي خطورة الموقف وتيقن بسوء المصير ، وفكر مليا في الاستسلام لخصمه بدون أن يفقد شرفه ويتضرر قومه . فابتكر أسلوبا طريفا في مفاوضته مع الملك .

---

(41) وصف افريقيا — ج 1 ص. 274.

قال ليون الافريقي :

«...فتزي بزي رسول وتقدم إلى خباء الملك ليسلمه خطابا كتبه بيده باسم أمير دبدو ، وهو الأمير نفسه ، ولم يكن أحدهما يعرف الآخر ، أمر الملك بأن يقرأ الخطاب وطلب من الرسول رأيه في أميره ، فأجابه : أعتقد أن أميري مجنونا حقا ، لكن الشيطان يستطيع أن يضل الكبار والصغار ! فصاح الملك قائلا : والله لو سقط في يدي كما أتمنَّى ذلك لسلخت جلد ظهره ومزقته حيا إربا إربا ! فأجابه الرسول : لو ارتمَى بين قدمي جنابك ملتمسا العفو والصفح عن خطيئته فكيف تعامله ؟

فرد الملك قائلا : في مثل هذه الحالة ، وحياتي لو أنه برهن هكذا عن اعترافه بالإساءة إلي ، فإني لن أصفح عنه فحسب ، ولكنني سأربطه معي بروابط القرابة ، وأزوج اثنتين من بناتي باثنين من بنيه ، وأقره في حكمه ، وأضيف إلى ذلك ما أراه أهلا له من صلات ، لكنني لا أخاله فاعلا مادام مجنونا .

فقال الرسول : انه سيفعل ذلك إذا أكد جنابكم وعده بمحضر من أعيان الحاشية !

قال الملك : أظن أن الكفاية حاصلة في الأشخاص الأربعة الحاضرين هنا ، فهذا كاتبي الأول ، والثاني قائدي العام ، والثالث صهري ، وذلك الشيخ الكريم هو قاضي قضاة فاس ، وشيخ الجماعة بها .

فلما سمع محمد هذا الكلام ارتمَى بين قدمي الملك قائلا : هذا هو المذنب الذي لا ملجأ له إلا عفوك ! ذهل الملك والحاضرون وعجبوا مما حدث . وقال له الملك : لست والله مجنونا كما كنت أحسب !

ثم ضمه إليه وقبله ليشعره بأنه قبل مصاهرته . وأمر فورا باحضار اثنتين من بناته فزوجهما من ابني محمد ، ثم تناولا طعام العشاء معا . وفي الغد ،

رحل الملك بمحلته راجعا إلى فاس ، ومعه صهراه ولدا أمير دبدو ....»[42] .

وعلى أية حال ففي ظل الدولة الوطاسية لم تفقد مدينة دبدو أهميتها كقلعة حصينة وكمركز إداري ذي شأن لاسيما لما توطد الحكم العثماني بغربي القطر الجزائري باحتلال مدينة تلمسان من طرف حسن بن خير الدين في 952هـ / 1545م . ففي هذه الأثناء التجأ إليها بعض الأعيان الجزائريين كالأمير أحمد بن عبد الله ووزيره منصور بن أبي غانم فاعتقلهم عمر بن يحيَى ، صاحب دبدو ، وأخذ أموالهم[43] .

ولقد تميزت مدة إمارة أو قيادة هذا الرجل ــ مولاي عمر ــ من 1542 إلى 1563 بمساندته للوطاسيين ضد السعديين وفضل أن يتعامل مع الدولة الاسبانية بدلا من الدولة العثمانية ، وزار السلطات الاسبانية بمدينة مليلية المحتلة عدة مرات أو اتصل بها بواسطة قائده حدو بن اعمارة ليلتمس تدخلها في الأحداث . بل استقبل هناك بحفاوة في 12 يوليوز 1550 مع حاشية تضم 300 شخص .

وفي 23 فبراير 1551 ترك بها أهله ثم عرج على مدينة دبدو قبل أن يضرب حصارا على مدينة تازة بألفي فارس وعدد كبير من المشاة ، لكنه تراجع أمام الخطة الدفاعية التي انتهجها القائد عبد الله ابن الشيخ ، فعاد إلى دبدو التي دخلها في ثاني مارس ثم هاجر إلى واحات فكيك في ظروف المجاعة الكبيرة التي اجتاحت المنطقة فمكث بها سنتين ثم أعلن ولاءه للدولة السعدية[44] .

---

(42) المصدر السابق. ص. 274 ــ 275.

- H. Terrasse. Histoire du Maroc. Tome 2. p.140.

(43) الاستقصا ــ ج 4 ــ ص. 163.

(44) - Henri de Castries. Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc. (Espagne). Tome 1 - pp. 204 — 209 — 550 — 571 — 592.
- Robert Ricard et Chantal de la Véronne. Ibid. Tome 2. p.9.

الفصل الخامس

عهد الملوك العلويين

القسم الأول

1 ــ عهد مولاي محمد الأول.

2 ــ قصة ابن مشعل بين الحقيقة والخيال.

3 ــ الوحدة الوطنية في السياسة الاسماعيلية.

4 ــ الأحلاف : حجر الزاوية في التوازن القبلي.

5 ــ عودة إلى سياسة الهيمنة التركية.

1 – عهد مولاي محمد الأول :

ما ان شعر محمد بن علي الشريف بصعوبة بسط سلطته على الأمصار المغربية الرئيسية حتّى قرر في 1068هـ / 1657م أن يتصل بأهالي الأطراف الشرقية وبخاصة القبائل المعقلية التي لم تتوان في مبايعته وعلى رأسها فصائل سقونة والعمارنة والمنبات الاحلافية التي اشتهرت بحبها لآل البيت . فاقتحم بها في بادئ الأمر جبال بني يزناسن التي كانت قبائلها منقسمة على نفسها تحت تأثير الدعاية التركية ، فاستولى عليها عنوة ثم عرج على مدينة وجدة التي كانت هي أيضا محط أنظار الدخلاء والطامعين فدانت له ، ثم أغار على الزكارة وبني سنوس وأولاد علي والحاميات التركية المتمركزة وراء وادي تافنا . ويبدو أن الحماس الذي كان يحرك قبائل انكاد تسرب مفعوله إلى نفس مولاي محمد . لذلك ، وبدعوة من بطون حميان الزغبية اكتسح بجموع غافرة ، الصحراء الممتدة من فكيك إلى الأغواط ، ثم قفل راجعا إلى وجدة ، ومنها إلى سجلماسة . وهناك تبادل المراسلات مع الأتراك من أجل احترام الحد الفاصل بين الدولتين وهو وادي تافنا[1] ولما نشب الصراع بينه وبين أخيه المولى الرشيد توجه إلى شرق المغرب ليستنفر أنصاره فوقع في الكمين الذي نصب له ، فكان فيه حتفه بناحية قرية رسلان ، يوم الجمعة 8 محرم 1075 / فاتح غشت 1664 ، وقيل بأنه دفن بدار يهودي اسمه ابن مشعل[2] .

---

(1) الاستقصا – ج 7 – ص. 20 إلى 27.
– محمد بن الطيب القادري – نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني. – ج 2 – ص.87.
– ينبع وادي تافنا قرب قرية سبد و جنوب مدينة تلمسان ويتجه شمال قرية مغنية ليصب في البحر المتوسط أمام جزيرة ارشكون غربي مرسى بني صاف.

(2) الاستقصا – ج 7 – ص. 31.
– محمد الصغير الوفراني – نزهة الحادي باخبار ملوك القرن الحادي. ص. 302.

2 – قصة ابن مشعل بين الحقيقة والخيال :

يظهر أن الأموال التي آلت إليه من خزائن اليهودي هارون بن مشعل كانت من بين العوامل التي ساعدت مولاي رشيد أيما مساعدة في اقصاء أخيه من طريقه إلى مقاليد المملكة . فمن هو هذا الرجل ؟ وما هي الظروف التي التقيا فيها ؟ وأين ؟

إن الروايات التي لدينا متفقة على أن هذا اليهودي كان له من الثروات الطائلة والجاه العريض والنفوذ القوي في قومه وفي غيرهم ما جعله يكون حامية عسكرية ويضاهي الأمراء في زيهم ومراسمهم . ولا عجب في ذلك إذ أن المغرب كان مفككا سياسيا ومجزءا علىَ عدة دويلات ، إلا أن تلك الروايات متباينة في الجواب على السؤالين الآخرين .

ورد في نشر المثاني أن المولَى الرشيد «..وفد على الشيخ اللواتي وكان متفقرا يعظم نسبة الشرف ، فبالغ في اكرامه ، فبينما هو مقيم عنده إذ رأى رجلا بهيئة من خيل واتباع ومماليك ، وهو يصطاد كهيئة الملوك ، فسأل عنه من هو ؟ فقيل : ابن مشعل من يهود تازا ، فتنحَّى سريعا وجعل السكين في فمه واستقبل الشيخ اللواتي ، فلما رآه بادر إليه : لبيك يا مولاي ، لبيك لا أعز عنك رقبة ولا مال ، لأن ذلك عندهم علامة على الاستعطاف في أخذ الثأر لمن ظلم أو شبه ذلك ، فاقترح عليه أن يعطيه خمسمائة أو نحوها من اخوانه الأبطال ليفتك باليهودي غيرة منه ، جزاه الله خيرا ، على دين الله ، فقال له لا يتخلف عنك واحد منهم أينما توجهت ، فتواعد معهم ان يدخلوا تازا خفية متفرقين ويلحقوا به بحوز دار ابن مشعل ، وهي على نصف مرحلة من تازا شرقا في البيداء أو أزيد من ذلك ، ثم تقدمهم إليها واستضاف اليهودي ابن مشعل فأضافه ، وكمن الأبطال حيث يتصل بهم ان احتاج إليهم ، واحتال حتَّى اتصل باليهودي في خلوته فبطش به وقتله ، وادخل الرجال باحتيال صادف به مرامه ،

فاستولَى على دار اليهودي وأخرج منها أموالا عظيمة وذخائر نفيسة ، فنال ما قضَى الله له من موعوده ، وسطعت في فلك السعادة منازل سعوده ، فلحق به اخوه الإمام مولاي محمد هنالك لينزع منه المال قبل عتو أمره ، فأدَّى ذلك إلى حرب بينهما ...»[3] .

أما الرواية الثانية فجملها أن ابن مشعل كان له حصن بجبال بني يزناسن ، ولعله على مقربة من قرية تاكما التي بها انقاض تعرف بخربة ليهودي ، على بعد حوالي 10 كلم غربي تافوغالت ، فطلب المولى الرشيد من سكان هذه المنطقة أن يشاركوا في الخطة التي رسمها للقضاء عليه ، غير أن منهم من أشعر اليهودي بذلك ونصحه بأخذ الحيطة والحذر ، فجمع ابن مشعل بطانة سره للتشاور معها ، فتم الاتفاق على أن يقدم بنفسه هدية نفيسة للمولَى الرشيد ليأمن شره ، ولما تم ذلك بُغت الوفد اليهودي حين قُبض على رئيسه وضرب عنقه[4] .

وقد يكون صدر منه ما فسره المغرضون بأنه ازدراء بالديانة الاسلامية واعتداء على حرمة المسلمين من جانب أهل الذمة إذ أن صاحب نزهة الحادي قال بأن المولَى الرشيد : «..لم يزل يجول في البلدان طامعا في اقتناص الملك إلى أن ادته خاتمة الجولان إلى قصبة ابن مشعل فوجد فيها يهوديا من أهل الذمة له أموال طائلة وذخائر نفيسة وله على المسلمين صولة واستهزاء بالدين وأهله ...»[5] .

وبما أنه من الشائع أن المولى محمد دفن بدار هذا الرجل فمن شبه

---

(3) نشر المثاني. — ج 2 — ص. 103 — 104.
— الاستقصا — ج 7 — ص. 30.
— لما قتل المولى الرشيد اليهودي ابن مشعل سجن ابنه، فأرادت أمه أن تفديه، فرد عليها قائلا : ... لا اسرحه حتى تدليني على مال زوجك أو اقتله. فقبلت ودلته على خزانة في بيت فنقب عنها ووجد فيها خوابي مملوءة ذهبا وفضة فاستخرجها وفرق منها على انصاره .. الاستقصا. — ج 7 — ص. 32.

(4) المصدر السابق. ص. 30

(5) نزهة الحادي. ص. 301.

المؤكد أن هذا الأخير كانت له قصور بضواحي مدينة تازة وأيضا بالقرب من مدينة وجدة بموقع قبور ليهود الذي به أطلال تطل على عين جارية بماء زلال في وادي طايرت والمشهورة بعين ليهودي .

وهناك أسطورة تفيد بأن ابن مشعل كان ذات يوم بالبادية في بني عبد السيد محفوفا بحاشيته في موكب عظيم ، فمر قرب امرأة مسلمة تحمل على ظهرها طفلا صغيرا ، فطلب منها أن تسقيه ماء ، لكنها لم تحفل به واعرضت عنه خجلا أو استهزاء ، فبعث من يأتيه بطفلها ليصب عليه جام غضبه ، ولما أوتي به طعنه بسيفه .

ولم يسع الأم المسكينة إلا أن تستصرخ قومها ، أولاد ابراهيم والرسما المقيمين بتازغين لمحو العار وأخذ الثأر . فاجتمعت ثلة من أصحاب النجدة والشهامة واقتفت أثر اليهودي حتّى قضت عليه بسوق الحد ببني اعمير[6] .

وسعيا وراء تجلية الحقيقة فلابد من الرجوع إلى المصادر اليهودية التي هي الوحيدة التي أوردت الاسم الشخصي للقائد اليهودي — وهو هارون — مؤكدة بأن اغتياله تم في يوم مقدس وهو يوم سبتهم مضيفة بأنه من المحتمل أنه ترك صدىً بمنطقة الزكارة التي بها جبل اسمه جبل ليهودي تتفجر منه عين قرب مقبرة يهودية[7] .

وتفيد أيضا أن المولَى اسماعيل أجلَى كافة اليهود من قصبة ابن مشعل بعدما جعل عاليها سافلها في 1101هـ / 1690م وان الكثير منهم استقر بمدينة دبدو[8] . وأن هذا لدليل قاطع على المؤمرات التي كانت تدبر بهذه القلعة بتنسيق مع المخابرات الاسبانية ضد السيادة المغربية[9] .

---

(6) Slousch Nahum - Les Juifs de Debdou. Revue du Monde Musulman. 1913. pp. 253-255-256.
- Voinot. L. Oudjda ... pp.440-441-

(7) Les Juifs de Debdou-op.cit. p.254.

(8) Ibid. pp. 252-253.

(9) من شبه المؤكد أن الملك السعدي محمد الشيخ ارتاب من تصرفات اليهود لما بعث إلى حصن «دار ابن مشعل» في مارس 1549 جيشا قوامه ستة آلاف فارس ليراقبهم عن قرب. كاسترى — ج 1 — ص. 542.

3 – الوحدة الوطنية في السياسة الاسماعيلية :

من الواضح أن مولاي اسماعيل (1672 – 1727) كان يضع من بين اهتماماته الكبرَى تصفية الجيوب الشاطئية من الوجود العسكري الانجليزي والاسباني والبرتغالي في الجهات التي كانت تئن تحت مناورات الهيمنة الأوربية منذ ثلاثة قرون . لكنه كان يشعر بضرورة صون الأطراف الشرقية من البلاد لأن الأتراك لم يستفيدوا من دروس الماضي[10] واستمروا في سياسة الدسيسة والخداع لاسيما وأن بعض القبائل كالشراقة وهوارة ومديونة وبني سنوس وبني عامر واشجع كانت تثور عليهم من حين لآخر وتعتبر المغرب دار هجرة ونجدة[11] .

ففي 1089هـ / 1678م توجه بجيشه إلى ما وراء وادي تافنا ليؤكد أهمية الحد بينه وبين جيرانه ، وأثناء ذلك أمر بتجديد أسوار مدينة وجدة وتحصيناتها[12] .

ثم في 1090هـ / 1679م شحنها بحامية إضافية من عرب الشبانات وزرارة الذين نقلهم من منطقة الحوز وولى عليهم أبو البقاء العياشي بن الزويعر الزراري ، فضيقوا الخناق على شيعة الأتراك من بني يزناسن ومنعوهم من الحرث ببسيط انكاد ، كما أنه أمن السبل ببناء ثلاث قلع :

---

(10) بدأت سياسة الهيمنة التركية على يد عروج الذي تقدم بجيشه في جبال بني يزناسن في 924هـ/1518م، فوقع في كمين لقي فيه حتفه.
الاستقصا – ج 4 – ص. 162.
وحسب رواية اخرى، كانت له شيعة ببني يزناسن وانه قتل في معركة مع الجيش الاسباني بناحية عين تموشنت - Henri Delmas de Grammont - Histoire d'Alger sous la Domination Turque. pp.24 à 27.

(11) الاستقصا – ج 7 – ص. 41.

(12) المصدر السابق. ص. 59 – 60.
– عبد الله العمراني – مولاي اسماعيل بن الشريف. ص. 66 – 67.

الركادة بسهل التريفة ، العيون سيدي ملوك[13] ، بوغريبة قرب نهر ملوية ، وانزل بكل واحدة منها 500 فارس[14] . ولاشك أن حاميات تلك القلع لم تتمكن من تأديب قبائل بني يزناسن التي كان دأبها التنافر والتناحر فيما بينها ، لذلك شن عليها في 1091هـ / 1680م حملة واسعة النطاق وارغمها على الاستسلام وجردها من أسلحتها وخيولها ، ثم أحضر بانكاد شيوخ قبائل الأحلاف وسقونة ولمهاية وحميان وألزمهم بالقيام بالتكاليف المخزنية لأنهم تثاقلوا إلى الأرض أو تباطئوا حين بلغهم نداء الاستنفار العسكري . ولما مر بمدينة تاوريرت لاحظ أن قلعتها تصدعت وخربت فجدد مرافقها وأضاف أبراجا أخرى في أسوارها وأنزل بها 100 فارس من عبيد البخاري بعيالهم وأولادهم[15] .

ولقد كرر على التخوم المغربية العثمانية الغارات : في 1093هـ / 1682م أرغم الجيش المعتدى أن يتراجع من بني يزناسن ومن دار ابن مشعل[16] .

وفي 1103هـ / 1691 ــ 1692م أوفد ابنه مولاي زيدان لابرام الصلح معهم أو على الأصح لابرام الهدنة لأنه هاجمهم بناحية تلمسان في 1106هـ / 1694 ــ 1695م . وهكذا تأرجحت العلاقات بين الجانبين بين الاعتداءات والمناورات وبين تبادل السفارات لاجراء مفاوضات

---

(13) كان لقصبة لعيون سيدي ملوك شكل مربع (130م × 130م) وأربعة أبراج خارجية (واحدة بكل زاوية من زواياها) وأربعة أبراج خارجية أيضا في جوانبها ما عدا في الجهة الشرقية التي ينفتح بها مدخلها الوحيد. ويقع هذا المدخل تحت برج ضخم يبلغ ارتفاعه 10م، وله باباذ متوازيان في اتجاه الجنوب يفضيان إلى بابين آخرين في اتجاه الشرق، مما يعطي للحصن هيبة وقوة ومناعة سيما وأن عرض البابين الخارجيين أضيق من عرض البابين الداخليين.

ولقد شوهت مظهرها الدكاكين التي بنيت في عهد الاستقلال وهي ملتصقة بالسور الشرقي. أما مخبرها فهو الان في اسوء حال اذ يشتمل على بنايات مخربة بجوار منازل آهلة بالسكان. تحقيق المؤلف.

(14) الاستقصا ــ ج 7 ــ ص. 61 ــ 62.

(15) المصدر السابق. ص. 62.

(16) المصدر السابق. ص. 64 ــ 65.

وتقديم المجاملات . وتجدر الإشارة إلى البعثة المكونة من عشرة شخصيات التي أوفدها السلطان مصطفَى بن محمد العثماني إلى العاهل المغربي في 1108هـ / 1696 ــ 1697م . ومما يدل أن هذا الأخير كان عازما على سد أبواب الفتن والحروب بين المسلمين أنه وبخ ابنه المولى زيدان لما أغار على الأتراك من وجدة في 1111هـ / 1699 ــ 1700م ، والتي كان واليا عليها ، فاستولَى على قلعة معسكر وانتهب قصر أميرها عثمان باي الذي كان منشغلا في بعض غزواته . بل عزله من منصبه وولى مكانه أخاه المولَى حفيظ [17] .

وفي 1112هـ / 1700م قرر أن يزور المنطقة الشرقية ليتفقد أحوالها ، وحين وصل هناك بلغه أن الأتراك حشدوا قوة هائلة قرب وادي تافنا ، فبعث السرايا لتناوشهم ثم قفل راجعا إلى قاعدة ملكه في صيف هذه السنة الذي تميز بحرارة مفرطة ، فمات من جيشه عدد كثير بسبب شدة العطش وضنك التعب [18] .

4 – الاحلاف : حجر الزاوية في التوازن القبلي :

امتدادا للدور الذي قاموا به في الحقب السابقة وبالأخص في سياسة الدولة المرينية بشرق المغرب ولاسيما لسد الثغرات التي كانت تخل بالتوازن بين القبائل من جراء الأطماع العبد الوادية [19] ، فإن الأحلاف كانوا أقوَى ساعد للملوك العلويين بالمنطقة . فها نحن نرَى ، في 1149هـ / 1736 ــ 1737م ، الملك المولى علي الأعرج بن اسماعيل يستقر بين ظهرانيهم حين ضاق ذرعا بأخيه عبد الله «...ففرحوا به وأكرموه وصاهروه وأقام بين أظهرهم عدة سنين معرضا عن الملك وأسبابه إلى أن رجع إلى مكناسة

(17) المصدر السابق. ص. 79 ــ 87 إلى 90.
ــ مولاي اسماعيل بن الشريف. ص. 184.
(18) الاستقصا ــ ج 7 ــ ص. 90.
(19) انظر الفصل الرابع

فاستوطنها بإشارة أخيه المولى عبد الله حين وفد عليه بدار الدبيبغ من فاس ...» في 1169هـ/ 1755 ـ 1756م[20] .

ولقد ربطوا أيضا صلة القرابة بالمولَى محمد بن عبد الله الذي كان له خمسة أولاد ، الحسن ، عمر ، سليمان ، الطيب ، وموسَى من امرأتين احلافيتين[21] .

وبهذه القرابة التي استمرت في القرن 19 تسنموا المراتب السنية حتَّى خارج منطقتهم كأبي زيان بن الشاوي الذي كان عاملا على قبائل تازة وأعمالها في أيام المولى عبد الرحمن[22] ، وتقوت عصبيتهم وشوكتهم فأسدوا أجل الخدمات وحافظوا على استتباب الأمن وحماية الطرقات والمسالك ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

ومن الثابت أنهم لم يتأثروا بدعاية الأتراك خلافا لقبائل انكادية أخرى التي بلغ عصيانها وتمردها إلى الاعتداء على الكتائب العسكرية وحتَّى على قوافل التجار والحجاج . فمن الشواهد على ذلك ما حكاه أبو القاسم الزياني الذي عين عاملا على الاقليم الوجدي في مستهل عهد المولى سليمان ليصلح الأوضاع ويعاقب الرعاع . فقبل أن يصل إلى مقر عمله ـ وبخواطره التشاؤم والوجس ـ ، اعترضت سبيله جماعة من قطاع الطرق فانتهبت محلته والقافلة التجارية المحتمية به ، قرب قصبة لعيون سيدي ملوك ، في خريف 1206هـ/ 1792م .

قال : «...فجاءنا العرب من كل حدب ينسلون ووقع الحرب ، فانهزم من معنا من العسكر هاربون ، فنهب العرب ما عندنا من صامت وناطق

---

(20) الاستقصا ـ ج 7 ـ ص. 137 ـ 141.

(21) المصدر السابق ـ ج 8 ـ ص. 71.

(22) رسالة ملكية بتاريخ 3 جمادى الثانية 1214/السبت 2 ـ 11 ـ 1799 إلى محمود بن الطاهر : بحوزة الرحماني الحاج المختار، شيخ دوار أولاد محمد (و.ع.).
ـ الاستقصا ـ ج 9 ـ ص. 16.

ومن صاهل وناهق ... فقطعت جبل بني يزناسن لناحية البحر وقصدت مدينة وهران التي بها الباي محمد بن عثمان ...»[23] .

وبما أنه كان من باب الحكمة السياسية ضرب عصبية قبلية بعصبية قبلية أمضَى وأقوَى منها فإن الأحلاف كانوا يشاركون في الحملات ضد الجيوش الأجنبية وفي قمع العصبيات الثائرة ، وبالأحرَى العصابات الفاسدة والماكرة حتَّى في الأقاليم المغربية الأخرى[24] .

وبهذه السياسة كان يحدث في غالب الأحيان التوازن القبلي بسهل انكاد وكذلك بين العصبيات العربية والعصبيات البربرية الايزناسنية .

ومن الحق أن نقول أن التفاعل المحتدم بين تلك العصبيات كان يهدأ ويضعف كأنه لم يكن شيئا مذكورا بفضل القاسم المشترك بينها ، الا وهو الاعتصام بالدين الإسلامي الذي كان في آخر المطاف والصراع يؤلف بين القلوب المتنافسة والمتباغضة والمتحاسدة .

5 – عودة إلى سياسة الهيمنة التركية :

في بداية عهد مولاي سليمان بن محمد الذي تميز بالصراع بينه وبين اخويه مولاي مسلمة ومولاي هشام ، توصل الأتراك الجزائريون إلى استمالة بعض القواد في شرق المغرب ، تارة بالعطايا الوافرة والامتيازات المادية ، وتارة أخرى باثارة الفتنة بينهم ومساندة البعض على البعض الآخر ، تمهيدا للاستيلاء على مدينة وجدة وبسط نفوذهم على قبائل بني يزناسن ولمهاية وغيرها .

ولقد ساعدتهم الظروف السيئة السائدة آنذاك عقب سنوات من القحط والمجاعة تفشت فيها أمراض مهلكة وأسقام مفككة أدت إلى نزوح

---

(23) المصدر السابق – ج 8 – ص. 93.
– ابو القاسم الزياني – الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا – ص. 140.
(24) الاستقصا – ج 8 – ص. 116.

اعداد هائلة من العشائر والفرق من الجنوب إلى الشمال ، فارين بأنفسهم وأهليهم ومواشيهم إلى الأماكن المرتفعة التي تتوفر على مياه الينابع .

ورغم قصر الاحتلال التركي (1792 ــ 1796) فقد خلف آثارا في حياة الأهالي . فمن الناحية الاقتصادية تقلصت المبادلات التجارية بين المغرب الشرقي وبين المناطق المغربية الأخرى ، في حين أنها ازدادت حجما وتنوعا مع الغرب الجزائري وخصوصا مع مدينة تلمسان ، وبذلك تأثرت الحياة الاجتماعية في الميدان العمراني وفي اللباس وفي استعمال بعض الألفاظ التركية التي لم تنقرض إلى يومنا هذا ، منها كلمة احراش التي تطلق على حومة بحي أولاد القاضي بوجدة ، وكلمة باشا عادل ، وخزناجي .

ولقد انتهَى الوجود التركي بعد المراسلات التي تبادلها العاهل المغربي وباي وهران ، محمد باشا ، فتراجع الحاكم التركي عن أطماعه حين أخبر بأن محلة كبيرة ، قوامها عشرين ألف رجل ، متجهة من فاس إلى وجدة ، تحت لواء ثلاث قواد : عياد بن أبي شفرة ، قائد لودايا ، محمد بن خدة ، قائد الشراقة ، عبد الله بن لخضر ، قائد الأحلاف[25] . وان دور هذا القائد لدليل واضح على ولاء معظم قبائل هذه المنطقة للادارة السلطانية أثناء فترات الفتن التي كانت تشعلها الأيادي الأجنبية .

وحين استتب الأمن واطمأن الناس على نفوسهم عم الرخاء وتيسر الترحال إلى المواطن التي كان الأهالي ينتجعونها في تنقلاتهم الموسمية ، اما نحو الهضاب العليا وصحراء فكيك ، واما إلى ما وراء وادي تافنا لأن القبائل كانت تربطهم مصالح مشتركة ولأن النفوذ المغربي من الناحية السياسية والدينية كان يصل أحيانا إلى تلمسان ، كما أن القلاقل الواقعة هناك كانت تنعكس على مجرَى الحياة في شرق المغرب في ميادين شتَّى .

فني 1220هـ / 1805م ثارت عرب هذه المدينة وأحوازها ضد

(25) المصدر السابق. ص. 104.

تعسفات الحكم التركي بزعامة عبد القادر بن الشريف الفليتي الذي كان ينتسب للطريقة الدرقاوية بصفته نائبا للشيخ محمد العربي بن أحمد الدرقاوي . فاعتقد مصطفَى باشا ، باي وهران ، أن الأمر دبر بإيعاز من المولَى سليمان وأنه من المستحسن أن يلتمس منه ايفاد شيخ الطريقة لفض النزاع بحكم هيبته ونفوذه في وسط اتباعه ، فاستجاب الملك المغربي لهذه الرغبة ووجه هذا الأخير مع الأمين الحاج الطاهر بادو المكناسي إلى منطقة الصراع حيث تبينت له الأضرار التي لحقت مريديه واصرارهم على محاربة الأتراك الذين لم يرقبوا فيهم الا ولا ذمة ، وعزمهم على مبايعة العاهل العلوي لما سمعوا منه من حسن السيرة وعلو الهمة وقوة الشكيمة . بل قبل الشيخ الدرقاوي أن يكون لسان حالهم والمعبر عن رغبتهم لدَى مولاي سليمان ، فرجع إلى فاس مع وفدهم وهداياهم وصك بيعتهم . إلا أن هذا الأخير فضل أن لا ينفخ في نار الفتنة وان يصلح بين الطرفين في ظل السلطة التركية ، فكلف القائد عياد بن أبي شفرة باطلاع باي وهران ، محمد لمقلش الذي خلف مصطفَى باشا ، على هذا الموقف المتزن والمنصف[26] .

بيد أن عبد القادر بن الشريف رفض هذا الحل ولاذ بنفسه واتباعه إلى جبال بني يزناسن في قبيلة بني منكوش ، وازداد الأمر تعقيدا بسبب الجفاف الذي أصاب الحرث والماشية فبدأت أفواج غفيرة من الجزائريين تنزح إلى المغرب ، فمنها من استقر بوجدة وسهل انكاد ، ومنها من استقر بفاس وضواحيها ، وبذلك ــ حسب تعبير الناصري ــ «..لم يبق لباشا الترك مع من يتكلم فضلا عن أن يتأمر فجعل يكتب إلى السلطان ويرغب إليه أن يرد عليه أهل تلمسان وعربها ، فكلمهم السلطان رحمه الله في الرجوع فأبوا وقالوا : نذهب إلى بلاد النصارَى ولا نجاور الترك فنجمع علينا الجوع والقتل ! ! !

(26) المصدر السابق. ص. 109 ــ 110.

فرق لهم السلطان وتركهم ، بل جبرهم بان صار يعينهم بالعطاء ويتخولهم بالصدقات المرة بعد المرة حتّى كان عطاؤه إياهم كالراتب المفروض ، وعالج داءهم مع الترك إلى أن أخصبت بلادهم ورخصت أسعارهم فتراجعوا حينئذ إلى أوطانهم وكتب السلطان إلى الباي في شأنهم بالعدل وحسن السيرة فامتثل ... ولم يبق منهم بالمغرب إلا من كان عليه دين للترك فلم يقدر على الرجوع ...»[27] .

ولقد شاهد جوانب من الأحداث التي ذكرناها الرحالة الاسباني دومنيك باديا الذي زار وجدة في صيف عام 1805 ، باذن مخزني ومتنكرا تحت اسم علي باي العباسي ، وكان يقصد تهييء الظروف الملائمة لنشر الحضارة الأوربية بسهل انجاد في نطاق مخطط استعماري بعيد المدى والمضامين ، فلم يحصل على مبتغاه بعد شهرين من المغامرات ، وكاد يسقط فريسة للعطش أثناء رجوعه في أوائل شهر غشت قرب تاوريرت[28] .

ولا نستبعد ان وصف هذا المغامر للوقائع واستنتاجاته المبنية على المعاينة وما تتناقله الألسنة يفيد أن المنطقة كانت عبئا ثقيلا على الدولة من الناحية المالية حيث أن جباية الأعشار والزكوات كانت تتطلب أحيانا تنقل محلة عسكرية من قبيلة إلى أخرى لاسيما وأن الناس كانوا يعفون منها في السنوات العجاف وكان منهم من يستنكف عن أدائها في سنوات الرخاء .

ففي 1218هـ / 1803م قام بهذا الدور الشيخ عبد الله بن لخضر ، قائد الأحلاف ، فلم يلق أية صعوبة في ذلك[29] .

أما في 1221هـ / 1806م اضطر المخزن إلى انفاذ جيش بقيادة عامل فاس ، باعْقيل السوسي ، الذي صاحبه قواد القبائل ، فجمع جبايات

---

(27) المصدر السابق. ص. 111.

(28) فوانو. وجدة ... ص. 449 ــ 450.

(29) الاستقصا ــ ج 8 ــ ص. 108.

كثيرة لكن قبيلة الأعشاش امتنعت عن أداء حصتها متذرعة باعذار مختلفة ، بل أغارت على كتيبة مخزنية ونكلت بها شر تنكيل ، ففر جنودها من قبضتها تاركين اثقالهم بيد العدو ولم يجتمعوا إلا على وادي ملوية . وكان هذا سببا لعزل باعقيل عن منصبه[30] .

ونتيجة لتلك الملابسات تم اصلاح الأسوار والأبراج المحصنة لمدينة وجدة ، وفي مقدمتها الجدران السميكة المحيطة بقصر العمالة الذي رمم ووسع وأضيف إليه مسجد خاص بالموظفين الحكوميين أطلق عليه اسم جامع الباشا[31] . كما أنه أنشئ حمام قرب المسجد الأعظم ، وزود بالماء الجاري من وادي سيدي يحيَى عبر ساقية بسيطة تعرف بخيط المخزن[32] .

---

(30) المصدر السابق. ص. 112.

(31) انظر الفصل الثامن.

(32) الاستقصا — ج 8 — ص. 173.

الفصل الخامس

عهد الملوك العلويين

القسم الثاني

عهدا عبد الرحمن بن هشام ومحمد بن عبد الرحمن

1 ــ موقف المغرب إزاء الاحتلال الفرنسي للجزائر (1830 ــ 1843).

2 ــ وقعة اسلي : 29 رجب 1260 / 14 ــ 8 ــ 1844.

3 ــ ثورة الأمير عبد القادر ضد المغرب.

4 ــ المقاومة الشعبية للاعتداءات الفرنسية على شرق المغرب : 1852 ــ 1859.

5 ــ الوضعية الاقتصادية والاجتماعية.

1 – موقف المغرب إزاء الاحتلال الفرنسي للجزائر (1830 – 1843) :

يبدو أن مولاي عبد الرحمن (1822 ــ 1859) خص منطقة وجدة اهتماما متزايدا مع مرور الأيام نظرا لوضعيتها المتميزة عن المناطق المغربية الأخرى . فعين فيها من يحافظ على استقرارها في مجال تأمين المواصلات والتعايش بين فصائل سكانها باستعمال الليونة وتجنب سياسة العنف أثناء جباية الضرائب .

ففي 1240هـ / 1824م استعمل عليها ابن عمه محمد بن الطيب الذي كان قوي الشكيمة على العصاة والمتمردين ، فصادفت إقامته فيها المجاعة التي أصابت المغرب كله فرجع إلى فاس بعد مدة يسيرة[1] .

وفي صيف 1243هـ / 1827م عين ادريس بن حمان لودي الجراري الذي كان «...نسيج وحده ، وقريع دهره في جودة الرأي وادارة الأمور على وجهها واجرائها على مقتضى صوابها ومحبة السلطان ونصحه ...»[2] ومن نفاذ رأيه وعمق درايته واتقان مهارته استأذن الملك في رسم خطة تنظيمية جديدة تهدف إلى اطلاعه باستمرار وبكيفية أسرع من ذي قبل على أحوال الرعية وعلى صبغة علاقاته مع أتراك الجزائر .

فاستحسن مولاي عبد الرحمن رأيه وأوصاه بالاجتهاد في اصلاح الأمور وفي مقدمتها «...أمان الطريق وخمود الفتنة حتّى لا يصل من تلك الناحية إلا الخير ...»[3] .

ولما احتل الجيش الفرنسي مدينة الجزائر في 14 محرم 1246 /

---

(1) الاستقصا. ج 9 ــ ص. 13.

(2) المصدر السابق. ص. 15

(3) المصدر السابق. ص. 16.

5 ـ 7 ـ 1830 [4] أصبح العامل ادريس بن حمان يقوم بدور المراقب الأول لمجريات الأحداث في الثغور الأمامية أي في وجدة أو أحوازها ، حيث اتصل به أعيان تلمسان في شأن تقديم بيعة رسمية وشرعية تعبيرا للجوئهم تحت كنف السلطة المخزنية ، فبعث وفدا منهم إلى المولى عبد الرحمن الذي كان وقتئذ بمكناس فاكرمهم وقبل مقصدهم في ربيع النبوي 1246 / سبتنبر 1830 [5] ثم وجه معهم ابن عمه مولاي علي بن المولَى سليمان على رأس كتيبة مؤلفة من جند لودايا والعبيد ، فاستقر بمدينتهم بعدما أجلَى جيش الكرغلية من قصبتها في خريف نفس السنة ، لكن بعض القبائل ، وفي طليعتها قبيلتا الدوائر والزمالة ، اللتان كانتا تتعاملان مع أهل تلمسان ولها اليد الطولى على مسالك القوافل التجارية خشيت أن تذهب امتيازاتها أدراج الرياح فشرعت في مناوشة الكتيبة المغربية وعكرت الأمن بايعاز من مشايخها أو من سفلة قومها .

ولذلك توالت الامدادات لمواجهة الموقف فجاءت مجموعة من 500 فارس ومائة من المشاة وفرقة من المدفعية ثم أعقبتها تعزيزات أخرى ، كما أنه اعتمد على أصحاب الطرق الصوفية أمثال الحاج العربي بن علي الوزاني الذي طاف في المداشر والقرَى من أجل ارشاد الناس إلى طاعة العاهل المغربي [6] .

إلا أن استعمال وسائل الاقناع الديني وقوة العدد والعدة لم تجد شيئا لأن داء التفرقة والتطاحن والتنابز بالألقاب دب في شرايين القواد المغاربة فتهالكوا على نهب الأموال والأمتعة ومالوا إلى الانتقام من المخالفين بأبشع

---

(4) وليس في أواخر محرم 1246 كما ذكر صاحب الاستقصا في صفحة 26.

(5) المصدر السابق. ص. 27.

- Ismael Hamet. Le Gouvernement Marocain et la Conquête d'Alger. Annales de l'Académie des Sciences Coloniales. Tome 1-1925. pp.64-65

(6) الاستقصا. ج 9 ـ 30 ـ 31.

الطرق فرأى مولاي عبد الرحمن أن الحل الأمثل هو استرجاع الجيش المغربي[7] وانتظار ظروف سانحة لتنفيذ الخطة التي رسمها من قبل ، فتم ذلك بناء على التعليمات الواردة في الرسالة المؤرخة في 24 رمضان 1246 / 8 مارس 1831 :

«...ولد عمنا الأرشد مولاي علي ، وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته ، وبعد ، فقد وصلنا كتابك وعرفنا مضمنه واعلم أنه منذ توجهتم بالمحلة لتلك النواحي وأفكارنا متعبة وقلوبنا متشوشة ، وتارة يرد علينا ما يسر ، وتارة يرد خلافه ، وما كلفنا الله بهذا ولا حاجة لنا بقتال المسلمين وسفك الدماء بغير حق ، فإن كان ولابد ، القوم عند أقوالهم ، ومرادهم في الخدمة والصلاح فهم يحرصون علينا ولا نحرص عليهم ، ومن وفَى بما عاهد الله عليه فعاملنا بوجدة يتصارف معه ، على وجه الطاعة والصلاح ، ومن ارتد على عقبه فلا حاجة لنا به حتَّى يقف على رأيه ويعلم عاقبة أمره ، ومن وجعته الضرس يبحث على الكلاب ، والعمل على ما قدمنا لكم من جمع المتفرقين من المحلة والقدوم فورا ، وجعل الأشياخ للقبائل والحواضر ، وكلامهم مع عامل وجدة ، وإياكم التراخي في ذلك ، والسلام ...»[8] .

ومن مخلفات هذه القضية انه ألقَى القبض على القواد الذين آثروا منافعهم الخاصة على المصالح العامة ونهجوا سلوكا يتسم بالتهور والخيانة ، ومن بينهم العامل ادريس الجراري الذي سجن بتازة عدة أسابيع ، ولم يتخلص من ورطته إلا بطريقة عجيبة وذكية بحيث أنه كانت بحوزته أوراق

---

(7) المصدر السابق. ص. 32.

— زعم محمد بن عبد القادر الجزائري أن سبب انسحاب الجيش المغربي من منطقة تلمسان راجع إلى الضغوط الدبلوماسية الفرنسية على المغرب، وهذه الرواية مخالفة للمنطق ولوقائع الأحداث لأن صاحبها وصف الوضعية العامة بالمنطقة قبل مجيء مولاي علي بهذه العبارات :

«... وترك (مولاي علي) أحوال المغرب الأوسط على ما كانت عليه من الاضطراب وتسلط الغوغاء...» تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر. ج 1 — ص. 147.

(8) - Ismael Hamet. op.cit. p.76.

تحمل الطابع السلطاني قصد استعمالها في الظروف الاستثنائية مع القبائل المتمردة ، فكتب في واحدة منها الاذن بسراحه من السجن وأبلغها إلى عامل المدينة الآنفة الذكر ، ثم جد في السير نحو فاس ليبرهن عن حسن نواياه وتقديم معاذره للمولَى عبد الرحمن الذي لم يخيب ظنه وعبر له عن عفوه ورضاه ، في هذه الرسالة :

«...فقد وصلنا كتابك وعرفنا ما فيه ، والحمد لله على سلامتك ، وما وجهنا لك إلا بقصد أن نسرحك لأننا تحققنا أنك كنت مغلوبا عليك ، فلا عهدة عليك ، وبل من تمام عقلك مساعدتك لمن نهب ، ولو منعتهم من ذلك لتفاقم الأمر هنالك ، وأنت عليك الأمان ظاهرا وباطنا ، في الحال والاستقبال ، فلا تخشَى من شيء أبدا ، فإنك ممن نتهمه بالدين والعقل والصدق ، وقد عاينت وسمعت ما صدر من اخواننا من النزعة الشيطانية ولا ينبغي أن نقابلهم بمثل ما قابلنا به من لا عقل له منهم ، وان قابلناهم به لا نلتقي أبدا ، وأنت ، اسع في الخير والصلاح ما أمكنك ، وتحمل لهم عنا بالأمن من كل ما يخافونه من جانبنا ، فجسارتهم أولى من صلاح القبائل ، فقف على ساق الجد ، لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس ، والسلام ...»[٥] .

أما السياسة المغربية إزاء أهل تلمسان فقد اتخذت شكلا آخر حينما التفوا حول الحاج عبد القادر بن محيي الدين[١٥] الذي ينتسب إلى رباط علمي من مدينة معسكر والذي أعلن بيعته للمولَى عبد الرحمن ملتمسا منه المؤازرة والمساعدة في كفاحه ضد الفرنسيين ومن نف لفهم من القبائل

---

(9) الثلاثاء 17 محرم 28/1247 — 6 — 1831. الاستقصا. ص. 35 — 36.

(10) يبدو أن أعيان تلمسان كانوا منقسمين على أنفسهم في شأن الامير عبد القادر : فاما الكرغلية فكانوا من مناصريه في أول الأمر ثم انقلبوا ضده، واما طائفة القائد ابن نولة — المغربي الأصل — فثارت عليه في صيف عام 1833/1249 ولم تذعن له إلا كرها. تحفة الزائر — ج 1 — ص. 169 — 170 — 253.

العربية كقبيلتي الدوائر والزمالة ، ولقد ذكر الزعيم الجزائري غير ما مرة في مكاتباته مع العاهل المغربي قيمة الامدادات المتنوعة التي وردت عليه من فاس ونوه بها واعترف بالجميل ، في بادئ الأمر ، بل أكد أنه حمل لواء الجهاد للدفاع عن بيضة المسلمين كخليفة للملك العلوي(11) . ففي الوقت الذي كان يشتكي من عدم اصغاء الملك العثماني لنداءاته رغم الالحاح في طلب المعونة كان يلهج بالشكر والثناء على مولاي عبد الرحمن معترفا له بالفضل والسيادة والعظمة(12) .

ولاشك أن العثمانيين الذين كانوا يجتازون وضعية متدهورة ، داخليا وخارجيا ، لم يكن بوسعهم أن يهتموا بأي شكل من الأشكال بمصير المغرب الأوسط كما بينته بوضوح الرسالة التي أبلغها سكان تلمسان للملك المغربي للرد على العلماء الفاسيين الذين أصدروا فتوى ضد التدخل المغربي المباشر في شؤونهم(13) .

---

(11) Leon Roches. Trente Deux Ans à Travers l'Islam. Vol. 1-p.466.

(12) ورد في رسالة من عبد القادر إلى السلطان العثماني عبد المجيد في تاريخ شوال 1257/دجنبر 1841 :

«... ولحن اسلمنا اخواننا المسلمون وتركونا اسارى في يد العدو، فهم لنا ظالمون، وتبرأ منا من كان قريبا لنا من المملوك ومنعونا شراء ما نتقوى به على الكافر خوفا منه، ومنعونا حتى السلوك.

طلبنا منهم الاعانة بالرجال فلم يقبلوا، واستعدناهم بالأموال فلم يفعلوا، وطلبنا منهم السلف فكان عين المحال، ومنعوا رعاياهم من اعانتنا بكل وجه وحال، فما نفعنا قريب ولا مجاورة ولا دافع عنا ذو سيف ولا مجاور.. تراانا نكرر المكاتب اذ لم ندر ما وصل منها ومن لم يصل إليك. فكم من كتاب كتبناه ولم يأتنا من حضرة سيدنا جواب...

عبد الجليل التميمي — بحوث ووثائق في التاريخ المغربي (1816 — 1871) — ص. 225 — 226.

— وفي 1842/1257 كتب من جديد «... إلى الدولة العثمانية يستنجدها ويخبرها بما وصل إليه حال الوطن الذي هو جزء من ممالكها فلم ترد له جوابا...»

تحفة الزائر — ج 1 — ص. 409.

(13) كان القاضي عبد الهادي بن عبد الله العلوي يترأس مجموعة العلماء المعارضين للتدخل المغربي المباشر في شؤون أهل تلمسان بينما كان القاضي أبو الحسن على القسولي الملقب بامديدش يدعو إلى القيام بواجب الجهاد لحماية بيضة المغرب العربي الكبير ويتولى الاجابة على اسئلة الامير عبد القادر. احمد العماري : المؤثرات الحقيقية وراء موقف المؤرخين الاجانب من التدخل المغربي في=

«...ليعلم سيدنا قطبَ المجد ومركزه ، ومحل الفخر ومحرزه ... وبساط الفضل الشامخ ومجمعه ، السلطان الأعظم الأمجد الأفخم ، نجل الملوك العظام سيدنا ومولانا عبد الرحمن بن هشام ، أبقَى سيدنا للمسلمين ذخرا ، ومنحه مودة وأجرا ان فتوَى ساداتنا علماء فاس مبنية على غير أساس لأنهم اعتقدوا أن في عنقِنا للامام العثماني بيعة وهذا لو صح لكان علينا حجة ، وليس الأمر كذلك ، وإنما له مجرد الاسم هنالك ، وعامل الجزائر انما كان متغلبا وبالدين متلاعبا فأهلكه الله بظلمه وتطاوله على عباد الله وجوره وفسقه ، ان الله يمهل على الظالم حتَّى يأخذه ، فإذا أخذه لم يفلته ، ويدل على تغلبه واستقلاله عدم وقوفه عند أمر العثماني وامتثاله ، بل لا يكترث به أصلا ، ولا يتبع له قولا ولا فعلا ، كيف وقد أمره أن يعقد مع النصارَى صلحا فلم يقبل له قولا ولا نصحا ، وطلب منه بعض الأموال ليستعين بها على ما حل به مع النصارَى من الأهوال فامتنع غاية الامتناع ... هذا وعلى فرض تسليم أن للعثماني في عنقنا بيعة ، فلا تكون علينا حجة لأنه تباعد علينا قطره فلم يغن عنا شيئا ملكه لما بيننا وبينه من المفاوز والقفار والبحار والقرَى والمدن والأمصار ، وربما قرب محله من جهة البحر لكن منعه الآن من ركوبه الكفار ، على أنه ثبت بتواتر الأخبار البالغة حد الكثرة والانتشار انه مشتغل لنفسه ومقره ، عاجز عن الدفع عن ايالته القريبة من محله ...»[14] .

ولذلك لا غرو في أن المغرب كان الملجأ الوحيد للمجاهدين الجزائريين لجلب السلاح والكراع ولجمع الأموال واستنفار المتطوعين ، بل كان يوجد بفاس مبعوث من قبل الأمير عبد القادر يتولى دور السفير لدَى المخزن السلطاني فيطلعه على أحواله ويلتمس منه المساعدات .

■ تلمسان اثر احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830. مجلة كلية الاداب والعلوم الانسانية. فاس — 1980/1979. العدد 2 — 3. ص. — 109.

(14) الاستقصا — ج 9 — ص. 27 — 28.

ففي ذي الحجة عام 1252 / مارس 1837 حين بعث عبد القادر وفدا برآسة ابن عبد الله السقاط إلى المولَى عبد الرحمن لتجديد الصلة بينهما كان الحاج الطالب بن جلون[15] يقوم بهذا الدور إذ أعطَى من الخزينة المغربية عشرة آلاف مثقال «...ليشتري بها من الأدوات الحربية ما يأمره بشرائه ...»[16] فضلا عن التبرعات التي كان يجمعها العلماء والشرفاء والتجار[17] .

وبعد ما حظي الوفد بالحفاوة والتقدير رجع بهدايا سنية تشتمل على «...سبع كسوات فاخرات ، وسبع أفراس من عتاق الخيل بسروجها ، وأربعة مدافع صغار وستين فرسا ...»[18] وبالأجوبة المسهبة للعلماء على الأسئلة التي قدمها الأمير الجزائري في الرسالة الآتية :

«...السادة العلماء الأعلام ، أئمة الهدَى ومصابيح الظلام ، فقهاء الحضرة الادريسية ...

جوابكم ــ أبقاكم الله ــ فيما عظم به الخطب ، واشتد به الكرب في وطن الجزائر ، الذي صار لغربان الكفر مجازر وذلك أن عدو الدين يحاول ملك المسلمين واسترقاقهم آونة بالسيف ، وتارة ، بشبكات السياسة . ومن المسلمين من يداخلهم ويتابعهم ويجلب إليهم المواشي وجياد الخيل وغيرها من أنواع الكراع ، ولا يخلو أمرهم من دلالتهم على عورات المسلمين ، ومن القبائل من يفعل ذلك ، فإذا طولبوا بتعيين المرتكبين منهم جعجعوا وتمالئوا على الكذب والانكار ، مع أنهم يعرفون منهم العين والأثر ، فما حكم الله في الفريقين ؟ أنفسهم وأموالهم !؟ وما الحكم فيمن يتخلف عن

---

(15) Georges Yver. Abdelkader et le Maroc en 1838. Revue Africaine 1919. pp.93 à 111.

(16) تحفة الزائر ــ ج 1. 318.

(17) Ch. A. Julien. Le Maroc Face aux Impérialismes. p.28.

(18) تحفة الزائر ــ ج 1 ــ ص. 318.

المدافعة إذا استنفر الامام أو نائبه ، الناس للدفاع عن الدين والوطن ؟ فهل يعاقبون على ذلك ؟ وبأي شيء يكون عقابهم ؟ ولا يتأتي بغير قتالهم ؟ وهل تؤخذ أموالهم وأسلابهم ؟ وما حكم الله فيمن يمتنع عن أداء الزكاة كلا أو بعضا لدعوَى عدم وجود نصابه عنده مع تحقق وجوده في الحال ...؟»[١٩] .

وإن هذه الرسالة تبين جليا أن المقاومة الباسلة التي قادها المجاهد عبد القادر في وجه المستعمرين والغزاة الفرنسيين والتي كبدت الجانبين خسائر كبيرة في الأرواح والأموال والممتلكات كان لها أعمق الأثر وأشد الضرر على الأهالي ، ولاسيما الرحل منهم ، لأنهم كانوا يشكلون بالنسبة للجانبين الدعامة القوية لوجودهما في ساحة المعركة ، والضمانة الأكيدة لمستقبل المنتصر منهما .

وإذا تتبعنا الحركة البطيئة للزحف الاستعماري في غرب الجزائر نلاحظ أن القبائل أدخلت رغم ارادتها في دوامة التحالف مع أحد الطرفين ، بل أدت الظروف ببعضها إلى اظهار ولائها للمنتصر في إحدَى المعارك مثلما وقع لقبائل الدوائر والزمالة ورياح وهم حوالي ألفي خيمة في 1249 / 1834 إذ دارت بينهم وبين عبد القادر حرب ضروس ثم عاهدوه على الهدنة[٢٠] .

قال صاحب التحفة : «...وتفاوض الخوارج في أمرهم فأشار عليهم رئيس الدوائر مصطفَى بن اسماعيل بأن يلحقوا بالمغرب الأقصَى ويدخلوا في طاعة سلطانه ، وأشار الشيخ ابن الغماري والمازري بالاذعان للأمير قائلين : هو سيدنا وابن سيدنا فإن تقبل توبتنا ورفع قدرنا بين أقراننا فذلك . وإلا فحينئذ ننظر في أمرنا .. واستأمنوا للأمير فبعث إليهم منشور

(19) المصدر السابق، ص. 316 ــ 317.

(20) المصدر السابق، ص. 189 ــ 190.

الأمان ... فاطمأنت قلوبهم وطابت نفوسهم ... وأمرهم بالرحيل إلى قرب تلمسان فامتثلوا وارتحلوا ، وخالفهم ابن اسماعيل ...[21] .

غير أن قبيلة الدوائر تكدر عيشها بأحواز تلمسان فانتقلت إلى ضواحي وهران لتحتمي بالقوات الفرنسية[22] وإذا افترضنا أن القبائل الظاعنة نجحت في المحافظة على مصالحها حين تتحول من معسكر إلى آخر فإنها كانت تجد نفسها مضطرة مهما طال الزمن اما ان تختار حليفها بصفة نهائية أو ان تهجر نحو منطقة لم تتأثر بعد بالأحداث بكيفية مباشرة .

وإذن ، كانت لا تجد مندوحة أمام الهجرة نحو الجنوب أي نحو التخوم الصحراوية أو نحو المغرب الذي كان الملجأ المفضل لديها لعدة اعتبارات :

أولا : توفر الأمن الذي طالما نشدته في وطنها وتريد أن تنعم به مهما بعدت الشقة .

ثانيا : وجود روابط عائلية من باب القرابة والمصاهرة .

ثالثا : العامل الانساني الذي تنسجه الأيام بسبب المعاملات التجارية المتواصلة منذ أقدم العصور .

رابعا : العوامل الحضارية التي ترتكز على الدين واللغة ووحدة الهدف والمصير .

ولقد وردت على المغرب عدة عائلات جزائرية في شكل أفواج متوالية تحت ضغط الأحداث العسكرية والسياسية الناتجة عن الانتكاسات التي أصابت اتباع المجاهد عبد القادر ، منها من استقرت بالحواضر أو البوادي ، ومنها من رجعت إلى ديارها بعد استئمانها من طرف السلطات الفرنسية .

ويمكن أن نميز بينها ثلاثة أفواج مهمة : الفوج الأول تكون من أولاد

---

(21) المصدر السابق، ص. 215 ــ 216.

(22) المصدر السابق، ص. 216.

الصابوني وأولاد ابن مرزوق وأولاد العشعاشي وأولاد امباصو وأولاد المير علي وأولاد مولاي عبد القادر[23] . الفوج الثاني صاحب الأمير عبد القادر في 1843[24] . الفوج الثالث هاجر بسبب الاستيطان الأوربي الذي استحوذ على مساحات زراعية ورعوية شاسعة وبسبب الضرائب الباهضة التي كانت تثقل كاهل الأهالي .

ولاشك أن الاعداد الغفيرة لهؤلاء المهاجرين أثرت على الحياة العامة سواء في الميدان الاجتماعي أو السياسي أو الحضاري . ويجدر بنا أن نطرح الأسئلة التالية :

كيف تم استقبالهم على الصعيد الرسمي والشعبي ؟ هل أدّى تواجدهم إلى احداث مشاكل مع الأهالي الأصليين ؟ وهل المجموعات التي آثرت البقاء في الديار المغربية على الرجوع إلى أوطانها انصهرت في المجتمع أو شكلت اقلية لها خصائصها ومميزاتها ؟

لقد أصدر مولاي عبد الرحمن تعليماته لرجال المخزن لتسهيل استيطان هؤلاء المهاجرين واظهار العناية بهم .

ففي رسالة بتاريخ يوم الثلاثاء 23 جمادَى الأولى 1246 / 9 نونبر 1830 أكد لقائد تطوان أن لا يكلفهم بأية خدمة مدنية أو عسكرية «..فهم أحرار ، ومن أراد من الطبجية أو البحرية أن يدخل مع أهل خطته عن طيب نفس منه فاقبله ، ولا تكره أحدا ، ومن أراد أن يبقَى عند نفسه فهو في سعة ، والتجار وأهل الحرفة كل واحد يشتغل بمعاشه في خدمة خطته وحرفته ...»[25] .

---

(23) في القرن 19 كانت عائلة الشرفاء أولاد مولاي عبد القادر تضم أربعة فروع : اولاد مولاي رشيد الذين جاءوا من مدينة ندرومة، أولاد مولاي عبد القادر التلمسانيين، اولاد مولاي علي الذين هاجروا من منطقة البيض، أولاد عبد الغني البغداديين.

- Cap. Mougin. Les Algériens à Oudjda. L'AF. Rens. Col. 1908. N°8 pp.189 à 194.

(24) المصدر السابق.

(25) مديرية الوثائق الملكية الرباط.

وان هذا الموقف الإنساني والأخوي لم يتبدل ولم يتغير كما تشهد بذلك رسالة ملكية بتاريخ يوم الخميس 11 جمادَى الأولى 1254 / 2 غشت 1838 إلى الموظف الآنف الذكر :

«...فإن أهل الجزائر ناس غرباء اخرجهم العدو الكافر من أرضهم ووطنهم والتجأوا لايالتنا واستظلوا بظل عنايتنا فينبغي أن نؤنس وحشتهم ونعاملهم بما ينسيهم غربتهم لأنهم اخواننا في الدين ... وان نسقط عنهم الكلف والوظائف كلها قلت أو جلت . فلا نترك من يكلفهم بشيء قل أو جل ، وأحسن جوارهم وعاملهم بما يناسب حالهم واظهر اثر العناية بهم والرعاية لهم تطييبا لنفوسهم وجبرا لخواطرهم ...»[26] .

ومن جهة أخرى فإن السلطان المغربي كان يكن للأمير عبد القادر مشاعر الود والتقدير ويحثه على مواصلة المقاومة بكل حزم وثبات ، ويعتز بكل نصر حققه على المعتدين الفرنسيين .

ورد في رسالة بتاريخ أواخر ذي القعدة 1254 / النصف الأول من فبراير 1839 ، عقب المهمة التي أداها أخ القائد الجزائري ، محمد سعيد ، لدَى مولاي عبد الرحمن :

«...محل ولدنا ، الذي نظم به شمل الأمة ... حامي حمَى الإسلام والمسلمين ، الأمير المجاهد ... فقد وافَى حضرتنا الوفد الذي اشخصتموه من بابكم .... وقد وافتنا الهدية التي وجهتم صحبة الوفد الذي اشخصتم ، محفوفة بجميل الآثار ، مكسوة بحلل البر والايثار ، جريا على جميل اعتقادكم ... كثر الله امدادكم ووفر عددكم واعدادكم .... وقد رفعت بك في ذلك القطر راية الإسلام ، وانتظم أمر الخاص والعام .... وارغم بك أهل الكفر وأحزابه ، ورد كيده على اعقابه ، حتَّى صار العدو يخفض لك الجناح ، ويرسم اسمك على السلاح ، وسارت بخبر ذلك

(26) المصدر السابق.

الركبان ، برا وبحرا ، وانا لنرجو فوق ذلك مظهرا ، ولولا وجودك وجدك لتفرقت أشياع تلك القبائل الإسلامية شذر مذر ...»[27] .

وإن الشعور بالانس والكرامة الذي كان يلوح على الديار المغربية والنابع من الحرية الفردية والسيادة الوطنية جعل عددا كبيرا من الجزائريين يستقرون بها ويتعاملون مع أهلها بالحسنَى .

وإذا كانوا ، في بادئ الأمر يسكنون في أحياء جديدة في ضواحي المدن[28] فمع طول المدة انصهروا شيئا فشيئا مع المغاربة ، خصوصا في مدينة وجدة ، حيث كان يوجد في أواخر القرن 19 حوالي 300 عائلة جزائرية موزعة في كل الأحياء ، وجلها ينتمي إلى الطبقة المتوسطة أو الغنية ، لها ممتلكات متنوعة كالحوانيت والفنادق ودور السكنَى وكذلك الحقول المسقية والمزارع البورية التي كانوا يستغلونها بسواعدهم أو بواسطة شريك من الأهالي .

فمن الأسماء الشهيرة بالثروة في الميدان التجاري أو الزراعي أو الاثنين معا نذكر الحاج محمد بن محمد الصابوني ومحمد بن أحمد النكروفي ومحمد ابن المير علي وأولاد ابن حمادي دندان ومولاي علي ولد مولاي سعيد ولخطيب والعربي بن مرزوق وابن سالم فاصلة[29] وأولاد الطيب بن مصطفَى وأحمد بن محمد بن التهامي والقاضي الحاج العربي بن لحبيب .

تضاف إليهم العناصر المثقفة المرموقة كالقاضي الهاشمي بن بومدين بروكشن ومحمد الوالي الذي كان كاتبا خاصا (خوجة) للعامل أحمد بن كروم ، والفقهاء أحمد بن عبد القادر بن الطيب وأحمد بن عبد القادر

---

(27) تحفة الزائر — ج 1 — ص. 339 إلى 341.

(28) Roger Le Tourneau. La Vie Quotidienne à Fès en 1900. p.33;

(29) ان ابن سالم فاصلة كان أول من فتح بمدينة وجدة مطحنة عصرية تستعمل جهازا بالبترول.
- Cap. Mougin. L'AF. Rens. Col. 1908. N°8 op.cit. p.190

ابن الطاهر. أما الحرفيون الجزائريون فكانوا يزاولون كل أنواع الأنشطة التقليدية كالخياطة والحدادة والنجارة وصناعة النسيج والأحذية وإصلاح الأسلحة ...

ورغم انصهارهم في الحياة العامة مع السكان الأصليين فان أهميتهم الاقتصادية والاجتماعية والدينية جعلتهم يحتفظون بميزة خاصة تتمثل في تعيين من يمثلهم من الأعيان كالتجار والعلماء لدَى الإدارة المخزنية لفض نزاعاتهم وتقديم متمنياتهم في الأعياد الدينية والاستقبالات الرسمية.

فجماعتهم كانت تضم وقتئذ خمسة أعيان : علي بن عبو ، الحاج عبد القادر بن الكندوز ، محمد بن العربي ، محمد بن التهامي ، محمد بن أحمد الهاشمي[30].

2 - وقعة اسلي : 29 رجب 1260 / 14 - 8 - 1844.

ا) الأحداث التي وقعت قبل المعركة :

إن المراحل التي قطعتها المقاومة الشعبية التي استقطبها الأمير عبد القادر أمام التغلغل الاستعماري في الديار الإسلامية الجزائرية والنتائج المترتبة عنها أحدثت تغييرات خطيرة ومعقدة في مقتضيات العلاقات المغربية الفرنسية من جراء العوامل الآتية :

أولا : نزوح عدد كبير من الجزائريين نحو المغرب قصد الاستقرار النهائي أو المرحلي حفاظا على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم.

ثانيا : تقهقر المقاومين الجزائريين أمام الجيش الفرنسي في 1843 من الغرب الجزائري إلى شرق المغرب لمواصلة الكفاح اعتمادا على مساندة المملكة المغربية بالعتاد والمال والرجال اعتبارا للعامل الآنف الذكر.

ثالثا : رغبة الفرنسيين في رسم حدود رسمية لمستعمرتهم الجديدة

(30) المصدر السابق. ص. 190 إلى 192.

خصوصا مع المغرب الشرقي بعد أن وطدوا وجودهم بالجيوش الجرارة والاضطهاد والنهب والقتل والسلب وبعد أن دفعوا جيش عبد القادر وراء وادي تافنا في التراب المغربي لمحاصرته وعزله عن مناصريه الجزائريين.

وحين شعر الملك مولاي عبد الرحمن بازدياد الضغوط الفرنسية على الأهالي في المناطق الشرقية وبالأخطار المحدقة بالسيادة الوطنية صمم العزم على مواجهة الموقف بالتدخل المباشر للقوات المغربية واعلان الجهاد ضد الغزاة الكافرين.

ففي 4 ربيع الثاني 1258 / 15 ـ 5 ـ 1842 أخبر ولي عهده سيدي محمد بما يلي:

«...ولدنا الأبر الأرضَى سيدي محمد أصلحك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد فتصلك كتب فيها أخبار المسلمين مع العدو الكافر قصمه الله بناحية الشرق وغيره، وجهناها لك لتطلع على ما فيها وتعلم حقيقتها، فإن الأعداء أهلكهم الله حسبوا كل بيضاء شحمة وقويت أطماعهم ومنتهم أنفسهم، وهموا بما لم ينالوا، ولما استولوا على تلمسان ورأوا ما عليه أهل حوزها من التواكل والتخاذل والفشل والرعب منه والفرار أمامه، ظنوا أن هذه الناحية مثل تلك، وأرادوا تعدي الحدود ومد الأيدي إلى الايالة، واعملوا الوجهة لها بعد الوجهة الأولى التي لم يحضر هناك أحد من الجيش، فلما دنوا وجدوا المخازنية أمامهم في شرذمة فثبتوا وناوشهم خيل المتنصرة القتال فردوهم على أعقابهم، فخشي العدو على نفسه وفر ليلا، ولما عاين من نجدتهم وثباتهم ما لا قبل له به وتخلف ظنه كتب لطاغيته بذلك وأرادوا اعمال التمويه والتلبيس ونصب المكائد بالتخيلات والأوهام، فظهرت بعض قراصينهم بنواحي طنجة والعرائش فأمرنا جميع القبائل باظهار القوة والاستظهار بالعدة والعدد ليرَى من ذلك ما يسوءه ولبلغ الشاهد الغائب، ولا ينبغي الا ذلك،

فإنه ، دمره الله ، صاحب غدر ومكر وتلبيس ، لا تؤمن غوائله ولا تنقضي حيله ومكائده ، فلتكتب لعمال الثغور وعمال القبائل الموالية لها باضهار القوة الإسلامية والجيوش الايمانية وعمارة السواحل بالخيل والرماة والاستظهار بالعدة وكثرة العدد فإن ذلك مما يقوي سواد المسلمين ويفت في اعضاد الكافرين ، فقد قال الله تعالى ليغيض بهم الكفار ،.. وان تامر خديمنا عبد الله أبه وسليمان بن الطاهر بحشد عديد قبائلها خيلا ورماة للصويرة وعمارة ساحتها بلعب البارود وغيره مما يغيض العدو ، ويقيمون يومين أو ثلاثة وبعد ذلك ينصرف الجل ويبقَى البعض ، ويجعلون عمارة ذلك الثغور مناوبة إذا توجهت طائفة وردت أخرى ، وأمر ابن الغنيمي بفعل مثل ذلك بأسفي ، وابن ابراهيم يفعل ذلك في فحص المجاهدين ... فإن ذلك مما يغيض الكفار ويفت في اعضادهم ويرهب المشركين ويرعبهم ، وفيه مغفرة الله ورضوانه ... ولتأمر عمال الثغور الصويرة وأسفي والجديدة وآزمور بمباشرة آلة الحرب ونصبها على كراريطها في مواضعها ووضع الإقامة حذوها وإصلاح ما احتاج إلى الاصلاح من ذلك وتهيئته ليبلغ العدو من ذلك ما يغيضه ويسوءه فإنه أهلكه الله عين واذن على ما يتجدد من ذلك ولا يغيب عنه شيء منه ....[31] .

وفي الوقت الذي كانت الاستعدادات تجري على قدم وساق من الجانبين والامدادات تساق إلى المنطقة الحساسة أقدمت السلطات الفرنسية على ارتكاب أول خطوة عدوانية على التراب الوطني حين استولَى الجنرال

---

(31) عبد الرحمن بن زيدان ــ اتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس ــ ج 5 ــ ص. 44 إلى 46.

ــ ردا على اقتراح عامل اقليم وجدة، على بن الطيب لكناوي في 17 ــ 4 ــ 1844 مفاده انه يجب الحصول على موافقة الملك المغربي لبناء مركز عسكري بللا مغنية قال لا موريسيير بان هذا الموقع يوجد بالتراب الجزائري.

- Albert Latreille - La Campagne de 1844 au Maroc. La Bataille d'Isly. 21.

Lamoriciere على قرية للا مغنية في صفر 1260 / أبريل 1844 بخمسة آلاف جندي معززين بثمانية مدافع ليؤسس بها قاعدة عسكرية أمامية محصنة بخندق عرضه أربعة أمتار وعمقه متران ، على بعد أقل من 30 كلم من وجدة وستين كلم من تلمسان ، وعشرون كلم من ندرومة ، لمراقبة التحركات المغربية التي أخذت شكل تجمعات كبيرة للمتطوعين الذين جاءوا من كل حدب وصوب ، ومن قبائل بني يزناسن ولمهاية وأنجاد وغيرها لمؤازرة المحال المخزنية التي رابطت هناك استجابة للدعوة إلى الجهاد في سبيل الله والدفاع عن الوطن التي رددها الفقهاء والعلماء وشيوخ الطرق في المساجد والزوايا والرباطات(32) .

وقد نتساءل عن أهمية الوسائل التي أعدت لمواجهة التحديات الاستعمارية :

هل كان الهدف منها ارهاب العدو ليعدل عن مخططه العدواني أو لتعزيز الاحتجاجات المغربية لدَى الحكومة الفرنسية ؟ أو لمعرفة مدَى التجاوب بين الحاكم والمحكومين في الحالات الحالكة التي تستنفر فيها الطاقات الشعبية ؟ أم كان يقصد منها الدخول في معركة حاسمة مع جيش المارشال Bugeaud لتتجلى صحة تواطؤه مع حكومة باريس ؟

يبدو أن هذه الاعتبارات دخلت في حساب العاهل المغربي قبيل وقعة اسلي إذ نراه في رسالة بتاريخ 16 أبريل 1844 / أواخر ربيع الأول 1260 يحث قائد المحلة بوجدة ، العربي بن محمد الرحماني لقبيبي ، على مواجهة العدوان بحزم وقوة في انتظار الامدادات التي وجهت إليه ،

---

(32) General Comte de Martimprey. Souvenirs d'un Officier d'Etat-Major. pp. 187-189.
- L. Voinot. Oudjda ... p. 463.
- P. de Cosse Brissac. Les Rapports de la France et du Maroc pdt la C. de l'Algerie. pp.78-79.

ويوصيه بعدم التفاوض مع الفرنسيين في شأن عبد القادر الجزائري[33] . وان ضخامة القوات التي تمركزت على مقربة من هذه المدينة في ماي 1844 توحي بأنها كانت على أهبة تامة للمعركة الفاصلة إذ كانت تتشكل من أكثر من عشرة آلاف جندي ، ربع هذا العدد من فرسان جلهم من عبيد البخاري ومن راجلين ، أي من الجنود النظاميين ، والعدد الباقي من المتطوعين من قبائل شرق المغرب .

ولا ننسَى أنه كان يمكن الاعتماد على فرقة الأمير الجزائري التي كانت تضم ثلاثمائة من المشاة وخمسمائة فارس لولا أنه فضل أن ينهج سياسة الانتظار والحذر إزاء تحركات القوات المغربية والفرنسية لأنه حسب قول الناصري : «...فسدت نيته ... في السلطان وفي الجهاد مع أنه ما كان لجهاده ثمرة ، ورام الاستقلال وأخذ في استفساد القبائل الذين هنالك وتحقق السلطان بأمره ...»[34] .

وعلى أية حال ، فالاستعدادات العسكرية المغربية تفسر تخوفات الجنرال Lamoriciere الذي كان لا يتوفر إلا على 3800 من المشاة زائد 650 من الخيالة وثمانية مدافع مما جعله يلح على Bugeaud ليمده بقوات إضافية تفاديا لهجوم خاطف من جانب المغاربة[35] .

وفي رسالة بتاريخ 22 ماي 1844 طلب عامل إقليم وجدة ، علي بن الطيب الكناوي من لاموريسيير أن ينسحب من قلعته فأصر على موقفه متذرعا بانتظار نتائج الاتصالات بين الحكومتين المعنيتين بهذه القضية ، بل واصل استفزازاته بالاغارات المتكررة والسريعة في سهل أنجاد لنهب

---

(33) Ibid. p. 643.
- L. Roches. op.cit. pp.481-482.
- Amae. Paris. Mémoires et Documents. (Maroc).

(34) الاستقصا — ج 9 — ص. 50.

(35) L. Voinot. Oudjda ... p. 464.
— A. Latreille. op.cit. p.29.

المحاصيل الزراعية قبل حصدها من طرف الأهالي مما زاد في حرجهم وتذمرهم[36] .

وفي 30 ماي 1844 قدم إلى وجدة مولاي المامون بن الشريف ، ابن عم مولاي عبد الرحمن ، صحبة كتيبة مؤلفة من 500 من المشاة فأبَى الا أن يطلع فورا على معسكر العدو واشتبك في الظهيرة مع فرقتين للجنرالين لاموريسيير وبيدو قرب مجرى وادي مويلح ثم قفل راجعا إلى وجدة[37] .

وإن هذه الأحداث اقنعت العدو بإرادة المغاربة في الدفاع عن أراضيهم وسيادتهم فلجأ كعادته إلى أسلوب التفاوض ريثما يأتي الماريشال Bugeaud بحشود هائلة من الجنود لاذكاء حماسهم — من جهة — وليضع الحكومة الفرنسية أمام الأمر الواقع الذي لا محيد عنه — من جهة أخرى — لأنه كان يستهدف في الحقيقة احتلال مناطق شاسعة من التراب الوطني لضمها للمستعمرة الجزائرية[38] .

وبالفعل ، قد انساقت الحكومة الفرنسية في سياسة الدوائر العسكرية لاظهار القوة للجانب المغربي ، فارسلت قوات إضافية إلى الجزائر وأصدرت الأوامر لقطاع من أسطول الأمير جوانفيل بالظهور أمام المراسي المغربية الغربية تمهيدا لعمليات حربية مرتقبة[39] .

وفي 15 يونيو 1844 التقَى علي بن الطيب لكناوي بالجنرال

---

(36) Ibid. pp.28-30-31.
- L. Voinot. Oudjda ... p.464.

(37) Ibid. p.465.
- A. Latreille. op.cit. pp. 35 à 37.
- P. C. Brissac. op.cit. p.79.
- G.C. de Martimprey. op.cit. pp.192-193.

الاستقصا — ج 9 — ص. 50.

(38) Archives de Vincennes.
- A. Latreille. op.cit. pp. 92-93. Lettre de Bugeaud à Joinville. 3-7-1844.

(39) M.Guizot. Mémoires pour Servir à l'Histoire de Mon Temps. Tome 7.p. 149.

Bedeau بمحضر المترجم Roches ، في ظل اشجار البطوم المحيطة بضريح سيدي محمد الواسيني ، غربي للا مغنية ، ليؤكد له مرة أخرى المبادئ الثلاثة التي ستضمن حسن الجوار بين الطرفين وهي :

- احترام الحد الفاصل بين المغرب والجزائر والمتمثل في وادي تافنا .
- ضرورة انسحاب القوات الفرنسية من للا مغنية .
- عدم التفاوض في شأن عبد القادر الجزائري .

وبينما كان الوفدان محفوفين بحشود عسكرية حافلة ويتذاكران في الحلول السلمية للمشاكل المطروحة اندفعت الحاشية المغربية حولها وبلغ الحماس بها كل مبلغ فاطلقت البارود ، وتعالت الأصوات بالشتم والقذف إزاء الفرنسيين ، الشيء الذي أدّى إلى تدخل كتائب الماريشال بيجو ، فاندلعت معركة عنيفة استمرت بضع ساعات وشبت النيران في المزارع بكثرة البارود فابتلعت بعض الجنود المثخنين بالجراح[40] .

وفي اليوم الموالي توصل عامل وجدة برسالة من بيجو كلها وعيد وتهديد بإحراق الحرث والنسل والمدن والقرَى ، ومن جملة ما ورد فيها :

سيكون لي الحق في التدخل في بلاد سيدك لاحراق المدن والقرَى والمحاصيل الزراعية ... وسأكتفي بالدخول إلى وجدة ... لأقنع القبائل المهاجرة (الجزائرية) بأنها في قبضتي في كل مكان ، وبأنني قادر على ارجاعها إلى الطاعة بشتّى الوسائل ...[41] .

---

(40) L. Roches. op.cit. pp. 374 à 377.
- A. Latreille. op.cit. pp. 52 à 58.
- G. c. Martimprey. op.cit. pp. 194 à 197.
- Christian Pitois. Souvenirs du Maréchal Bugeaud, de l'Algérie et du Maroc. Volume 2.pp. 229 à 231.

(41) Le Comte H. d'Ideville. Le Maréchal Bugeaud d'après sa correspondance intime et des Documents Inédits. (1784-1849).
Vol. 2. pp. 501-503. ترجمة المؤلف
- A. Latreille. op.cit. p. 65.

وكان باستطاعته أن يحقق فورا ما وعد به لولا الرياح العاتية التي هبت طيلة ثلاثة أيام ، وفي 19 يونيو توجه بكرة صوب وجدة بجيش قوامه ثمانية آلاف رجل فعسكر فيها وفي ضواحي ضريح سيدي يحيَى ، إلا أنه وجد المدينة شبه خالية من سكانها بما فيهم عاملها ، ولم يستقبل إلا من طرف جماعة من الأعيان على رأسهم عبد الله بن يعقوب ، لكنه رغم أن وجوده هناك لم يدم إلا يومين فقد حقق بعض أهدافه إذ أرغم حوالي 1500 جزائري على الرجوع إلى وطنهم ونهب الأموال والذخائر العسكرية وبث الخوف والجزع في قلوب الناس خاصة لما احرق بعض القرَى بجبال الزكارة ، فأحدث ذلك ارتباكا كبيرا في الحياة الاقتصادية والاجتماعية لحاضرة شرق المغرب (42)

وأمام هذه الوضعية الخطيرة والمؤلمة لاشك أن الناس تساءلوا وقتئذ عن الأسباب التي جعلت القوات المغربية تترك الميدان فسيحا للعدو :

فهل كان موقفها يرتكز على خطة مدروسة وحكيمة لتوريط المعتدين أكثر فأكثر في التراب الوطني للانقضاض عليهم في الوقت المواتي ؟ أو للفت أنظار دولة عظمَى مثل انجلترا لتضغط على فرنسا كي تتخلى عن أطماعها الاستعمارية ؟

أم كان يقوم على معطيات دبلوماسية تفرض تجنب اصطدام مسلح مع الفرنسيين ؟

أم هل كان يفرض الموقف انتظار وصول امدادات عسكرية أخرى وتعليمات واضحة من الادارة المركزية ؟

---

(42) Ibid. pp. 66 à 69.
- Christian P.op.cit. p.241.
- C.H. d'Ideville. op.cit. p. 510.
- Campagnes d'Afrique (1835-1848). Lettres adressées au Maréchal De Castellane par les Maréchaux Bugeaud, Clauzel ... p.360.

فإننا نميل إلى الاحتمال الثالث لأن الدولة التي كانت حريصة أكثر من غيرها على الاستقرار السياسي في المغرب والتي كانت من بين الدول الأوربية تربطها علاقات ودية متينة بحكومته – وهي انجلترا – كانت دائما توصي السلطان مولاي عبد الرحمن على لسان قنصلها John Drummond Hay بالتزام سياسة سلمية مع فرنسا وأن «...يتصرف بحكمة ويبذل أقصى جهده لمنع رعاياه من القيام بأي دور في الصراع القائم بين عبد القادر والفرنسيين...»[43] .

ومن انعكاسات هذا الاعتبار على مجريات الصراع في شرق المغرب أنه لم يزد في سياسة فرنسا إلا تصلبا وتعنتا وفي اطماعها الا شراسة والحاحا فرفضت وساطة انجلترا في النزاع وطلب القنصل De Nyon من الوزير الكبير محمد بن ادريس تسريح القوات المرابطة بوجدة وعزل القواد الذين تسببوا في احداث 15 يونيو 1844 وابعاد عبد القادر عن المنطقة[44] .

أما الاحتجاجات المغربية لدى حكومة باريس فلم تلق آذانا صاغية لأن الهيمنة الاستعمارية كان يحيك معالمها ووسائلها وأهدافها حاكم الجزائر المارشال بيجو بناء على اظهار القوة العسكرية باستمرار لتسجيل اسمه في سجل الخالدين قبل إحالته على التقاعد[45] . ولذلك توالت اعتداءاته : ففي 3 يوليوز 1844 توغل جيشه على الضفة اليمنى لوادي اسلي لاعتراض

---

(43) بيج – روجرز – تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية حتى عام 1900 ص. 198.

(44) المصدر السابق. ص. 200.

Marcel Emerit - Le Conflit Franco-Marocain de 1844 d'après les Notes de Warnier. Revue Africaine 1950. pp. 404-406.
- M.Guizot. op.cit. pp.147-148.
- Colonel Reyniers - Les Pourparlers Franco-Marocains à la veille de la Bataille de l'Isly. Revue Historique. 1958. pp. 95-96.

(45) لصد الهجومات العدوانية المرتقبة وصلت إلى وجدة في أواخر يونيو 1844 امدادات مهمة، وكانت تتكون من الجنود النظاميين ومن متطوعي القبائل بحيث أنها كانت تشكل تجمعات هائلة في بسيط انكاد بين جبال بني يزناسن وجبال الزكارة.

- Lyoinot. Oudjda... pp. 473 - 474.
- A. Latreille. op.cit. p. 76.

دورية مغربية مؤلفة من أربعة آلاف فارس وألف من المشاة ، وتمكن بفضل تفوق مدفعيته أن يتقدم إلى ضواحي وجدة فتمركز في المرس الأكحل قرب الجرف الأخضر ثم تراجع إلى قواعده[46] .

وفي الفترة 9 — 13 يوليوز أعاد الكرة بنفس الخطة فنهب المطامير حيثما وجدت ، لكنه لقي مقاومة عنيفة على طول وادي إسلي ، ثم في 14 — 15 يوليوز وصل إلى ناحية كنفودة في قبيلة بني يعلة حيث خابت آماله وتفشت في جنوده الأمراض الفتاكة بسبب حرارة الجو المرتفعة[47] .

وإن كل هذه التحركات من جانب بيجو ولو أنها لم تحدث الإرتباك المنشود ضمن القوات المغربية إلا أنها حققت مقصدين اثنين :

— **المقصد الأول** : شل حركة عبد القادر أو بالأحرَى عزله عن الجيش المغربي إذ اجريت مفاوضات معه بواسطة خليفته البوحميدي والمترجم روش في 11 يوليوز بناحية سيدي موسَى ، من أجل ابرام هدنة قد تتحول إلى معاهدة بعد أن عبر عن رغبته في انهاء الحرب ضد الفرنسيين وقد أعطيت له ضمانات بتسهيل إقامته بالديار الحجازية المقدسة مع 300 من رفقائه[48] .

— **المقصد الثاني** : استمالة العامل أحميدة بن علي الذي خلف علي ابن الطيب لكناوي إلى وجهة نظر المعتدين لارغام عبد القادر على الابتعاد من منطقة الحدود المغربية الجزائرية[49] .

---

(46) Ibid. pp. 76 à 78.
- L. Voinot. Oudjda ... p. 473.

(47) Ibid. pp. 475-476.
— A. Latreille. op.cit. 85 à 89.

(48) Ibid. pp. 90 à 92.
- L.Roches. op.cit. pp. 382 à 389.
- L.Voinot. Oudjda.. op.cit. pp. 474-475.

(49) Ibid. p.477.

وبما أن الحالة كانت تستفحل يوما بعد يوم فقد كانت تتوارد تعزيزات عسكرية على شرق المغرب للدفاع عن السيادة الوطنية تلبية لنداء الاستنفار العام الذي جاء صداه في القصيدة التالية للوزير محمد بن ادريس :

يا أهل مغربنا حق النفير لكم
إلى الجهاد فما في الحق من غلط
فالشرك من جنبات الشرق جاوركم
من بعد ما سام أهل الدين بالشطط
...فواتح المكر تبدو من خواتمه
فعنده المكر والمكروه في نمط
من جاور الشر لا يعدم بوائقه
كيف الحياة مع الحياة في سفط (50)

وفي يوليوز 1844 عين المولى عبد الرحمن ولي عهده سيدي محمد ــ الذي كان يناهز عمره 25 سنة ــ قائدا على المحلة التي انطلقت من مراكش نحو وجدة والتي كانت كلما طوت مرحلة انضم إليها عدد من المتطوعة ، وقبل أن تصل إلى هناك توصل هذا الأمير بتوجيهات تفيد بأن المساعي الدبلوماسية بين الحكومتين المغربية والفرنسية كانت قاب قوسين من تحقيق اتفاق لفض النزاع حيث أن العاهل المغربي قبل أن يعاقب القواد الذين تسببوا في الاعتداءات الفرنسية على التراب المغربي مقابل عزل المارشال بيجو ، لكنه استنكف عن ارغام المهاجرين الجزائريين على الرجوع إلى بلادهم (51) .

بالإضافة إلى ذلك ورد في الرسالتين المؤرختين في 15 ــ 18 يوليوز

(50) الاستقصا ــ ج 9 ــ ط. 50

(51) L.Voinot. Oudjda ... op.cit. p.478.
— L.Roches. Vol. 2. op.cit. 482 à 484. Lettre Royale au Prince Mohamed : du 15/7/1844. (Fin Joumada 2, 1260).

الموجهتين إلى الأمير محمد بان أباه كان على بينة تامة من المعطيات الآتية :

- تفوق الجيش الفرنسي من حيث العدد الذي قدر بأكثر من مائة ألف جندي .
- ضعف إيمان وعزيمة جنوده رغم وفرة عددهم وعدتهم .
- خطورة الموقف إذ أن الأساطيل الحربية لكل من فرنسا والسويد والدانمارك(52) كانت تتحين الفرصة لقنبلة المراسي الرئيسية كطنجة والصويرة .. لتقليص موارد الخزينة المغربية(53) .

غير أن هذا لا يعني أنه كان يميل إلى موقف استسلامي يعود على الوطن بالذلة والمسكنة حالا ومستقبلا مما جعله يؤكد في مراسلات أخرى مؤرخة في 20 — 25 — 28 يوليوز على واجب الجهاد في سبيل الله والوطن(54) .

أما الجانب الفرنسي فقد كان يضاعف اعتداءاته ، تارة بالضغوط الدبلوماسية المتشددة على لسان دونيو ، وتارة باظهار 28 باخرة حربية بقيادة الأمير جوانفيل ابن الملك Louis Philippe ، في مياه مضيق جبل طارق(55) وتارة أخرَى باغارات جحافل بيجو على قبائل شرق المغرب(56) .

---

(52) ان دولتي السويد والدانمارك كانتا تطالبان بإلغاء الضريبة السنوية التي كانتا تؤديانها للمغرب، وقد الغيت بالفعل بعد وقعة اسلي. الاستقصا — ج 9 — ص. 53.

(53) L. Roches. Vo. 2. op.cit. pp.482 à 486.
L. Voinot. Oudjda ... op.cit. p.478.

(54) Ibid. pp. 478-479.
L. Roches. Vol. 2. op.cit. pp. 486 à 490.

(55) A. Latreille. op.cit. pp.126-127.

(56) ان الرسائل المتبادلة بين بيجو وجوانفيل والاتصالات بينهما بميناء مرسى الكبير بالجزائر في يونيو 1844 تثبت بأن المخطط العدواني على السيادة المغربية كان يعتمد على التنسيق المحكم والتعاون الوثيق بينهما لتحقيق النتائج المرجوة في أسرع وقت ودون كبير عناء.

M. Guizot. op.cit. p.159.
Prince de Joinville. Vieux Souvenirs. (1818-1848). p.387.
L. Voinot. Oudjda ... op.cit. 476 à 479.

وان ما تضمنته الرسالة التي بعثها الأمير محمد لأبيه قبيل معركة إسلي بأقل من عشرة أيام لتبين لنا مدَى تباين موقف الجانبين ، احدهما مصمم على العدوان وتجاوز الحدود ، والآخر مستعد لبذل النفس والنفيس للتصدي للمعتدين وردهم على أعقابهم :

«...بعد تقبيل حاشية البساط الشريف وأداء ما يجب بين يدي سيدنا أيده الله من التبجيل والتعظيم والتشريف يكون في علم مولانا أيده الله أنا حللنا بعيون سيدي ملوك حلول عز ويمن وسعادة بوجود مولانا أدام الله وجوده ونصر اعلامه وجنوده ، وتلقتنا بها قبائل انكاد بعطاطيشهم وأظهرت من الفرح والسرور بمحال سيدنا أيده الله ما لم يعهد منها ، وسكنت أنفسهم واطمأنت ، وزال عنهم ما كانوا فيه من الخوف والجزع والروع والفزع بسبب فعل ابن الكناوي ، وانحاشت إلى عاملها الطالب احميدة الشجعي ، وانتظم شملها وما بقي منها من تطمح عينه للعدو الكافر بوجه ولا بحال ، كما تلقانا بتازة أخوال سيدنا الكرارمة في أحسن زي وأعجبه بعطاطيشهم أيضا ، وقاموا بمؤنة المحلة أحسن قيام ، وصحبتنا كافة فرسانهم ورجالاتهم وجميع أعرابهم ، وما تخلى أحد عنا من هؤلاء القبائل المعتبرة ولا أظهرت عجزا ولا تكاسلا ، وقد اجتمع من القبائل الصحراوية أيضا خلق كثير ، لله الحمد وله المنة ، والمسلمون الآن في غاية الظهور ، والعدو من أجل ذلك ينادي بالويل والثبور ، هذا وقد بلغتني كتب سيدنا أيده الله ونصره في شأن العدو الكافر الذي جعل طنجة نصب عينيه ، واستفدت منها ما حدث بطنجة من الهرج ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، نسئل الله ببركة سيدنا ان يجبر صدع الإسلام ويكسر شوكة عبدة الأصنام ، والمحال التي هنا في غاية النشاط والسرور والانبساط ، وما لحقتها خصاصة ولا تلحقها بحول الله وبركة سيدنا ووجوده أيده الله .

والسيد عبد القادر بن محيي الدين تأخر بمن معه لملوية بالطف إشارة

وأوجز عبارة من الطالب حميدة والشيخ حمدون بامرنا وإشارتنا ، فلم يبق للكافر الآن ما يعتذر به من جهته ، والذي حققناه ان هذا العدو لا يقنع بتأخير السيد عبد القادر ولا بكل ما يفعل معه إذ لازال مصمما مع ضعفه الآن بالنسبة للمسلمين المجتمعين هنا على تعدي طوره، ان وجد إليه سبيلا ، وقد خوطب من قبل الطالب حميدة بنص ما في التقييدة الواصلة في طي هذا الكتاب فأجاب بالامتناع من الخروج من مغنية ، والمتعين خروجه منها إذ ليس في بقائه بها إلا الفساد ورد هؤلاء القبائل للخوض والعناد ، فيتعين اشتراط الخروج عليه منها عند عقد الصلح معه وإلا فلا يتم كلامه ولا تحسم مادته ولا ينقطع تشوف من في قلبه مرض إليه ولا يستقيم مع بقائه بها أمر من أمور هذه النواحي ، وهذه القبائل عزمت على الزحف عليه واخراجه منها واعمال موجبات التضييق عليه من قطع الماء عنه وأخذ من خرج منها ومنع من يريد الدخول إليه حتّى لا يقر له بها قرار ويطلب النجاة بنفسه والفرار ، وإن تماديه على البقاء بها مع توفر أسباب إخراجه منها الآن وذهبت هذه الجموع وبقي بها مد يده بل ورجله وملك ما شاء من قرَى وأمصار ، وصدر منه ما لم يصدر منه في عصر من الأعصار ، فلا ينفع معه إلا الجد ، ولا يخدع سيدنا بابقاء عسته بها أي بمغنية فإنه يترك بها محلة لا عسة ، وحاصله مكائده لا يحدها حد ولا تدخل تحت عد ، وما رضي أحد من هذه القبائل بابقائه بها خوفا من غدره وجسارته ومكره ان تفرقت هذه الجموع ، وكذا الحراك قالوا ان رجعنا وأبقينا هذا الكافر بمحله ذهب عملنا وظهر له فشلنا ، والله يبارك في عمر سيدي ، آمين ، والسلام ...»[57] .

---

(57) I. Hamet. op.cit. 104 à 106.
اتحاف اعلام الناس ... ص. 53 — 54 (المراسلة في 20 رجب 5/1260 غشت 1844).

ب) اليوم المشهود :

لما وصل الأمير محمد إلى ضواحي وجدة يوم 6 غشت رتب محلته على ضفتي وادي إسلي في مواقع مواتية للتصدي للهجومات العدوانية المرتقبة .

ونظرا لكثرة المحاربين المحترفين الذين كان عددهم يناهز 30 ألف رجل[58] فقد وزعهم على عدة معسكرات بسهل أنجاد بين مرتفعات جبل حمرا وتلل وشعب وادي اسلي ، بالإضافة إلى الفرق الجهادية التي كان على رأسها قواد القبائل ، القائد حمدون على رأس الأحلاف ...[59] .

وكان المركز القيادي في شكل خيمة كبيرة مسورة بافراك على ربوة تحمل اسم فات لمزايدة[60] يبلغ ارتفاعها 611م ، على بعد كلمترين جنوب مرتفع اسلي ، قرب الضفة اليمنى ومحج السلطان .

أما بيجو فقد أكد عزمه على التمادي في استفزازاته في رسالة إلى الأمير المغربي بتاريخ 6 غشت قائلا له :

«...انها المرة الأخيرة التي ألتمس منك ردا شافيا وصريحا حول الشرطين اللذين وضعتهما كأساس لسلم متين بيننا ، وهما :

- الاعتراف بالحدود المغربية الجزائرية السائدة في عهد الأتراك .
- ابعاد عبد القادر من المنطقة .

وإذا لم أتوصل بالرد الشافي في ظرف أربعة أيام سأتقدم بجيشي

---

(58) تختلف الروايات في عدد المقاتلين المغاربة وتقدرهم بحوالي أربعين أو خمسين الفا.
- A. Latreille. op.cit. p.130
- L. Roches. Vol. 2. op.cit. pp. 392-393.
ولا شك أن هذه التقديرات اخذت بعين الاعتبار أعداد المرافقين من تجار ومعاونين خصوصا في فصل الصيف الشديد الحرارة.

(59) الاستقصا ــ ج 9 ــ ص. 50 ــ 51. - Arch. de Vincennes.

(60) رواية الحاج محمد بن محمد بن أحمد الذي بلغ من العمر أكثر من 100 سنة. انظر الهامش رقم 75.

لأطالب به ، وتحدوني رغبة في المحافظة على السلم[61]» .

ونستشف من الفقرة الأخيرة أن بيجو كان يستعمل أسلوب التمويه والمخادعة إزاء الخصم ليفاجئه في ساحة الوغي .

وفي صبيحة هذا اليوم تصاعد العدوان الفرنسي حين رجم أسطول جوانفيل ابراج وأسوار مدينة طنجة بوابل مكثف من القنابل من الساعة الثامنة إلى الحادية عشرة ، ثم توجه إلى ميناء الصويرة ، فحاصرها في 11 غشت لكنه لم يتمكن من قنبلتها بسبب عاصفة هوجاء حولت البحر إلى أمواج متلاطمة ، ثم رجمها رجما فظيعا في 15 غشت ثم احتلها وفتك بأهلها ونهبها ثم اضرم بها حريقا دام أسبوعا كاملا[62] .

ولاشك أن هذه الأحداث مهدت السبيل لقوات بيجو فاذكت حماسهم ليكونوا سباقين لنيل شرف جليل في معركة خاطفة ضد جيش الأمير محمد .

أما هذا الأخير ، فمن المحتمل ان اعتداء جوانفيل على طنجة جعله ينتظر نتيجة المفاوضات الدبلوماسية التي كانت مستمرة لاسيما وان جيش بيجو انسحب من للا مغنية ليختفي في الغابة الممتدة على ضفتي وادي وردفو حيث ناوشته كتيبة من الفرسان المغاربة في 10 غشت[63] .

إلا أنه يصعب أن نصدق رواية فوانو[64] بأن معركة اسلي التي اندلعت في 14 غشت فاجأت المغاربة في بادئ الأمر ، فالناصري أقرب إلى الصواب حين يقول :

---

(61) L. Roches. Vol. 2. op.cit. pp. 393-394.

(62) Prince de Joinville. op.cit. pp. 393 à 397.
الاستقصا — ج 9 — ص. 53.

(63) L. Voinot. Oudjda ... op.cit. p.481.

(64) Ibid. p.489.

خريطة لـلا مغنية إلى وجدة

«...ولما كانت الليلة التي وقعت الحرب صبيحتها جاء رجلان من أعراب تلك الناحية وطلبوا الدخول على الحاجب وهو الفقيه السيد الطيب بن اليماني المدعو بأبي عشرين فدخلا عليه وقالا : إن العدو عازم على أن يصبحكم غدا إن شاء الله فاستعدوا له واعلموا الأمير ، فيقال : ان الحاجب قال : ان الأمير الآن نائم ولست بالذي أوقظه ، ثم جاء عقب ذلك أربعة أناس آخرون يعلمون بأمر العدو ، فكان سبيلهم سبيل الأولين ، ولما طلع الفجر وصلّى الخليفة الصبح جاء عشرة من الخيل قيل من العرب وقيل من حرس الخليفة فاعلموا بمجيء العدو وأنهم تركوه قد أخذ في الرحيل ، فأمر الخليفة رحمه الله الناس بالركوب والاستعداد وان لا يبقَى بالمحلة إلا الرماة وكانوا دون الألف ، وبعث إلى بني يزناسن بالركوب فركبوا في ألوف كادت تساوي جيش الخليفة ، وصارت الخيل نحو العدو مصطفة مد البصر ، ورايانها تخفق على هيئة عجيبة وترتيب بديع ، وكان الخليفة سائرا في وسطهم ناشرا المظلة على رأسه راكبا على فرس أبيض وعليه طيلسان ارجواني قد تميز بزيه وشارته ، ولما تقارب الجيشان جعلت الفرسان تبرز من الصفوف كأنما تتعجل القتال فأمر الخليفة رحمه الله بالسكينة والوقار والسير بسير الناس[65] .

ولذلك فإن عامل المفاجأة لم يكن له الوقع المنتظر من طرف بيجو ولو أنه رسم الخطة التالية قبيل وقوع المعركة بيوم واحد ورغم الأمر الذي وجهه إليه ، في ذلك اليوم ، وزير الحرب بعدم تجاوز خط الحدود الجزائرية المغربية[66] .

ففي 13 غشت خرجت فرقة من معسكرها كعادتها لتأتي بحصيلة نهبها

---

(65) الاستقصا — ج 9 — ص. 51 — 52.

(66) CH. A. July. Histoire de l'Algérie Contemporaine. p.198.

Bataille d'Isly (14 Août 1844)

Formation de combat du Corps Expéditionnaire — **Croquis n.**

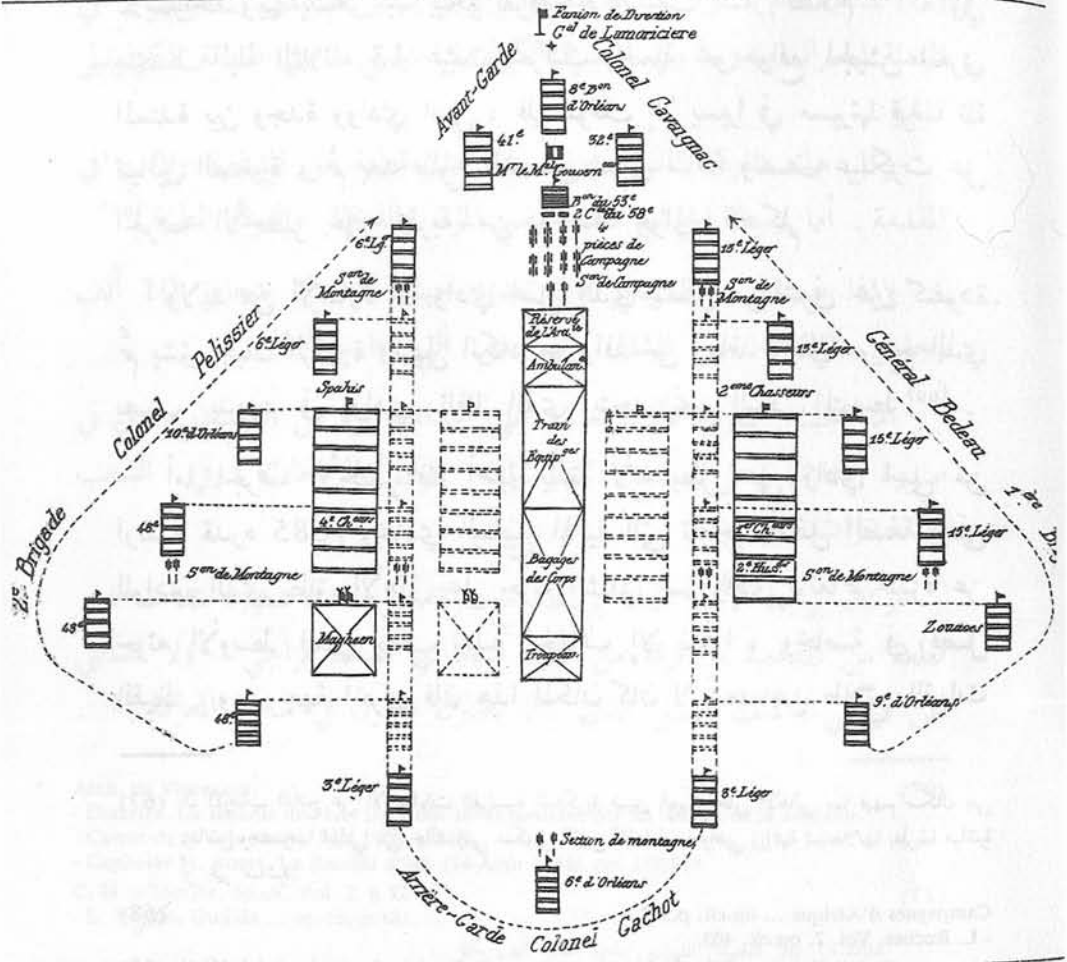

Nota : *Le tracé pointillé indique la position des bataillons de flanc et de la cavalerie dans l'ordre habituel de marche.*

"La Campagne de 1844 au Maroc"

Echelle

100 50 25 0 100 200 300 400 500 600 mètres

خريطة معركة إيسلي

في مزارع سهل انكاد التي لم يتم حصدها في هذه السنة[67] ، وبدل أن ترجع في المساء إلى قاعدتها اتخذت موقعا أماميا على بعد 16 كلم من للا مغنية وعلى مسافة نصف مرحلة من هدفها المنشود ، فعسكرت فيه للاستراحة ريثما يلتحق بها بيجو بفرقة أخرى تحت ستار الظلام[68] ، وفي منتصف ليلة الثلاثاء 13 غشت تحركت الحملة نحو مواقع الجيش المغربي الممتدة بين وجدة ووادي اسلي ، فلم تتوقف إلا يسيرا في مسيرتها قرب تلة تنيالين الصغيرة ، ثم بعد طلوع الشمس بحوالي ساعة ونصف عسكرت على الجرف الأخضر على مقربة من وجدة بحوالي 5 كلم .

ولابد من الإشارة أن وادي اسلي الذي ينطلق من شرقي عين كنفودة ثم يشق جبال الزكارة وسهل انكاد هو رافد من روافد وادي مويلح الذي يصب بدوره في وادي تافنا الذي يتجه نحو البحر المتوسط[69] .

أما الجرف الأخضر فله أهمية بالغة لأنه يطل على وادي اسلي من ارتفاع قدره 585م ويحاذي الينابيع المائية التي تتفجر بأسفل الضفة اليمنى للوادي الذي يطلق الأهالي على جزئه الشمالي اسم وادي بونعايم لتمييزه عن جزئه الأوسط الذي يغلب عليه الجفاف إلا نادرا ، وخاصة في فصل القيظ . ومن جهة أخرى فإن هذا المكان كان لا يبعد عن طلائع القوات

---

(67) ان الارهاب الناتج عن الاعتداءات الفرنسية المتكررة ضيق العيش على الاهالي بما فيهم سكان بني يزناسن وخصوصا قبيلتي بني خالد وبني منكوش اللتين كانتا لهما أراضي زراعية تستغلانها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

(68) Campagnes d'Afrique ... op.cit. p.373.
- L. Roches. Vol. 2. op.cit. 402.

(69) ان كلمة اسلي في لهجة برابرة شرق المغرب تعني الحجرة الكبيرة المصفحة والملساء التي توجد في مجرى الواد والتي يغسل عليها الاهالي ملابسهم ... وقد عرفت قرية بهذا الاسم في القرون الماضية.
قال ليون الافريقي بأنها كانت تشتمل على مساكن بسيطة في شكل أكواخ ذات جدران من الطين وسقوف من القش. إلا أن سكانها كانوا محط تقدير واحترام لاستقامتهم واحسانهم وكرمهم ازاء كل من حل بقريتهم.
وهل الانقاض القديمة التي توجد شمال الجرف الاخضر بمقربة موقع الكور من آثارها ؟ وصف افريقيا. — ج 2 — ص. 12.

المغربية إلا بحوالي كلومترين ومن خيمة الأمير محمد إلا بخمسة كلم ونصف مما سهل لبيجو الترتيبات الأخيرة التي أمر بها ضباطه والتي أعطت للحملة الشكل التالي : وزعت فرق الجيش داخل شبه مربع ضلعه لا يتعدّى 700 – 800م ، في المقدمة الجنرال لاموريسيير ثم المارشال بيجو ، في الميمنة الجنرال بيدو ، وفي الميسرة الكولونيل بليسي ، وفي الساقة الكولونيل كاشو .

وكل هذه الفرق كانت معززة بسة عشر قطعة من المدفعية ولاسيما في المقدمة . أما وسط الجيش فكان يضم المؤن والذخائر والفرقة الطبية[70] .

وإذا صدقنا رواية بيجو فإن تعداد جيشه كان لا يتجاوز 10 ألف رجل : 8500 من المشاة وأقل من ألفي فارس[71] .

أما الجيش المغربي فكان يعتمد على أعداد وافرة من الفرسان مرتبين في صورة هلال على بضع كيلومترات فوق المرتفعات وفي الشعب والمنحدرات .

وكان يوجد الأمير محمد بوسطه مع فرقة من المشاة معززة بثلاث عشر قطعة من المدفعية ، وفرقة من عبيد البخاري بقيادة فراجي – ولا تسألني عن فراجي ؟ ذلك البطل الذي كان يصول ويجول في ساحة المعركة[72] .

---

(70) Arch. de Vincennes.
- Dutertre. La Bataille de l'Isly (14 Août 1844) racontée par un témoin de la Journée. Carnet de la Sabretache. Mai 1906. p.313.
- Capitaine H. Rozet. La Bataille d'Isly (14 Août 1844). pp. 112-114.

(71) C. H. d'Ideville. op.cit. Vol. 2. p.524.
- L. Voinot. Oudjda ... op.cit. p.481.
هناك من قدر الجيش الفرنسي باحد عشر ألف رجل.
- A. Nettement. Tableau de la Conquête de l'Algérie. p.605-606.
وبأقل من 12 ألف رجل، ch. A. July. op.cit. pp.198-199.
في حين أن بعض الضباط كانوا يعتقدون بأنه كان يفوق الجيش المغربي عددا وعدة، لأن بيجو اضاف إلى الجنود الفرنسيين متطوعين من الجزائريين المسلمين، جلهم من قبيلتي الدوائر والزمالة.
أما المصادر الانجليزية فقد قدرته باربعين ألف رجل. L. Voinot : Oudjda ... op.cit. p.478.

(72) L. Voinot. Oudjda .. op.cit. pp. 481-484.

ولقد اندفعت فرسان هذا الجيش ، وهم يهللون ويكبرون ، ليتصدوا للعدو الذي كان يسير بسرعة نحو وادي اسلي تحت تأثير الانغام الموسيقية التي كانت ترددها فرقة خاصة . فحاولوا أن يعرقلوا سيره في المواقع الثلاثة التي اختارها لعبور الوادي الذي كان شائلا ، لكن بدون جدوَى ، وذلك حوالي الساعة 8 صباحا[73] ، رغم أن هذه المواقع كانت ضيقة لأن ضفتي الوادي الممتدة من كدية عبد الرحمن – جنوبا – إلى الجرف الأخضر – شمالا – جد مرتفعة ولها منحدرات شاهقة ووعرة[74] .

ولقد تمكن المشاة الفرنسيين من توطيد أقدامهم على أرضية المعركة بالاحتماء وراء أشجار السدر الكثيفة التي كانت تكسوها آنذاك[75] ، وبفضل خطتهم العسكرية إذ كانوا يتقدمون في شكل ثلاثة صفوف متراصة ، أحدها لها مهمة واحدة وهي تزويد الصفين الآخرين بالبنادق المهيئة ، مما ساعدها على اطلاق نيران مكثفة ومركزة على الفرسان المغاربة الذين كانوا يهاجمون ببسالة واستماتة في أفواج متعددة ومزدحمة كادت تطوق العدو بعد عبوره للوادي لو كانت تنظم وتنسق جهودها وحركاتها في عملية الكر والفر ، ولكن الله سلم[76] .

يقول شاهد عيان ، وهو القبطان Dutertre :

---

(73) Ibid. p.485.
- Dutertre. op.cit. p.314.

(74) اقيم على وادي اسلي في عهد الحماية ثلاث قناطر حديدية : الاولى في طريق السكة الحديدية القديمة والضيقة – في سنة 1912 – والتي تبعد عن الجرف الاخضر بكلم واحد والتي لم يبق منها إلا عمودان من الاسمنت في وسط الوادي يتجاوز ارتفاعهما 10 امتار. والثانية في طريق السكة الحديدة الحديثة والعريضة (سنة 1916) في الكلم7.
والثالثة في الطريق المعبدة للسيارات في سنة 1916 وفي الكلم7 كذلك. تحقيق المؤلف.

(75) حكى لي الحاج محمد بن محمد بن أحمد بن الطاهر الذي ينتمي لقبيلة بني وَكيل والذي عمر طويلا إذ هو من مواليد 1299هـ بأن اشجار السدر كانت تغطي مساحات شاسعة من سهل انجاد. ولا تزال بقايا منها في منطقة اسلي وقرب ضريح سيدي امعافة. الاثنين 23 شوال 24/1401 غشت 1981.

(76) C. H. D'Ideville. Vol. 2. pp.526-527.

«...كان هناك أربعة وعشرون ألف فارس (مغربي)... وما أروع خيولهم ! وما أروع مشهدهم في اللحظات الأولى من الملحمة ! ! !»[77] .

وكان المقاتلون المغاربة يلقون بأنفسهم في المعمعة رغبة في إحدَى الحسنيين ، اما النصر وإما الاستشهاد من أجل الذود عن كرامة الوطن . وتطاير الغبار حولهم فحجب عنهم رؤية العدو برهة من الزمن ثم توالت العمليات ...» .

وحسب وصف Ferret : «...تقدم الجيش الفرنسي نحو تلة في أسفل المرتفع الذي كان يوجد عليه ابن الملك .. وهنا حمَى وطيس المعركة .. وفرسان العدو انقضوا على فرقنا بأفواج تضم ثلاثة أو أربعة آلاف مقاتل ، وحينما كانوا يقتربون من مشاتنا البواسل كانوا يمطرون بنيران مكثفة جعلت القتلَى من الرجال والخيول يتراكمون أمامهم ... بينما كانت قذفات المدفعية الأمامية تدوي في الفضاء ...

وخلال ساعتين تقريبا من الزمن توالت الهجومات المغربية بشكل عنيف ... وكانت أفواجهم تدور ثم تتراجع ثم تتقدم ، بل تصطدم مع بعضها ... ان هؤلاء الفرسان كانوا يقبلون على الموت بشجاعة ... ثم زحفت فرقة الكولونيل بليسي على التلل بينما تمركزت الميمنة على المنحدرات المحاذية لوادي اسلي .... ثم تدخلت كتيبة الفرسان لأول مرة في الملحمة بفرقها التسع عشرة فدهمت العدو ... وتوجه الكولونيل يوسف والكولونيل طارطاس صوب المعسكر الرئيسي ـ معسكر الأمير ـ حيث انهالت عليها نيران البنادق والمدفعية .... ولم ينسحب أو يستسلم المشاة المغاربة إلا بعد مقاومة قوية وبعد اسكات مدفعيتهم ...»[78] .

---

(77) Dutertre. op.cit. pp.314-315.

(78) C.H. D'Ideville. Vol. 2. op.cit. pp.530 à 534.
- L. Roches. Vol. 2. op.cit. pp.403 à 406.
- L. Voinot. Oudjda ... op.cit. pp.485-486.

ونستنتج من مساجلات وجولات وقعة اسلي بان متاعب الجيش المغربي ترجع إلى عدة عوامل :

1 ــ أن حركة فرسانهم عاقتها كثرتهم والحواجز الطبيعية المتمثلة في أشجار السدر التي استغلها العدو أيما استغلال في ترتيباته التي اعتمدت في جل أطوار المعركة على فرق المشاة المتدربة والمتراصة .

2 ــ ان القيادة العسكرية وجدت صعوبة في التنسيق بين الجنود المحترفين والجنود المتطوعين خلافا لقادة الحملة الفرنسية الذين جاءوا بجيش متماسك اكتسب خبرة ميدانية في حروبه الاستعمارية في الجزائر .

3 ــ أن الألغي خيمة الناصعة البياض التي ضربتها الحشود المغربية بسهل انكاد الهبت رغبة العدو في الحصول على الغنائم والأمتعة[79] ، وقد قيل بأن هذا كان من الأسباب التي دفعت الأمير عبد القادر إلى عدم المشاركة في النزاع العسكري المرتقب .

قال الناصري : «...ولما احتل الخليفة سيدي محمد بايسلي وعسكر به جاءه الحاج عبد القادر يستأذن عليه في الاجتماع به فأذن له واجتمع به وهو على فرسه ، فدار بينهما كلام كان من جملته أن قال الحاج عبد القادر : إن هذه الفرش والآثاث والشارة التي جئتم بها حتّى وضعتموها بباب جيش العدو ليس من الرأي في شيء ، ومهما نسيتم فلا ننسوا ان لا تلاقوا العدو إلا وأنتم متحملون منكمشون بحيث لا يبقَى لكم خباء مضروب على الأرض وإلا فإن العدو متَى رأى الأخبية مضروبة لم ينته دون الوصول إليها ولو أفنَى عليها عساكره ، وبين كيف كان هو يقاتله .

---

(79) لاحظ الضابط Dutertre ان فرقة الفرنسيين التي تسمى المخزن كان دورها الوحيد، كعادتها، النهب والسلب. ص. 314. أما فوانو فيقول بأن الجنود الفرنسيين الذين كانوا يرتدون بذل بالية ورثة وسراويل مرقعة استبدلوها بملابس جديدة من المنسوجات الوافرة التي غنموها في المعركة. وجدة. ص. 488.

وكان هذا الكلام منه صوابا إلا أنه لم ينجع في القوم لانفساد البواطن ...»[80] .

وإننا لنشك في صحة هذا الخبر لأنه في الوقت الذي كان الأمير محمد بلعيون سيدي ملوك أو قريبا منها التقَى بعبد القادر في فاتح غشت وطلب منه بواسطة العامل احميدة والقائد حمدون أن يولي وجهه شطر نهر ملوية ريثما تنتهي المفاوضات بين الدولتين[81] .

4 ــ ان المدفعية المغربية كانت تتشكل من ثلاث عشرة قطعة جد قديمة يجر كل واحدة منها جملان ، ولم تعزز هجومات فرق الخيالة في كل جبهات القتال مثلما فعلت نظيرتها الفرنسية ، واكتفت بالدور الدفاعي في وسط الجيش[82] .

ويمكن أن نضيف عاملا خامسا يفسر الانتكاس الذي أصاب الجيش المغربي وهو الخبر الذي ردده المرجفون مفاده أن الأمير محمد الذي كان ممتطيا فرسا أبيض قد استشهد في الملحمة ، فتيقن بعض المقاتلين من ذلك ووقع هرج ومرج في الصفوف فتسابق ضعاف النفوس إلى الخيام لنهب الأموال والأمتعة في ازدحام فظيع .

قال الناصري : «...لما التقَى الجمعان وانتشب الحرب رصد العدو الخليفة وقصده بالرمي مرات عديدة حتَّى سقطت بنبة أمام حامل المظلة وجمع فرسه به وكاد يسقط ، ولما رأى الخليفة ذلك غير زيه بأن أسقط المظلة ودعا بفرس كميت فركبه ولبس طيلسانا آخر فاختفَى حينئذ ، وكان المسلمون قد أحسنوا دفاع العدو وصدموه صدمة قوية برقت لهم بها بارقة ، وكانت خيلهم تنفر من صوت المدافع ولكنهم كانوا يقحمونها

---

(80) الاستقصا. ــ ج 9 ــ ص. 51.

(81) P.C. Brissac. op.cit. p.92.

(82) Le Général Trocher. Oeuvres Posthumes. p.307.

اقحاما ، وثبتوا في نحر العدو مقدار ساعة ولما التفتوا إلى جهة الخليفة ولم يروه بسبب تغير زيه خشعت نفوسهم وقال المرجفون : إن الخليفة قد هلك ! فماج الناس بعضهم في بعض ، وتسابق الشراردة إلى المحلة فعمدوا إلى الخباء الذي فيه المال فانتهبوه وتقاتلوا عليه ، وتبعهم غيرهم ممن كان الرعب قد ملك قلبه ، وجعل الناس يتسللون حتّى ظهر الفشل في الجيش من كل جهة ... فتقدم بعض الحاشية إلى الخليفة وقال له : يامولانا ، إن الناس قد انهزموا وهم الآن بالمحلة يقتل بعضهم بعضا ويسلب بعضهم بعضا ، فقال : ياسبحان الله ! والتفت فرأى ما هاله من أمر الناس فرجع عوده على بدئه وانهزم من كان قد بقي معه عن آخرهم وتبعهم العدو يرمي الكور والضوبلى من غير فترة ، وثبت الله بعض الطبجية بالمحلة[83] » .

ويحق للمؤرخ الذي يقارن بين مختلف الروايات التاريخية أن يتعجب من قول الناصري بأنه لم يهزم المسلمين إلا المسلمون وبأن المجاهدين لم يثبتوا في نحر العدو إلا مقدار ساعة ... وبأن هذا الحدث العظيم كان في الساعة العاشرة من النهار منتصف شعبان سنة ستين ومائتين[84] . بل يتعجب أكثر حين يطلع على رواية محمد اكنسوس الذي كان أقرب إلى الإدارة المخزنية من حبل الوريد إذ كان وزيرا في عهد المولَى سليمان :

« ...وفي هذا العهد وجه السلطان المؤيد ولده البار المظفر لناحية وجدة لحياطة البلاد وحفظ الإيالة من العدو الكافر ، لأنه تكالب على من جاور قبائل إيالة الأتراك التي التقمها افعوانه ، فخرجت العساكر من مكناس وفاس وما أضيف إليهما من الأعراب والبربر ، ثم شمر مولانا المظفر وكانت الرؤساء من تلك المحلة غير مؤتلفة ، والأجناد الداخلة في العسكر من زرارة والشبانات وأولاد دليم غير ناصحة لأمرائهم لسوء أفعالهم . فلما

---

(83) الاستقصا — ج 9 — ص. 52.

(84) المصدر السابق. ص. 52 — 53.

— ان التاريخ الحقيقي للمعركة هو يوم الأربعاء 29 رجب عام 1260.

بلغ مولانا المظفر بلاد أنجاد ونزلت المحلة بالعيون جاءه أهل البلاد العارفون بمكايد الروم المباشرون لحربهم ، المطلعون على عوائدهم ، وقالوا : ياسيدنا ، إنه يجب أن تبقَى المحلة هاهنا ولا تتعداه ، وتكون الخيل تغير على الأعداء وترجع لمأمنها ، فقال لهم : نعم ، ذلك هو الذي يكون عليه العمل إن شاء الله ! ! ثم جاءه رؤساء المحلة وقالوا له :

هذا خور ووهن ، لا يليق مع القدرة والصولة وكثرة الجنود التي لا يطيق أحد مقابلتها !

والذي يليق هو أن تربط المحلة بطرف بلادنا وتغير على العدو في بلاده ! ! !

فوقع الخلاف في ذلك وغلب من لا رأي له على أهل الآراء والتجاريب ، فزادت المحلة حيث أرادوا فنزلوا غير مبالين ولا مكترثين آمنين كأنهم في ديارهم ، واغتروا بكثرة الجنود ، وظن الرؤساء أن قلوب الاتباع متواطئة وأنهم معولون على صدق اللقاء . وجاءت العيون وأخبروا أن العدو في غاية الاستعداد وأنه عازم على أن يسوق إليهم بكرة غد ، فلم يبال أولئك الرؤساء بأخبار العيون وقالوا : انهم مرجفون يعظمون شأن الكفار ويوهنون شأن المسلمين . فأصبحوا متكئين على أرائكهم ، يطبخون أغذيتهم ! ! فلم يرع الناس إلا طائفة من خيل المحلة كانت راكبة فجاءوا يستبقون وقالوا :

إننا رأينا جيش العدو بأبصارنا مقبلا وسمعنا طبولهم ! ! فلم يفرغوا من ذلك الحديث حتَّى أطلت رايات العدو ، وعاجلت الناس عن اسراج مراكبهم فضلا عن حمل مضاربهم ومولانا المظفر ما أخبروه بحقيقة الأمر إلا في هذه الحالة ! ! فجاءوه بمركبه فلم يرد الركوب لئلا تفر المحلة إذا رأوه ركب ، فقيل له :

ان المحلة وسرعان زرارة واشبانات ومن رافقهم ساروا وقد قطعوا

مسافات ، وقد بلغوا مأمنهم ، وباتوا معولين على الفرار ، فكان مولانا المظفر آخر من ركب من المحلة ، فرجعت المحلة إلى فاس على كثرتها بلا قتال ولا وقوف ولا التفات ! ! بل جل من نهب من المحلة أولئك الخونة الهراب لانكاء قوادهم وأمرائهم ..»[85] .

ولقد أفادت تقارير الضباط الفرنسيين الذين شاركوا في وقعة اسلي وعلى رأسهم المارشال بيجو أنه بعد انسحاب مولاي محمد من ساحة الوغَى استمرت المعركة بعنف على الضفة اليسرَى للوادي وكادت فرقة الكولونيل موريس التي كانت تضم 500 فارس ، تنهزم لولا نجدة الجنرال بيدو بثلاثة فيالق قوامها 1200 جندي بينما كانت هناك مجموعة من المقاتلين المغاربة تتحرك لتسترد المعسكر الرئيسي فتشابكت مع مشاة وفرسان الكولونيل يوسف الذين عبروا الوادي بدورهم تحت غطاء نيران المدفعية وتقدموا إلى مسافة 3 كلم حتَّى بلغ التعب والعطش من الجانبين كل مبلغ بسبب وطأة الحرارة وشدة القتال الذي دام حوالي أربع ساعات[86] .

ويتضح من رواية الضابط E.Castellane ان عدد المقاتلين المغاربة لم يكن يتجاوز 15 ألف رجل لأن حوالي 16 ألف من مشاتهم ، حينما كانوا في طريقهم إلى وجدة للانضمام إلى محلة الأمير محمد فوجئوا بنبإ الهزيمة وهم على مقربة من موقعها لمسافة عدة أميال فرجعوا على أعقابهم متحسرين ومتذمرين ، الشيء الذي يؤكد أن وطأة المعركة كانت شديدة على الخيالة المغاربة[87]

---

(85) اكنسوس محمد بن احمد ــ الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي. ــ ج 2 ــ ص.28.

(86) C.H. D'Ideville. Vol. 2 op.cit. pp.534-535.
- Colonel Corneille Trumelet. Le Général Yusuf. Vol. 1. pp.444 à 446.
- Dutertre. op.cit. p.314.
- L. Volnot. Oudjda... op.cit. pp. 486-487.

(87) Campagnes d'Afrique. op.cit. pp.375-379.

وعلى أية حال فإن الارتباك الذي أصاب الجيش المغربي في الجولات الأخيرة من الملحمة لا يعني أن الحملة الفرنسية حققت انتصارا باهرا لأن الخسائر البشرية كانت فادحة في المعسكرين سواء أثناء المعركة أو بعدها ، خصوصا في الغزاة المعتدين . ولو أننا لا نتوفر إلا على التقديرات الفرنسية لتلك الخسائر والتي تفيد بأن المغاربة تركوا في الميدان حوالي 800 قتيل + 1500 جريح + 1200 أسير مقابل 27 قتيل + 96 جريح في صفوف الفرنسيين(٨٨) فإن الرسالة التي بعثها الضابط Ernest De Castellane من تلمسان في 4 ــ 9 ــ 1844 إلى المارشال De Castellane أفادت أنه «منذ 14 غشت (يوم معركة اسلي) يدفن يوميا 30 أو 40 رجلا من جراء الأمراض ...»(٨٩) .

ويرَى July أن الوفيات في جيش بيجو أثناء وبعد الوقعة تراوحت بين 1500 وألفي ضحية بالإضافة إلى حوالي 500 فرس(٩٠) . وأن Dutertre الآنف الذكر لاحظ «...ان الجنود في أمس الحاجة إلى الراحة .. فحرارة الطقس كانت مفرطة ، والمستشفيات ملأى بالمرضَى ..»(٩١) .

ج) مخلفات المعركة :

مهما كان حجم الانتكاسة في وقعة اسلي الشهيرة فإنها تحمل أكثر من مغزَى ومن عبرة . فكانت معلما من معالم الروح الوطنية للمغاربة ، وكانت دليلا من أدلة وفائهم لفكرة المغرب العربي والإسلامي ، وكانت كذلك

---

(٨٨) L. Voinot. Oudjda ... op.cit. p.488.
- C.H. D'Ideville. Vol. 2. op.cit. p.536.
ان بيجو كان معروفا لدى الدوائر الرسمية في باريس بمغالاته في انتصاراته وفي حجم قوات اعدائه.
- CH.A.July. op.cit. pp.198-199.
- M. Emerit. op.cit. p. 401.

(٨٩) Campagnes d'Afrique. op.cit.p.379.

(٩٠) CH.A.July. op.cit. p.198.

(٩١) Dutertre. op.cit. p.315-

شاهدا من شواهد تعلق أفئدتهم بأهداب العرش العلوي المجيد إذ ليس من المفارقات العجيبة ان أهالي منطقة انكاد أطلقوا اسم سيدي محمد على مقابر ثلاث من المقابر التي توجد على ضفتي وادي اسلي والتي تضم رفات شهداء معركة اسلي تبركا وتيمنا وتذكيرا بالأمير سيدي محمد بن عبد الرحمن .

وقد يجمل بنا أن نسمي وادي اسلي وادي المجاهدين لأن المقابر الثلاثة هي من جملة المقابر التسعة[92] التي تقع بين كدية عبد الرحمن والجرف الأخضر ــ على مسافة عشر كلم ــ خمس منها على الصفة اليمنى التي شهدت بالذات أشد الجولات وأعنف المساجلات يوم 14 غشت 1844 ، وأربع على الضفة اليسرى .

ونلاحظ بكامل الحسرة والأسف أن بعضها اثر فيها مد المياه أحيانا وجرف بجزء منها وسيمحوها إذا لم نتدارك الأمر ونحصنها ضد الانجراف وفاء لأرواح الشهداء الأبرار .

وبما أن الذكرى تنفع المؤمنين فقد شعر عامل اقليم وجدة ــ حميد البخاري ــ (يناير 1979 ــ يناير 1983) ــ بأهمية وقعة اسلي وأبى إلا أن يهيئ لها مهرجانا تذكاريا سنويا سواء على الصعيد الرسمي أو الشعبي لأنها كانت مطموسة في أذهان المثقفين فضلا عن عامة الناس ، فنظم أول

---

(92) قد يتساءل المرء عن الدوافع التي تجعل أهالي انجاد يدفنون موتاهم على ضفاف الأودية رغم أنهم يشاهدون مد مياه الفياضانات يتلف معالم قبورهم ويحولها أثرا بعد عين !!

هل لأن إشجار السدر تحف عادة ضفافها ؟

فكثيرا ما نرى الحويطات التي يتبرك بها في مقبرة وفي ظل سدرة ذات أوراق خضراء وأنواط باثقة، مثل الحويطة المربعة التي تقع على بعد بضع خطوات من الجرف الأخضر ــ من جهة الغرب ــ على الضفة اليمنى لوادي اسلي والتي هي مهددة من انجراف التربة وسيل الوادي. أم لان الماء يرمز إلى الحياة ؟ وقد جعل الله من الماء كل شيء حي.

أم لأنها من رواسب الجاهلية الأولى ؟

أم لأنه دفن هناك رجل من ذوي الفضل والعلم والصلاح ؟

أم هي فقط نتيجة للتنافس الشديد الذي وقع بين أهل البادية في بعض الفترات التاريخية من أجل امتلاك الأراضي واستغلال كل شبر منها من جراء ازدحام السكان وكثرة المواشي ؟؟؟

احتفال يومي الخميس 13 والجمعة 14 غشت 1981 / 12 ـ 13 شوال 1401 ، بمشاركة شخصيات سياسية ، من بينها موسَى السعدي ، وزير الطاقة والمعادن ، ورجال السلطات المحلية ، السعيدي عبد الجليل ـ باشا مدينة وجدة ـ والكولونيل اليعقوبي عبد الحفيظ ... بالإضافة إلى الأساتذة قدور الورطاسي ، عبد الهادي التازي ، عبد الكريم كريم وصاحب هذا الكتاب ، والفقيه الفاضل الحاج محمد مومني ـ المعروف بالتطواني ـ .

ومما زاد هذا المهرجان بهجة ورونقا مشاركة 500 فارس من قبائل شرق المغرب في ألعاب الفروسية التي جرت في سفح مرتفع اسلي . ولهذا الغرض وضع نصب تذكاري بساحة البصرة بملتقَى شارع محمد الخامس والشوارع الأربع الأخرى . أما الفرنسيون فقد كانوا يعتزون أيما اعتزاز بحدث اسلي ويحتفلون به سنويا لاستلهام العبر والدروس ولاذكاء الروح الاستعمارية والمشاعر الدينية فيهم .

ففي 1859 وأثناء غزواتهم بالمنطقة بنوا بموقع فات لمزايدة نصبا تذكاريا له شكل هرمي ، لكن الأهالي صبوا عليه جام غضبهم وشتتوا قطعه .

وفي بداية عهد الحماية وضع نصب آخر من طرف القابطان روزي بنفس المكان ، إلا أنه لم تبق منه إلا أسسه المصفحة[93] .

وبمرتفع اسلي لايزال يوجد نصبان : الأول علوه أقل من 3 أمتار في شكل ثلاث طبقات ذات حجم مختلف ، وأسس الطبقة السفلَى مربعة ، ويبلغ ضلع المربع أقل من مترين . والثاني أقل ارتفاعا وحجما من الأول ، في الجهة الشمالية علوه أقل من متر ، له طبقتان ذواتا حجم مختلف وشكل

---

(93) L. Voinot. Oudjda .. op.cit. pp. 487-488.

مكعب . وكانت تحمل الطبقة العليا عبارات لم يبق منها إلا ما يلي :

Après la bataille d'Isly les Sapeurs de la 6e Dion Blindée ont établi cette stèle d'orientation [94]

ولنرجع الآن إلى الأصداء التي خلفتها انتكاسة اسلي في المجالين الرسمي والشعبي ، وبالنسبة لمستقبل المغرب كدولة تتمتع بالسيادة والاستقلال .

فلاشك أن أصداءها تركت في النفوس الحزن العميق والخيبة المريرة في كافة الطبقات الاجتماعية .

وحينما بلغ الخبر إلى المولى عبد الرحمن بالرباط وكان قادما من مراكش أسرع السير إلى فاس ، العاصمة العلمية والسياسية ، ليفكر ويتشاور مع ذوي الرأي في الاصلاحات المختلفة التي ينبغي الشروع في انجازها لتدخل البلاد في عهد النهضة والتقدم ولتتمكن من الدفاع عن استقلالها ومقوماتها الحضارية .

أما على الصعيد الشعبي فترددت روايات تتهم القواد العسكريين بالجبن والتخاذل ، بل بالخيانة[95] ، الشيء الذي جعل أهالي البادية يحتقرون الجنود المتقهقرين ويشتمونهم ويضربونهم ، وأحيانا يسلبون منهم أمتعتهم والأشياء التي غنموها في المعركة .

قال الناصري : «...ولما رجع المنهزمة تفرقوا شذر مذر وأهلك الناس العطش والجوع والتعب حتّى كان نساء عرب انكاد يستلبنهم كيف شئن ...»[96] .

ولم يكن هذا في الحقيقة إلا تعبيرا شعبيا للحمية الوطنية التي تأبَى

(94) تحقيق المؤلف.

(95) رواية الحاج محمد بن محمد بن احمد لوكيلي الانف الذكر.

(96) الاستقصا — ج 9 — ص. 53.

النكوس والفرار في المواقع الجهادية وتنم عن الطاقات المعنوية التي يتمتع بها الشعب المغربي لصد الأطماع الاستعمارية التوسعية .

ولقد تجلّى هذا الشعور العميق في الاقبال على الأماكن الدينية التي أخذت تزدهر سنة بعد أخرى ، في المدن والبوادي إذ تأسست مراكز اشعاع للطريقة الدرقاوية والطريقة القادرية بمدينة وجدة في منتصف القرن 19 ، كما ازدانت المساجد بحلقات العلماء والفقهاء المغاربة والجزائريين .

وفي المجال الدبلوماسي دخلت العلاقات المغربية الفرنسية في طور جديد من جراء مظاهر الضعف التي انطوت عليها — من جهة — وبسبب المساعي التي بذلتها انجلترا لتفادي استفحال مخلفات الأزمة — من جهة أخرى — فأبرمت معاهدتان ، الأولى بطنجة ، والثانية بللا مغنية .

* معاهدة طنجة : 10 – 9 – 1844 / 26 شعبان 1260 .

لقد نصت هذه المعاهدة على الشروط الآتية : ان المحلة المغربية التي سترابط بمدينة وجدة لا ينبغي أن تتعدّى ألفي رجل ، وأن القواد المغاربة الذين تسببوا في الأحداث الأخيرة سيعاقبون على فعلهم ، وأنه لا يمكن لعبد القادر الجزائري أن يواصل حربه ضد فرنسا من التراب المغربي ، وأنه لابد من الاتفاق على الحدود بين الدولتين في أقرب الآجال ، على أساس الحدود التي كانت موجودة بين المملكة المغربية والايالة الجزائرية أثناء حكم الأتراك لها قبل الاحتلال الفرنسي[97] .

---

(97) اتحاق اعلام الناس — ج 5 — ص. 163 إلى 165.

— قام وقعد بيجو حين بلغه خبر معاهدة طنجة لأنه لم يؤخذ برأيه بل لم يستشر معه المفاوضان

De Nyon + Glucksberg. CH.A.July. op.cit. p.200.

- A. Latreille. op.cit. pp. 170 à 174.
- M. Guizot. Vol.7. op.cit. pp.170 à 174.
- M. Emerit. op.cit. pp. 424-425.

* **معاهدة للا مغنية : 18 – 3 – 1845 / 9 ربيع الأول 1261** [98] .

إنها قررت أن الحدود المغربية الجزائرية تقع دون وادي تافنا باربعين أو ستين كلم ، وبذلك كان لها أبلغ الأثر على حياة القبائل القاطنة بين وادي كيس – شمالا – وتنية الساسي – شرقا – والتي ضم بعضها إلى المستعمرة الفرنسية لضمان مكتسبات اعتداءات سنة 1844 ولاستعمالها كحاجز وقائي أمام الحركة الجهادية التي من المحتمل أن تستمر من جانب عبد القادر أو من جانب قبائل بني يزناسن وأنجاد .

وان أفخاذ كبيرة من قبيلة بني منكوش [99] وامسيردة وعطية ولمزاوير وأولاد علي بن طلحة وأولاد أحمد بن ابراهيم وأولاد منصور وأولاد سيدي رمضان وبني ادرار ... أصبحت تحت امرة السلطة الاستعمارية ظلما وعدوانا لدرجة أن المولى عبد الرحمن لم يرض ببنود هذه المعاهدة التي صكها الجنرال De La Rue والعامل أحميدة بن علي الذي اتهم بالخيانة لأنه تنازل عن الحقوق المغربية التاريخية مقابل رشاوي أو هدايا مالية [100] .

ولقد أشارت لذلك عدة رسائل ملكية منها التي وجهت إلى عامل العرائش بوسلهام بن علي في 3 محرم 1262 / فاتح يناير 1846 :

---

(98) Leon Deloncle. Statut International du Maroc. pp.7 à 13.

(99) ان نمط الحياة السائد عهدئذ كان يفرض على الأهالي وخصوصا على بعض الافخاذ القبلية التنقل بين قمم الجبال ومنخفضات السهول حسب الفصول الموسمية مما جعل قبيلة بني منكوش تنقسم إلى فرعين : بني منكوش لوفاكة وبني منكوش اتحاته الذين كانوا يستغلون أراضي لقبيلة أولاد منصور بناء على اتفاق بينهم خلافا للرواية التي اعتمد عليها الفرنسيون بأن بني منكوش اتحاته التجأوا إلى هذه الأراضي اثر نزاع مع اخوانهم في جبال بني يزناسن .م.و.م.

(100) A. Latreille. op.cit. p.175.
- G.C.De Martimprey. op.cit. p.214.
- L. Roches. Vol.2. op.cit.pp. 452-453-462.

«...فقد بلغنا أن حميدة الشجعي[101] عامل وجدة دفع للنصارَى الذين بمغنية خمسة آلاف ريال ليقبضها بطنجة ، فبوصول كتابنا هذا إليك جد في البحث عن ذلك بطريق خفي حتَّى تظفر بمن خرجت على يده ، فإنه لا يخفي أمرها ، والغالب أن يكون على يد اليهود لعنهم الله ، فإن وقفت على ذلك حزها من عند من هي في يده واعلمنا ، واعتن بذلك غاية ...»[102] .

وإن المفوض المغربي ارتكب خطأ فادحا ثانيا حين ترك المناطق الجنوبية الواقعة بين تنية الساسي وواحة فكيك كأنها جزء من الصحراء المترامية الأطراف التي يصعب تحديدها[103] ، وبذلك فتح بابا للغزوات الفرنسية في المستقبل لتطويق المغرب تدريجيا ثم لاستكمال المخطط التوسعي بالاحتلال العسكري والسياسي .

وإن الثغرات التي وضعت عمدا في اتفاقية للا مغنية تبرهن عن الدهاء السياسي للمفوضين الفرنسيين الذين سيخلقون مشاكل لا حصر لها للإدارة المخزنية بوجدة متذرعين بكل حالة طارئة أو مختلقة ، مثلا : أنهم قرروا اعفاء القبائل التي ضمت إلى مستعمرتهم من الضرائب السنوية[104] لضرب عصفورين بحجر واحد ، أولا ، تأليف قلوب الأهالي المجاورين لها ، ثانيا ، الاحتجاج على السلطات المغربية التي كانت تطالب تلك

---

(101) ان حميدة بن علي كان عاملا لاقليم وجدة من يوليوز 1844 إلى ماي 1845 ومن فبراير إلى يوليوز 1849.

(102) م.و.م.

(103) نص البند الرابع من اتفاقية للا مغنية على أن المنطقة الواقعة جنوب تنية الساسي هي صحراء غير قابلة لأي تحديد لأن سكانها يتنقلون باستمرار بحثا عن الكلا لانعامهم. فعلى كل دولة أن تتصرف مع رعاياها متى وكيفما أرادت شريطة أن لا تمس رعايا الدولة الأخرى !!! وهذا نموذج سياسة اختلاط أو خلط الحابل بالنابل !!!

- Smaili Moulay Abdelhamid. Les Relations des Français et des Marocains de l'Oriental. Thèse de Doctorat. 1980. p.88. (1900-1925)

(104) م.و.م.

القبائل باداء الزكوات والأعشار لأنها تعتبرها تابعة لها . ومن هذا الباب فتح سجل القضايا المتكررة ءالمستعصية إذ سوف لم تمر سنة دون حدوث نزاع أو اشتباك عسكري أو تقديم احتجاجات من جانب واحد أو من الجانبين معا بسبب وضعية القبائل التي خيل للناس أنها لا تنتمي إلى نفوذ هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

3 – ثورة الأمير عبد القادر ضد المغرب :

إذا كان يبدو لأول وهلة أن اتفاقيتي طنجة وللا مغنية كانتا ضربة قوية للحركة الجهادية للأمير عبد القادر فإن الأوضاع الاجتماعية والنفسية والاقتصادية الناجمة عنهما أضفت عليها هالة من القدسية والاجلال في نظر أهالي شرق المغرب الذين أصبحوا يشعرون أكثر فأكثر بوطأة اليد الاستعمارية . ولذلك فإن أمانيهم التقت مع أمانيه ورغبتهم في مقاومة المستعمر وجدت القائد المحنك والبطل الشجاع الذي يوجهها إلى وجهة الجهاد والشرف والتضحية . ويكفي دليلا على هذا الالتحام والتجاوب بينهم الانتصارات التي حققها النضال المشترك المغربي الجزائري ضد فلول الغزاة الفرنسيين خلال سنة 1845 ومنها انتصارهم الباهر على الحامية المتمركزة قرب ميناء الغزوات بموقع سيدي ابراهيم والتي حاصروها من 23 إلى 26 – 9 – 1845 ثم أبادوها[105] .

ولكن سرعان ما أصبح وجود عبد القادر في التخوم الشرقية يجلب للمغرب مصاعب دبلوماسية وبالذات مع فرنسا وانجلترا[106] لأنه لم يوف بالتزاماته المنصوص عليها في معاهدة طنجة لاسيما وأن الغارات التي كان

---

(105) Dutertre. op.cit. pp. 308-309.
- P.C. Brissac. op.cit. p.126.

(106) ان القنصل الفرنسي De Chasteau والقنصل الانجليزي Drummond Hay ثم ابنه John الذي خلفه في ابريل 1845 كانوا متفقين في شأن عبد القادر خشية وقوع اضطرابات سياسية في المغرب قد تستغلها اسبانيا لتوسيع نفوذها الاقتصادي والتجاري. م.و.م.

يقوم بها عبد القادر في شكل حرب غير مكشوفة داخل التراب الجزائري كانت تذهب سدىً لأن الشعب ضاق ذرعا منها ومن الوسائل التدميرية التي استعملها المارشال بيجو. وكل هذه الأسباب جعلت الأمير الجزائري بدون إمارة وفي موقف المتردد بين ثلاثة دوافع :

أما الإقامة بالصحراء الشاسعة الأرجاء ومتابعة نضاله المسلح ضد الغزاة الأجانب وفق النصيحة التي أسداها إليه العاهل المغربي[107].

واما الإقامة بمدينة فاس استجابة للفكرة التي طالما راودته قبل لجوئه إلى شرق المغرب[108] وتلبية في نفس الوقت لدعوة السلطان المغربي اثر أزمة 1844[109].

واما البقاء بمنطقة مغربية ذات مزايا استراتيجية واقتصادية لتحقيق الخطة التالية : اجتذاب أكبر عدد من الأنصار للاغارة على الدوريات العسكرية والقوافل التجارية الفرنسية في انتظار ظروف دولية تمكنه من العودة إلى وطنه.

والظاهر أنه مال إلى الموقف الأخير حيث أنه تمركز بناحية قصبة سلوان لقربها من مليلية المحتلة من طرف اسبانيا منذ قرون خلت إذ سيربط صلات أوثق بالاسبانيين ليساعدوه على الصعيد الدولي وبالأحرَى ليزودوه بالعتاد والسلاح[110]. وهناك انضم إليه ــ طوعا أو كرها ــ عدد هائل من

---

(107) الاستقصا ــ ج 9 ــ ص. 59.
ــ تحفة الزائر ــ ج 1 ــ ص. 489.

(108) المصدر السابق. ص. 250.

(109) المصدر السابق. ص. 450.
ــ الاستقصا ــ ج 9 ــ ص. 59.
P.C. Brissac. op.cit. pp.121-122.
- A/Latreille. op.cit. p.174.

(110) مراسلات عبد القادر إلى السلطات الاسبانية في 1847. يحى بوعزيز + Mikel de Epalza.
الجديد في علاقات الأمير عبد القادر مع اسبانيا وحكامها العسكريين بمليلية. ص. 49 إلى 93.

المتطوعين من قبائل شتّى وخاصة من بني يزناسن وأنجاد مما أدّى إلى رد الفعل من الوالي العام للجزائر ومن السلطان المغربي(111) .

فقد لوح بيجو مرارا بملاحقته داخل التراب المغربي في حالة فشل محاولات المخزن لاقصائه من هناك وأكد ذلك في رسالة إلى قبائل المغرب الشرقي في 20 ــ 4 ــ 1847 :

«...إلى كافة بني يزناسن وأهل أنكاد والأحلاف والمهاية والمطالسة وبني بويحيَى والقلعية وكافة أعراش النواحي الغربية بين الجزائر والإيالة المغربية ، اعلموا أني اتكلم معكم بكلام يدل على الخير والمحبة البالغة ، ولولا المحبة لم أذكره ، وكنت أفعل ما رمته ، فانصتوا لمقالتنا وتأملوها لأنها نصيحة وارشاد ، وهي : ان لكم مدة أربع سنين وأنتم جادون في فعل الشر معنا ونحن نسامحكم ، حتّى كثر العيب ووقع منكم ما وقع كما هو محقق لديكم ، وبعد الوقائع كلها الهمنا الله للسداد والرشاد . وكان أول الشروط التي وقعت بيننا أن لا يبقَى الأمير عبد القادر بين ايالتكم وإيالتنا وان لا تقبلوه في أرضكم ، فلما ضاق عليه المجال في أرضنا فر منا وجر ذيله ببلادكم ، فقبلتموه وأكرمتموه وبجلتموه ، وكان فعلكم هذا سبب الفساد الذي وقع بيننا وبين المعظم الأرفع محبنا وصديق دولتنا ، صاحب السياسة والرياسة ، مولاي عبد الرحمن بن هشام أعزه الله ، فانتبهوا من غفلتكم ، وفرقوا بين ضركم ونفعكم ، واعلموا بأن الأمير عبد القادر كالحية الرقطاء ، لمسها لين وهي قاتلة سما . وقد ذكر بعض الأوائل أن رجلا وجد لفعة سياق الموت من ألم البرد ، فأشفق لحالها وأدخلها بين ثوبه ولحمه ، فلما أفاقت وتحركت لسعته فمات . وصار هذا مثلا يضرب لمثلكم . ونحن جعلنا الحدود وسويناها ووضعناها بيننا وبينكم ، وبيناها ، ولم تتم

---

(111) مراسلة ملكية إلى الأمير سيدي محمد في 16 محرم 1262/الموافق 14 ــ 1 ــ 1946
1. Hamet. Vol 1. op.cit. pp.111 à 114.

أربعة أشهر حتّى أفسدتم الأمر ، وصار الأمير عبد القادر يسير بخيولكم ورجالكم ، اعانة له ، واعراش بلادنا فرت إليكم وتحزبوا معه ، وقد وصل لنواحينا وغزا ولم يحصل على مراده . ولما وقع ذلك عزمنا على الدخول لايالتكم بجيوشنا ، ولم يبق إلا التحرك . فإذا بصديقنا المعظم الأرفع مولاي عبد الرحمن كتب لسعادة سلطاننا ملك فرنسا ، وبعث له البشدور يقول له : تربص ولا تعجل حتّى ننظر أمر هؤلاء الرعية ونكفهم عن فسادهم ، وربما ينصتون بعد النهي ، وقد مضى ستة أشهر ونحن نراقب ما يصدر من الخير ، لكم ولنا ، فإذا به نسمع جعجعة ولا نرَى طحنا ، والآن انا طردنا الأمير عبد القادر وأفسدنا أمره ودخل أرض الفلات ، وقرب منكم ، وصار البوحميدي يمده بخيل ورجال منكم ومن غيركم ، وهو يحكم بوسطكم ويصول عليكم مع امساكه الزكاة والعشور والمطالب المخزنية ولم تكفوه عن ذلك أو تتجنبوا عنه وتتبرئوا منه ، ومن حلمنا وعدم عجلتنا بقي عسكرنا كأنه في السجن منتظرا لأمرنا . وهذا هو العجب ، وقد امتلأ القلب وفاض المكيال ، وكل شيء له نهاية وكمال . وان هذا — والله — لم يقع بين الأجناس أصلا في الماضي والمستقبل . وصبرنا لم يكن عند ملك أبدا لأنا مراقبون أمر هذا الثغر ، وقد أردنا ابتسامة ، واطلعنا على جميع أحواله وفهمنا مراد أناسه ، ونظن أحد أمرين ، أولها ، أن السلطان مولاي عبد الرحمن أمركم بالكف عن الفساد وخالفتم أمره فليس لنا كلام مع السلطان المذكور ، ولكن ندخل بلادكم بالجند الموفور ، واما أن يكون أمركم بهذا خفية منا فهو العدو حيث قبل عدونا ، وحاشاه من ذلك ، ولاسيما أن الملوك إذا عاهدوا انجزوا ، واعلموا أن هذا ليس خوفا منكم ، إنما هو الواقع ، وفعلكم هذا يوافق الشريعة وربما لم يوافق جميع الأديان لخروجكم عن طاعة أميركم ، وهو دليل شركم بلا فائدة ، فأبشروا بخرابكم ، نطلب من الله تعالى ان ينبهكم من غفلتكم ويعرفكم بطاعة أميركم وتطردوا الأمير عبد القادر واتباعه ،

وننسَى كل ما فات ، ويتبدل الغضب بالرضَى ، والجوار أوصَى عليه الرسول ، وفي هذا كفاية والسلام[112] .

أما مولاي عبد الرحمن فقد حاول اقناع عبد القادر بمواصلة الجهاد انطلاقا من الصحراء تفاديا للمشاكل الناجمة عن عدم تطبيق مقتضيات اتفاقيتي طنجة وللا مغنية ، مستعملا معه سياسة الحكمة واللين «..لئلا يتعرض عليه القبائل الذين هو في وسطهم ويحدث الموت من الفريقين ، فيكبر الجفاء ويتمسك الذين دافعوا عنه به ويظهرون في العيب ويتمحضون للفساد ..»[113] .

ولكن عبد القادر أبَى واستكبر وراودته فكرة انشاء كيان سياسي لزعزعة العرش العلوي إذ «..رام الاستبداد بل والتملك على المغرب ... فصار يدعو أهل النواحي إلى مبايعته والدخول في طاعته ...» على حد تعبير الناصري[114] .

ومصداق ذلك : أولا ، ما ورد في رسالة ملكية إلى أهل انجاد وبني يزناسن في الوقت الذي كان الأمير محمد يطارد عبد القادر :

«...فقد وصلنا كتابكم مخبرين بما صدر من أعداء الدين من تعدي الحدود وما قابلتموهم به من الغلظة والقوة وأبديتموه من الحمية والأنفة وتوجيه جماعة منكم مع كتاب عاملكم ، ومخاطبته بالجد حتَّى رجع عن مراده واعترف بخطاه وتعديه ، وانصف للحق ، وصار ما دار بينكم وبينه منا على بال ، ذلك هو الظن بكم والمعهود من أهل الدين المتين ، المتبعين لسبيل المهتدين ، فلا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ، والله معكم ، والحق

---

(112) تحفة الزائر — ج 1 — ص. 482 إلى 484.

(113) رسالة من المولى عبد الرحمن إلى بوسلهام بن علي عامل العرائش — 13 شعبان 17/1261 — 8 — 1845. م.و.م.

(114) الاستقصا. — ج 9 — ص. 56.

يعلو ولا يعلى عليه ، والمؤمنون أقوياء بيقينهم ، موقنون بنصر دينهم ، مصدقون بوعد ربهم ، وكان حقا علينا نصر المؤمنين ، واعلموا أن نزول الحاج عبد القادر ودخوله بين أظهركم هو الذي جرأ أعداء الدين عليكم وجعل وجهتهم إليكم ، ولولا هو ما طرق حماكم ولا تعمد أذاكم لأنا عقدنا معه الصلح الذي فيه مصلحة الإسلام ، وسددنا بذلك باب الفتنة على الخاص والعام ، فإن ذلك الفتان جر البلاء لأهل الواسطة حتَّى جرأ عدو الدين عليها حتَّى جاس خلالها وكسر شوكة أهلها وزادهم انحياشا للكفر ، وتوغلا في الشر باجلابهم عليهم ونهب ما أبقت لهم الفتنة من أموالهم ، وحكم فيهم بحكم الطاغوت من استحلال الدماء والأموال ، وانتشار الفساد على العيال ، فإذا ظهرت له بارقة من الكفار لجأ إلى حوزكم واحتمَى بكم وجعلكم حجابا بينه وبينهم ليجر لكم الفتنة والوبال ويرميكم كما رمَى من قبلكم بالمحنة والخبال ، وأنتم عن دسائسه ساهون وعن مكره بكم لاهون ، ولو عقلتم رشدكم وحفظتم عهدكم لكان اعدَى الأعادي إليكم ولعاجلتموه بالقتال والدفاع عن حوزتكم ، واخرجتموه واتباعه عن بلادكم ، ليطيب لكم العيش ولا يطرق الرومي حماكم بعسكر ولا جيش وحتَّى لو ظهر من الرومي نقض لامددناكم بجيوشنا المنصورة وعاجلناكم بنصرتنا المشهورة ، مع أنكم تجدون من العدو من الوفاء ما لا تجدون في تلك الشرذمة الفاسدة والفئة الكاسدة ، فلا تظنوا بهم حمية ولا دفاعا ، ولا تعتقدوا فيهم نصرة ولا انتفاعا ، وانظروا ما تكرر على أسماعكم من وقائع غدره وما رمَى به المنحاشين إليه من ظلمه وضره ، تعلمون ما يريد بكم ولكم ، وما هو جار من سخط الله إليكم ، فقد كاد أن يزلزل يقينكم ، ولو ساعدتموه لبدل دينكم ، فإنه حملكم على مخالفة من أوجب الله عليكم طاعته ، وبيعته في أعناقكم ، وجرأكم على عدم امتثال أمره مع اعترافكم بالسمع والطاعة في حال خلافكم ، هذا ما فعل الشيطان أنه عدو مضل مبين ، فتيقضوا لدسائسه

وأستعيذوا بالله من وساوسه ، وأصرموا حباله ومن معه وأخرجوهم ، وضيقوا عليهم بمنع الأسواق وأخرجوهم لتعود عليكم بركة الامتثال وتفوزوا برضى الكبير المتعال ...»[115] .

ثانيا ، كان عبد القادر يستعمل الدسائس كي تضرب قبائل شرق المغرب بعضها بعضا لتوطيد سلطته عليهم .

يقول صاحب تحفة الزائر أن أباه كان «...يدوخ النواحي التي هو مقيم فيها .... بطش باهل الفساد ومهد ما قرب منه ومد يده إلى إقامة الأحكام الشرعية فيهم وأخذهم بالرهبة ، وبالغ في ذلك حتّى لاذوا بالطاعة وتذرعوا بالخضوع ...» بدعوَى أن هذه الأراضي «...لا تنالها الأحكام منذ أحقاب ..»[116] وقد زعم أيضا أن الأمير مولاي عبد الرحمن بن سليمان كان من شيعته[117] .

ثالثا ، أنه صمد أمام الجيش الذي قاده محمد بالأحمر في وقعة تافرسيت بجبال الريف الشرقية ، في ليلة 6 — 7 يونيو 1847[118] .

رابعا ، ان قبيلة بني عامر الجزائرية التي كانت تتمتع بإقطاعات فلاحية مخزنية شرقي مدينة فاس ، كانت لها اتصالات مريبة معه أدت إلى إعلان عصيانها للمخزن لما توجه عبد القادر إلى ناحية تازة لغرض في نفسه ، فدار بينها وبين الجيش المغربي الذي كان يقوده ابراهيم بن أحمد الأكحل قتال شديد انكسرت فيه انكسارا ماحقا[119] . وعلى اثر ذلك تحركت

---

(115) اتحاف اعلام الناس — ج 5 — ص. 62 إلى 64.

(116) تحفة الزائر — ج 1 — ص. 490.

(117) المصدر السابق. ص. 489.

(118) المصدر السابق. ص. 489 — 490.
P.C. Brissac. op.cit. p.156.

(119) المصدر السابق. ص. 491 — 492.
— الاستقصا. ص. 56.

محلتان بقيادة الأميرين محمد وأحمد لمطاردة عبد القادر وانهاء الفتنة التي تسبب فيها . فلجأ هذا الأخير إلى خطة ذكية وماكرة إذ أخبرهما أنه لا يضمر أي شر للعاهل المغربي وأنه تحت طاعته . وفي ليلة 4 محرم 1264 / 12 ـ 12 ـ 1847 ، هجم عليهما قرب سلوان ثم لاذ بالفرار تاركا المحلتين المغربيتين مشتبكتين في ظلام دامس[120] .

ويبدو أن هذا العناد من طرف عبد القادر كان بمثابة الدفاع عن النفس بعد أن أيقن الناس باطماعه ودسائسه مما جعله يرسل خليفته أبو عبد الله البوحميدي إلى فاس صحبة قائد قبائل الأحلاف ـ محمد بن عبد الرحمن ـ الذي لعب دورا كبيرا في المجال السياسي أدّى إلى عزل عبد القادر عن مناصريه من القبائل الشرقية الذين بدءوا يتسللون لواذا بل ينقلبون ضده ويطاردونه إذ لم يبق معه وقتئذ سوَى ألفين من المشاة وألف ومائتي فارس[121] .

ولقد كاد يسقط في قبضة الجيش المغربي الذي اقتفَى أثره قرب نهر ملوية ثم هزمه هزيمة نكراء بموقع مشرع الرحائل[122] فقصد الزاوية البوتشيشية في جبل تغجيرت ليحتمي بشيخها المختار القادري الذي كان من أصدقائه «...فظن فيه أنه يقوم بشأنه فإذا به رأَى منه ما أنكره وبلغه عن قومه ما أنذره وحذره ..»[123] .

ولا غرابة في هذا الموقف من جانب بني يزناسن الذين كانوا متشبثين

---

(120) المصدر السابق. ص. 57.
ـ تحفة الزائر. ص. 494.
I.Hamet. op.cit. pp.146-147.
(121) المصدر السابق. ص. 492 ـ 493 ـ 495.
ـ الاستقصا. ص. 56.
(122) المصدر السابق. ص. 57.
(123) تحفة الزائر. 497.

بالطاعة للعاهل المغربي ادراكا منهم بواجب التزام البيعة التي في أعناقهم وشعورا منهم بالارهاصات الخطيرة التي تهددهم في الآفاق من جراء مجاورتهم للغزاة الفرنسيين لاسيما إذا تفرقوا شيعا وأحزابا .

ولاشك أن هذه الحمية الوطنية الشامخة التي لا تصمد أمامها أطماع الدخلاء والمغامرين أذهلت عبد القادر فولى وجهه شطر ميناء الغزوات حيث استسلم لحاكم الجزائر Duc D'Aumale في 23 / 12 / 1847 [124] .

ومهما يكن الاختلاف في الرأي حول الأحداث السابقة فإن السلطات المغربية أكرهت على خوضها للمحافظة على سيادة وأمن البلاد سدا لتطلعات المغامرين سواء كانوا من الأجانب أو من ذوي القرابة في اللغة والعرق والدين ، هذا ، مع الحرص على الوفاء بواجب الجوار وعلى رعاية حقوق الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق .

ولا تعوزنا البراهين على استمرارية وأصالة هذه الشيم السامية من جانب المغاربة ، منها الرسالة الملكية المؤرخة في 22 محرم 1264 / 30 ـ 12 ـ 1847 التي قرئت على منابر المساجد :

«...فإن الفاسد الفتان وخليفة الشيطان أبعد في الجسارة وامتطَى مطَى الخسارة واستوسع سبيل العناد واستضل سبيل الرشاد ، وقال من أشد مني قوة ، وسولت له نفسه الأمارة الاتصاف بالامارة ، وأراد شق عصا الإسلام وصدع مهج الأنام ، فاعلن بكل قبيح واستشكل كل صريح ، واستبطن المكر والخداع ، ووفاق فيه عابدي ود وسواع ، وشاع في طرف الإيالة ضرره ، وساء مخبره ، وهو في خلال ذلك يظهر مظاهر يستهوي بها

---

(124) المصدر السابق. ص. 500.
ـ الاستقصا. ص.57.
P.C. Brissac. op.cit. p.169.

أهل الجهالة والعماية والضلالة ، فأيسنا من رشده وعرفنا مضمر قصده فجهزنا له محلة منصورة ذات اعلام منشورة ، جعلنا في وسطها ولدنا الأبر سيدي محمد ، أصلحه الله وأسندنا إليه أمرنا ، وقلدناه تدبيرها وعهدنا إليه أن يسعَى في حقن الدماء جهد الامكان ، ويحتال على إقامة أود هذا الفتان ، وأن يعالج داءه بكل دواء ، وأن لا يتبع فيه الاغراض والأهواء ، وأن يجعل القتال آخر عمله ، وعدمه غاية أمله ، فلما رأَى عدو نفسه احاطة الجيوش به وجه وفدا من قبله يدعي التوبة فيما مضَى والكون على وفق المقتضَى ، فأجبناهم بأن أحب الحديث إلى الله أصدقه ، وان صاحبكم هذا ان أراد الخير لنفسه واحتاط لدينه وعمل لرمسه يختار أحد أمرين : اما أن يدخل لإيالتنا هو ومن معه آمنين على أنفسهم ومالهم ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا أو يصحر ، فطلبوا منا الامهال حتَّى يوجهوا بعضهم يخبرونه بالملاقاة ، ويستدركون الأمر قبل الفوات ، فأجبناهم إلى ذلك ، فما وصلوا حتَّى ضرب على المحلة ليلا ، فرده الله بالخيبة وأشوه أوبة ، وترك قتلاه صرعَى بعدما حمل منهم عددا وجعل يدفن منهم في قفوله ، ويخفي ما حل به في أفوله ، فتقدمت إليه المحلة الغالبة بالله وقاتلته قتالا أذاقته فيه الوبال والخبال ، فكانت الكرة عليه فاجفل اجفال النعام واستدبر المعركة وهام ، ومات من خاصته ورؤسائه وأهل شدته وذوي بأسائه عدد معتبر ، ومن هو أدهَى وأمر ...»[125] .

4 – المقاومة الشعبية للاعتداءات الفرنسية على شرق المغرب : 1852 – 1859 .

أشرنا سابقا إلى المخلفات السياسية التي تركتها أزمة 1844 والتي خاض فيها الخائضون بجانب عبد القادر الجزائري والتي ستكون – بالإضافة إلى المخلفات النفسية والاقتصادية – من العوامل المؤثرة على علاقات الأهالي

---

(125) الاستقصا. ص. 58 – 59.

مع السلطات الفرنسية المجاورة لهم طيلة النصف الثاني من القرن 19[126].

فقد كانت المشاكل تتراكم سنة بعد أخرى من جراء تشابك المصالح بين القبائل التي كانت، في غالب الأحيان، تنتجع أراضي جماعية مشتركة وتضطر في المواسم العجاف إلى النزوح إلى مناطق أخرى، في النجود العليا وفي السهول، إلا أن جوار بلد مستعمر ضيق هذا المجال بالتقنين تارة، وبفرض الرسوم المالية تارة أخرى وبالارهاب والاعتداء في أغلب الأحيان. ولذلك كانت الحياة في الأماكن المتاخمة للحدود المغربية الجزائرية شبيهة بحياة الاستنفار والتأهب لمواجهة أخطار مرتقبة أو مؤكدة الحدوث.

فعلى اثر الهجومات التي شنها جيش القائد ميمون ولد القائد البشير الوريمشي (1846 — 1863) على أولاد ملوك ببني واسين لرد الصاع صاعين، حشد الجنرال De Montauban في 10 أبريل 1852 ستة آلاف من المشاة وأكثر من ألف فارس وفرقة من المدفعية قرب مناصب كيس ثم اكتسح ديار بني ادرار ولمزاوير بالجرف الأحمر وبفج الكربوس، وأولاد الغازي وأولاد ابن عزة باغبال وسيدي ميمون، وقبيل الظهيرة تراجع إلى التراب الجزائري محملا بالغنائم المتنوعة[127].

ورغم احتجاجات العامل محمد بن الطاهر أعاد الكرة في 14 — 15 ماي بمنطقة أغبال، وفي 15 يونيو قرب فج تيزي على لافراغ مطامير زاوية أولاد سيدي رمضان فتلاحم المجاهدون بالمعتدين التحام الأبطال وألقوا عليهم الصخور الضخمة من المرتفعات فدكوهم دكا وكسروا شوكتهم.

---

(126) انظر الوثيقتين الاضافيتين رقم 1 — 2.

(127) L. Voinot. La Campagne de 1852 contre les Beni Snassen. Revue Africaine. 1912. 4è Tr. pp.572 à 575.

وفي 24 يونيو أحرقت عدة قرى بأولاد المنكار وأولاد الغازي بعد مقاومة شديدة من طرف المجاهدين الذين جاءوا من قبائل بني وريمش وبني أدرار وأولاد المنكار وبني خلوف وبني مريسن وأهل تغجيرت ... ولقد تزامنت هذه الحملات العدوانية مع موسم الحصاد فنهبت المحاصيل وفرقت جموع الحصادين بسهل اتريفة[128] .

وبما أن قبائل بني يزناسن كانت تتحمل أكثر من غيرها ، عبء المقاومة ضد الفرنسيين فقد كانت تطالب سكان المدن والقرَى بالمساهمة المادية فيها ، بل تفرضها عليها بالقوة مثلما وقع في 1853 ، 1854 ، 1855 إذ هجم القائد الحاج ميمون على وجدة عدة مرات ، وفي سبتنبر 1854 فرض عليها غرامة قدرها 20 ألف فرنك مما جعل بعض الأعيان يلتمسون الحماية الفرنسية[129] .

والظاهر أن القلاقل بين قبائل المنطقة كانت ترجع لنفس السبب : ففي أواخر يوليوز 1855 تكتلت بنو يزناسن مع بني بوزكو ولمزاوير وجعوانة ضد أولاد أحمد بن ابراهيم وأولاد علي بن طلحة ولمهاية والزكارة وبني يعلة[130] .

وفي غشت 1856 انهزمت بطون أولاد المنكار وأولاد الغازي من بني خالد أمام بني منكوش واضطرت إلى إقامة مؤقتة في وسط قبيلة امسيردة بالجزائر[131] .

ومن الطبيعي أن هذه الوضعية لم تكن لتسهل العلاقات الرسمية بين

---

(128) Ibid. pp. 576 à 584.

(129) L. Voinot. Les Actes d'hostilité des Emigrés et des Marocains surtout des Beni Snassen et les Opérations effectuées par les Français, notamment en 1856. Revue Africaine. 1914. 2è Tr. pp. 220 à 226.

(130) Ibid. p.226.
ان قبيلة جعوانة كانت في منافسة شديدة مع بطون أولاد علي بن طلحة من أجل الجاه والقيادة. المصدر السابق. ص.270.

(131) Ibid. pp. 236-237

الادارتين المتجاورتين لاسيما في موسم جباية الضرائب :

فها هي 14 خيمة من بني بوسعيد تستنكف عن أداء الضريبة السنوية للفرنسيين وتلتجئ في ماي 1854 قرب وجدة[132] .

وفي يناير 1855 استعمل العامل قدور بن غادي القوة مع قبائل انكاد لنفس الغرض فسجن شيوخهم محمد بن خدة ، الشيخ عيسَى والحاج الميلود ثم أطلق سراحهم بفضل وساطة وشفاعة السي حمزة ، شيخ زاوية كافايت[133] . أضف إلى ذلك أن السلطات الفرنسية كانت تتخذ اجراءات تعسفية ازاء المغاربة كلما هاجرت إليهم بعض القبائل الجزائرية . ففي صيف 1856 سلبت دورية عسكرية لقبيلة لمهاية عددا من الابل بدعوَى أنها ساعدت هجرة خيام لبني اسنوس وبني واسين إلى المغرب[134] .

وفي أكتوبر من نفس السنة انتقم من لمزاوير على اثر نزوح أولاد سيدي امجاهد نحو انكاد[135] ثم توالت الانتقامات من الجانبين لاسيما وان بعض المهاجرين الذين تركوا أموالهم وممتلكاتهم في وطنهم أبوا إلا أن يشكلوا عصابات مسلحة للاغارة على عربات المسافرين بناحية للا مغنية مما خلف عدة ضحايا مدنيين من بينهم يهوديان خلال 1857[136] .

وامام عدم فاعلية الاحتياطات الأمنية فإن الدوائر العسكرية الفرنسية قررت أن تضرب العصاة في عقر دارهم ، وبالذات جماعات الأعشاش التي هاجرت في نونبر 1857 من منطقة الغزوات ، فأغارت عليها كتيبة من الخيالة بكرة يوم 26 مارس 1858 قرب وادي تزغين وسلبوا منها 17

---

(132) Ibid. pp. 222-261.
(133) Ibid. pp. 224-269
(134) Ibid. p.234.
(135) Ibid. pp. 239 à 241.
(136) Ibid. pp. 255 à 257.

بعيرا + 200 رأس من البقر + 240 رأس من الغنم ، ثم لاذت بالفرار مطاردة من طرف فرسان من لمزاوير وبني يزناسن والأعشاش إلى عين اغبال[137] .

وعلى أية حال فإن المغاربة كانوا يعملون كل ما في وسعهم لتسهيل المقام للمهاجرين الجزائريين تحديا للمحتلين الفرنسيين وجريا على تقاليد المروءة والكرم .

ففي منتصف نونبر 1855 حينما توجهت 20 خيمة من قبيلة لكفاف من للا مغنية إلى المغرب طاردتها قوات العدو إلى جبل حرازة وتمكنت من بسط يدها على مواشيها وأمتعتها بينما فر جل أفرادها ، بعد جهد جهيد ، إلى عين الركادة حيث منحهم شيخ زاوية أولاد سيدي رمضان ، محمد المكي ، أراضي فلاحية ليستغلوها[138] .

أما العامل قدور بن غادي فكان يستقبل رؤساء البطون المهاجرة بحفاوة بالغة ويحثهم على الاستقرار بين ظهراني اخوانهم في الدين[139] .

ونظرا لهذه المواقف وطالما أن المقاومة الشعبية تواصلت ، في شكل من الأشكال ، بدون هوادة ولا فتور ضد التوسع الاستعماري في التخوم المغربية الجزائرية فإن الضباط الفرنسيين جهزوا حملة مكثفة في صيف 1859 أي بعيد انتهاء الحرب في ايطاليا التي كانت لها انعكاسات سلبية على الوجود الاستعماري بالجزائر حيث لم ترابط بها إلا حاميات قليلة العدد والعدة والخبرة مما خيل للأهالي أن الوجود الفرنسي على شفا جرف هار

---

(137) Ibid. pp. 257-258.

(138) Ibid. pp. 226 à 228.
فكرت السلطات الفرنسية في الانتقام من الشيخ محمد المكي بحجز ممتلكاته في الجزائر، لكنها اكتفت بتوجيه رسالة تهديدية إليه.
المصدر السابق. ص. 234.

(139) Ibid. p.235.

وأنه سينهار عما قريب لاسيما وأن ألسنتهم كانت تتلقف أسطورة تنبئ بهذا الانهيار بعد ثلاثين سنة من الغزو الفرنسي للجزائر ، أي في 1860 (140).

ولم يخف على أحد أن أحد مشايخ الطريقة الوزانية السي محمد بن عبد الله كان يحث الناس على الجهاد في عمالة وجدة بتنسيق مع القائد الحاج ميمون الوريمشي ، وهذا تسبب في اشتباكات كبدت القوات الفرنسية خسائر مرعبة في 31 غشت في ازوية ، وفي فاتح سبتنبر في سيدي زاهر ، وفي 11 سبتنبر 1859 في تيولي قرب ضريح سيدي ابراهيم (141) . وهناك عوامل أثرت على مجرَى الأحداث :.

العامل الأول هو وفاة السلطان مولاي عبد الرحمن بمكناس في 29 غشت 1859 .

والعامل الثاني تمثل في التهديدات الصادرة عن اسبانيا على اثر حوادث دموية قرب مدينة سبتة والتي ستفضي إلى حرب مكشوفة وإلى احتلال استعماري لمنطقة تطوان في بداية عهد سيدي محمد .

ومن جراء ذلك يتجلى العامل الثالث الذي وحد مصالح فرنسا واسبانيا لتقليص السيادة المغربية في عمليات عسكرية متزامنة ومتشابهة في حجمها وضراوتها ومقصدها بعد تنسيق في الميدان الدبلوماسي وفي مجال التشاور بين سلطات مليلية وسلطات وهران .

أما العامل الرابع فيكمن في موقف القنصل الفرنسي Gustave De Castillon الذي كان يحتج من حين لآخر لدَى الحكومة

---

(140) Etude sur la Campagne de 1859 contre les Beni Snassen. Revue d'Histoire. Février 1908. pp.271-272.

(141) Ibid. pp. 272 à 274.
- L. Voinot. Le Développement et les Résultats de la Crise de 1859 dans les Confins Algéro-Marocains. Revue Africaine. 1918. 3è et 4è Tr. pp. 343-355 à 364.
اتهم المستعمرون العامل قدور بن غادى بأنه يساند المجاهدين في كفاحهم ضدهم لأنه سمح لهم بالطواف في أزقة مدينة وجدة برؤوس القتلى الفرنسيين والجزائريين وبيع الغنائم في أسواقها اثر معركة سيدي زاهر في فاتح سبتمبر 1859 التي شاهد وقائعها من بعيد.
- Revue d'Histoire (Fév. 1908) op.cit. pp. 273 et 466. (Mar)

المغربية ويحملها عواقب الأحداث الجارية في شرق المغرب وفي نفس الوقت كان يلتمس من الدوائر العسكرية بالجزائر استعمال القوة واستغلال ظروف مواتية في جوانب شتّى[142] . ولذلك لم يتوان الجنرال De Martimprey في اعداد العدة وحشد القوات قرب وادي كيس في شتنبر وأكتوبر 1859 ، ثم رتبها على الشكل التالي :

فرقة من المشاة بقيادة الجنرال Walsin Esterhazy قوامها 185 ضابطا + 6339 جنديا + 305 فرس أو بغل .

فرقة أخرى من المشاة بقيادة الجنرال يوسف قوامها 137 ضابطا + 4569 جنديا + 234 فرسا أو بغلا .

فرقة الخيالة تحت امرة الجنرال Desvaux مؤلفة من 116 ضابطا + 1913 جنديا + 1993 فرسا أو بغلا .

فرقة المدفعية تعتمد على 16 مدفعا + 15 ضابطا + 604 جنود + 530 فرسا أو بغلا .

وإذا أضفنا إلى هذه الاعداد الهائلة المشرفين على المرافق الصحية والادارية وغيرها يبلغ تعداد الحملة كلها 566 ضابطا + 14.777 جنديا + 4807 فرسا أو بغال[143] .

أما المؤن والميرة فإنها جلبت من عدة جهات ، وحتّى من موانئ ايطاليا — جنوا ... — إلى ميناء الغزوات الذي عرف نشاطا عظيما سواء قبل أو بعد العمليات العسكرية[144] .

ورغم تفشي داء الكوليرا الفتاك في هذه الحملة في منتصف أكتوبر إذ

---

(142) Revue d'Histoire. Fév. 1908. op.cit. pp. 278 à 280-317.

(143) Ibid. pp. 282-283.

(144) Ibid. p. 296.

بلغت الوفيات في 20 أكتوبر 116 ، فقد تحركت نحو أهدافها في 21 أكتوبر ، وعسكرت في المساء في عين اجراوى قرب عدة آبار من الماء الصافي ، ثم في اليوم الموالي توجهت نحو قرية محمد أوبركان التي تقع على الضفة اليمنى لوادي تزاغين ، في غابة كثيفة من الأشجار ، فوصلت إليها في الظهيرة بينما تعرضت طلائع الخيالة لنيران بني يزناسن . أما آثار المرض القاتل فقد خلفت في هذا اليوم 226 ضحية[145] .

وفي 23 أكتوبر الذي كان يوما ممطرا ، اكتفى العدو بارسال الجنرال Deligny لرصد الطريق المؤدية إلى تافوغالت ، فجاءت مجموعة من المشاة المجاهدين لمناوشة معسكر محمد أوبركان ثم تراجعت إلى الجبال .

ومن 24 إلى 26 أكتوبر تم بناء قلعة محصنة في شكل مثلث بالمعسكر المذكور لايواء التعزيزات العسكرية والمؤن المتنوعة الواردة من قاعدة كيس[146] .

غير أن هذه الأعمال الشاقة انهكت الجنود فتفشت فيهم الأسقام وامتلأت المستشفيات بالمرضى بينما كانت الوفيات تزداد يوما بعد يوم بسبب داء الكوليرا .

وإذن ، كانت الحياة في المعسكر شبيهة بالجحيم الذي لا يبقي ولا يذر .

فمن المشاهد المرعبة أن الفرق الخاصة بحمل الموتى على البغال كانت تمر أمام خيام المعسكر عدة مرات في اليوم ، ثم تضع أكثر ما يمكن من الجثث على تلك البغال وتسترها بغطاء سميك ثم تتجه نحو هدفها ، — وقد لا يعبأ السائق بالجثث التي تسقط على الأرض أثناء الطريق — أي نحو

---

(145) Ibid. p.116-293. Mars 1908. p.429.

(146) Ibid. Mars 1908. pp. 433 à 440.
- L. Voinot. Revue Africaine. 1918. op.cit. pp. 376-377.

الأخاديد التي حفرت ليلة أمس تحسبا لوفيات الغد ، ثم تفرغ فيها حمولتها ...[147] .

وهنا يتبادر إلى ذهننا سؤال : لماذا لم يعرقل سير الحملة العدوانية في سهل اتريفة بكيفية جدية من طرف المغاربة ؟

يبدو لنا أن هؤلاء كانوا على اطلاع كامل بأهمية الجيش الفرنسي لا من ناحية الكثافة ولا من ناحية العدة ، وخصوصا المدفعية التي كانت تعتبر السلاح الحاسم في المعارك الكبرَى السابقة ، كمعركة اسلي .

وإذا عرفنا أن الطقس الممطر آنذاك لم يفسح المجال لهجومات الخيالة التي كانت تضم حوالي 4 آلاف فارس فلم يكن لديهم سوَى خطة واحدة : وهي التراجع إلى المناطق الوعرة لاستحكام الاستعدادات وإعاقة حركة العدو جهد المستطاع بمناوشات سريعة لربح الوقت واستنفار الهمم والطاقات ، ولذلك فالمقاومة الحقيقية دارت في منحدرات وشعاب ووديان جبال بني يزناسن ابتداء من يوم الخميس 27 أكتوبر / 30 ربيع الأول 1276 .

ففي صباح هذا اليوم ، على الساعة 9 + 30د انطلقت الحملة نحو أهدافها المرسومة وحسب الترتيب التالي :

في المقدمة ، كتيبتان من المشاة وأصحاب المدفعية ، الأولى بقيادة الجنرال Deligny كلفت بالسير في المحج الواسع الذي يؤدي — على مسافة 20 كلم — من بركان إلى فج تافوغالت الذي يبلغ ارتفاعه 1.200م .

---

(147) Revue d'Histoire. Mars 1908. op.cit. p.431.
- Capitaine Filliozat Michel. Expédition du Maroc de 1859.
Souvenirs et Impressions d'un Chasseur d'Afrique. La Dépêche Coloniale. N°5215-5218. Juin 1912. Sept Pages.

والثانية بقيادة الجنرال Archinard اسندت لها مهمة تعزيز الكتيبة الأولى – على مسافة 12 كلم – ، أي إلى وادي تاكما ، ثم الاستيلاء على قرى أهل تاكما (أونوت . معبورة . أولاد عبد الصادق . أولاد بلقاسم . أولاد بلخير . أولاد يعقوب . تملالت) الواقعة على يمين الطريق المذكور والمحاطة ببساتين غناء في سفوح منحدرات شاهقة .

ونظرا لطبيعة المعركة التي سيخوضونها فإن هؤلاء المشاة كانوا لا يحملون إلا بنادقهم وخمسين خرطوشة وزادا خفيفا .

أما فرقة الخيالة فقد اتجهت بكرة غربي محمد أوبركان للقيام بمهمة تمويهية لصرف أنظار الأهالي عن المقصد الرئيسي . فخربت الخيام والديار في ناحية بوغريبة وبثت الرعب في الصدور ثم التحقت بمؤخرة الجيش في وادي تاكما الذي اندلعت فيه المعركة على الساعة الثانية ظهرا . فاصطدمت مقدمة الحملة بنيران قوية من كل جهة . ولم يكن في استطاعتها أن تتقدم لولا مدفعيتها التي كانت تركز قذفاتها على جيوب المقاومة وعلى الحواجز المختلفة التي نصبت في طريقها[148] ، ورغم ذلك فكان يخيل إليها كأن عدوها وراء كل صخرة أو شجرة وفي كل شعبة أو مغارة ، فأصابها الارتباك والذعر لاسيما حينما بدأ المجاهدون يزعزعون عددا كبيرا من الصخور الضخمة في المنحدرات والمرتفعات فتنهال على فلول المعتدين وتدكهم دكا[149] .

وهذا يدل على استبسالهم في ساحة الوغى والشرف إذ صمدوا إلى الساعة السابعة مساء ، ولعله يدل كذلك على قلة أو نفاذ ذخيرتهم[150] .

---

(148) اشاد الجنرال Martimprey بالدور الكبير الذي ادته المدفعية بقيادة الكولونيل ميشل في مراسلة إلى وزير الحرب مؤرخة في 29 – 10 – 1859. Revue d'Histoire. Mars 1908. op.cit. p.449.

(149) كاد الجنرال Esterhazy يلقى حتفه بسبب سقوط هذه الصخور الضخمة على حاشيته. المصدر السابق. ص. 449

(150) في الوقت الذي كانت تدور فيه معركة وادي تاكما هاجمت فرقة من فرسان بني يزناسن على القاعدة الخلفية للعدو بمحمد أو بركان. المصدر السابق. ص. 452.

ولالانة شكيمتهم وفل شوكتهم اضطر الضباط الفرنسيون حين رأوا جنودهم يستلقون على الأرض من شدة التعب ، إلى اغرائهم بالترقية العسكرية إذا استمروا في القتال واستولوا على تلك الربوة أو ذلك الفج ، مما جعلهم يصلون – بفضل التضحيات الجسام – إلى قرية تافوغالت[151] .

وفي 30 أكتوبر جاء إلى هناك القائد الحاج ميمون ليتفاوض مع الجنرال Martimprey واتفق معه على أداء مائة فرنك غرامة عن كل مقاتل ، على أساس عدد من المقاتلين قدر بحوالي اثني عشر ألف ، وارسال ثلاثة عشر من أعيان قبائل بني يزناسن – كرهائن – إلى تلمسان (واحد من بني وريمش ، اثنان من بني منكوش ، أربعة من بني عتيك ، ستة من بني خالد)[152] .

ولم يكتف الجنرال الفرنسي بهذا المكسب ، بل أراد أن يوطده بتمديد مدة احتلاله لتافوغالت إلى 4 نونبر لاظهار القوة والمهابة في الأماكن التي مر بها أو سيمر بها جيشه ، فكلف الجنود باصلاح المسالك الرئيسية التي تربط تافوغالت بسيدي بوهرية وبكيس عبر بركان[153] . وقد ساعدهم في

---

(151) المصدر السابق. ص. 441 إلى 451.

(152) المصدر السابق. ص. 451.

L. Voinot. Revue Africaine. 1918. op.cit. p.318.

(153) Revue d'Histoire. Mars 1908. op.cit. p.455.

تمتاز منطقة تافوغالت بمناظرها الطبيعية الخلابة وغاباتها الكثيفة وبساتينها المنبثة في منحدرات الجبال ومنعرجات الأودية، وتمتاز أيضا بالمغارات والكهوف التي يقصدها السياح والزوار. ولقد دلت الاكتشافات الاثرية التي اجراها بعض الباحثين في مغارة الحمام التي تبعد عن تافوغالت بأقل من كلمترين ان مجموعات بشرية استقرت بها منذ ما يناهز مائة ألف سنة وتركت عددا هائلا من الحلي والملونات والأدوات المنزلية وآلات القنص كالخطاطيف والمثاقب وبقايا من رفات وعظام حيوانات انقرضت شيئا فشيئا بسبب تغير المناخ كالفيلة والكركدان والأسود والأدباب والبقرات الوحشية والظباء والأروية، والنعامات ... وفي احدى زوايا هذه المغارة التي تعرف عند الاهالي باسم افرى أو نجار (غار النجار) – نسبة إلى قبيلة انجاجرا – عثر على 180 قبرا وضع بعضها فوق بعض حسب طقوس دينية مجهولة.

وفي منتصف الطريق الرابطة بين قرية تافوغالت ومدينة بركان توجد مغارة اخرى تحمل اسم مغارة الجمل لأنها كانت تحوي هيكلا حجريا ضخما يشبه سنام الجمل. =

ذلك الطقس الجميل الذي ساد في هذه الآونة . ولا يعزب عنا ما لهذا الاجراء من انعكاسات على المنطقة إذ كان تمهيدا لبسط النفوذ الاستعماري بشكل ودي في الميدانين التجاري والسياسي أو بشكل عدواني في المجال العسكري .

ونعتقد أنه لم يكن من قبيل الصدفة أن يتصل الأمير سليمان بن عبد الرحمن بن سليمان بقائد الحملة الفرنسية ـ في 2 نونبر ـ ليلتمس منه المساعدة ضد السلطان محمد الرابع ، فاستقبل بنوع من البرودة بمحضر أعيان بني يزناسن ، منهم الحاج ميمون ، ثم وجه إلى الجزائر حيث مكث بها عدة أسابيع (154) .

ومن جهة أخرى فقد كان من أهداف الغزو الفرنسي ردع قبائل لمهاية وانكاد والزكارة مثلما فعل بقبائل بني يزناسن . ومن أجل ذلك قصد الجنرال Desvaux قصبة لعيون سيدي ملوك مساء يوم 3 نونبر لاعتراض الظاعنين منها نحو الغرب ضمن عملية مشتركة مع فرقة الجنرال Durrieu التي تحركت من قاعدة سبدو بالجزائر (155) يوم 4 نونبر لمطاردة الأهالي الذين نزحوا إلى الهضاب العليا بمواشيهم ودوابهم وأموالهم لما سمعوا باشهار مقاومة بني يزناسن .

■ ومما يلفت النظر والانتباه أن المغارتين تختلفان من حيث الشكل والعمق والمساحة : فبما ان شكل مغارة الحمام مجوف فإن عمقها الذي يبلغ 35م يساوي تقريبا طولها بينما اثبتت بعض التحريات أن مغارة الجمل تتصل بكهف وادي صفرو ـــ قرب عين الصفاء ـــ الذي يبعد عنها بعشرات الكلومترات عبر سراديب وعرة ومظلمة وملتوية.

ـــ تحقيق المؤلف. مقال L'Abbé Jean Roche. La Grotte de Taforalt. Bulletin de la Société d'Histoire du Maroc. 1970/71. N°3. pp. 7 à 13.

(154) Revue d'Histoire. Mars 1908. p.456.

(155) دليل آخر على التدبير العسكري الذي قلما يعتمد على معطيات الصدفة : في 3 نونبر باغت Cdt De Colomb مجموعات من قبائل بني كيل ـــ فرقة اولاد علي بالاحسن ـــ، أولاد رمضان، اولاد ابراهيم، أولاد مولود ..، في الكارة واستولى على 26 فرسا 33 حمارا + 49 بقرة + 803 بعير وحوالي عشرين ألف رأس من الغنم التي مات تقريبا خمسة آلاف منها في الطريق بسبب العطش وبعد الشقة. Ibid. pp.463-475-476.

أما بقية الجيش التي فقدت حوالي ثلاثة آلاف من رجالها من جراء داء الكوليرا فنزلت من تافوغالت إلى سهل انكاد عبر سيدي بوهورية مع الجنرال Martimprey صباح نفس اليوم في شكل مجموعتين :

الأولى انطلقت على الساعة 6 ــ 30د والثانية على 8 ــ 30د فعسكرتا بسيدي بوهرية ثم في 5 نونبر قصدتا جبال الزكارة حيث التقيتا بكتيبة الجنرال Desvaux في قرية سيدي امحمت التي تركها أهلها بعد أن ناوشوا طلائع القوات الغازية(156) .

ولقد كان لمرور تلك الحشود العسكرية أعظم الأثر على حياة الأهالي بسبب اعمال النهب والتخريب التي ارتكبتها . فنرَى مثلا فرقة الخيالة التي انفذها الجنرال Durrieu تفاجئ أكثر من خمسين دوارا من قبائل أولاد اعبيد وأولاد كرى وأولاد علي بن طلحة وأولاد العباس وأولاد حسان وجعوانة في فم مطروح ، فتجوس خلال مؤخرتهم وتقتل وتنهب بوحشية فريدة ثم ترجع بأكثر من ثلاثين ألف رأس من الغنم وألفين رأس من الابل بعدما خلفت مشهدا رهيبا لأن الذين نجوا من هذا العدوان فمنهم من فز بنفسه وأهله تاركا وراءه ماشيته ودوابه التي تأثرت بالتنقلات المستمرة من جراء المضايقات الفرنسية وانهكها التعب والعطش فبدأت تسقط على الأرض الواحدة تلو الأخرى(157) . وهذا دفع أعيان لمهاية وأنجاد إلى التماس الأمان من الضباط الفرنسيين مقابل غرامة باهضة مقدارها أربعين ألف فرنك(158) .

وبطبيعة الحال فإن الاحتجاجات المغربية على الصعيد الرسمي ذهبت

---

(156) Ibid. pp.457 à 461.
L. Voinot. Revue Africaine. 1918. op.cit. pp. 378 à 380.

(157) Revue d'Histoire. Mars 1908. op.cit. pp. 462-478.

(158) Ibid. p.463.
L. Voinot. Revue Africaine. 1918. op.cit. pp.382-383.

ادراج الرياح ولم يكن لها أية أهمية لا لدَى الحكومة الفرنسية ولا لدَى الجنرال Martimprey الذي رد الوفد المبعوث من طرف عامل وجدة خائبا قبل تنفيذ العدوان ، بل أمر بالقاء القبض على العامل نفسه الذي قصد معسكره بواحة سيدي يحيَى في 10 نونبر ، فحمله على باخرة من الغزوات إلى طنجة بسبب موقفه الحازم وروحه الوطنية العالية . ولا عجب في هذا التصرف الفظيع الذي كان من عوامل الحرب النفسية التي كان لها مفعولها في ذهن أهالي شرق المغرب[159] والتي تجلت أيضا في النصبين التذكاريين اللذين نصبهما الجيش الفرنسي في موقع معركة اسلي الشهيرة في 9 نونبر 1859 ، الأول على تلة سيدي محمد بن عبد الرحمن أو تلة فات لمزايدة ، والثاني على مرتفع اسلي ، وذلك احتفاء بتلك الوقعة واذكاء للنخوة الاستعمارية[160] .

ويبدو أنه كان في نية قائد الحملة الفرنسية أن يطيل المقام في التخوم المغربية الجزائرية لولا عنف المقاومة الشعبية الذي صدمه في جبال بني يزناسن والداء الخطير الذي أودَى بحياة أكثر من ثلاثة آلاف من رجاله في مدة ثلاثة أسابيع ، أي حوالي 150 ضحية في كل يوم ، منهم الجنرال Thomas[161] .

---

(159) ما ان شاع خبر انهزام قبائل بني يزناسن حتى بدأ بعض الاعيان يتصلون بالضباط الفرنسيين من أجل ربط علاقات الود معهم، ومنهم شيخ زاوية الكافايت السي حمزة بن الطيب الذي تقابل مع الجنرال Martimprey بتلمسان في 12 نونبر 1859.

- Ibid. p.383.
- Revue d'Histoire. Mars 1908. p.468.

(160) Ibid. Fév. p.306. Mars : pp.465-466.

(161) انسحب الجيش الفرنسي من شرق المغرب في 11 — 11 — 1859 بعد أن عسكر بمتليلي في 7 نونبر وبسيدي موسى على الضفة اليسرى لوادي اسلي في 8 نونبر وبفات لمزايدة في 9 نونبر وبسيدي يحى في 10 نونبر.
- Ibid. Fév. : P.300. Mars pp.465-466.

5 – الوضعية الاقتصادية والاجتماعية :

لاحظنا من خلال الأحداث السابقة المتاعب التي عانتها القبائل المغربية في حياتها اليومية بسبب الاعتداءات الاستعمارية المتلاحقة فاضطرب الأمن في البوادي وضاقت الأرض بما رحبت على الفلاح أو على الكساب إذ كان هذا في تنقل شبه مستمر من مكان لآخر ، وذلك كان يجني أحيانا غلل مزارعه قبل الأوان حتّى لا تنتهب من طرف الغزاة[162] فتدهورت الحالة الاجتماعية عموما حتّى في الحواضر نظرا لصلتها الوثيقة بالأرياف وباعتبار عامل يخص الوضعية المالية العامة في البلاد ، وعامل ثان ناتج عن العلاقات التجارية بين غرب الجزائر وشرق المغرب .

فهناك ، قبل كل شيء ، ظاهرة التدني في القيمة التي عرفتها النقود المغربية في القرن 19 وربما قبله بقليل بسبب المبادلات التجارية مع الخارج بطريقة رسمية أو بواسطة تهريب المنتوجات الفلاحية والحيوانية من مينائي مليلية وسبتة رغم الحملات العسكرية التي كان يشنها المخزن ضد بعض التجار ، بين الفينة والأخرى[163] .هذا ، بالإضافة إلى العجز في الميزان التجاري المرتبط باختفاء أو تهريب النقود الفضية ، مما استلزم تعويضها بكمية ضخمة من النقود البرونزية التي كانت قيمتها في انخفاض دائم تحت تأثير تدنيها نحو الدرك الأسفل في البنوك الأوربية[164] .

ولنورد أمثلة على ذلك : في الفترة 1766 – 1862 انخفضت قيمة الأوقية البرونزية التي كانت تساوي درهما فضيا بأربع مرات في حين أن المثقال[165] الفضي الذي كان يساوي عشرة دراهم اختفى تماما في

---

(162) L. Voinot. Revue Africaine. 1914. op.cit. p.225.

(163) الاستقصا – ج 8 – ص. 127.

(164) Germain Ayache. Aspects de la Crise Financière au Maroc après l'Expédition Espagnole de 1860. Revue Historique. Oct-Déc. 1958. p.29.

(165) في 1862 كان المثقال يساوي حوالي فرنك ونصف فرنسي. المصدر السابق. ص. 16.

الأسواق بسبب رواج الريال الفرنسي والبسيطة الاسبانية اللذين كانا تقريبا متساويين في القيمة[166].

ولا نزاع في أن خزينة الدولة المغربية أصبحت فارغة عقب الحرب الاسبانية المغربية في 1859 ــ 1860[167] والتي ارغمت المغرب باداء غرامة قدرها 109 ملايين بسيطة فلم يستطع تسديدها إلا في مدة ربع قرن من الزمن وبعد ان اقترض 10 ملايين بسيطة من انجلترا في 1862 لقاء فائدة نسبتها 90٪[168] ولذلك اتسع مركز الريال الفرنسي لدرجة أنه أصبح العملة الوحيدة التي تقاس بها النقود الوطنية. وبعبارة أخرى، فكان من الطبيعي، انه كلما ارتفعت قيمته انحدرت أهميتها، وتبعا لذلك تدني المستوَى المعاشي للسكان.

فإذا كان الريال الفرنسي ــ أي 5 فرنكات ــ يساوي 19 أوقية في منتصف القرن 19، ففي 1862 تحولت المعادلة إلى 5، 32 أوقية[169] وفي 1884 وصلت قيمته إلى رقم قياسي وهو 5، 101 أوقية مما يفيد بأن الحالة الاجتماعية في المغرب كانت تسير من سيء إلى أسوء[170].

قال الناصري: «...في 1261 / 1845 أخذت السكة في الارتفاع وكان الريال الكبير ذو المدفع بست عشرة أوقية، والريال الصغير الافرنك بخمس عشرة أوقية، والبندقي بثلاثين أوقية، والدرهم الصغير بأربع

---

(166) المصدر السابق. ص.32 ــ 33.
ــ في 1766 كانت الأوقية البروزية (أي 96 فلسا) تساوي درهما فضيا (أي عشر المثقال).
أما الموزونة الفضية فكانت تساوي 24 فلسا.
وبعد اقل من قرن من الزمن أي في 1862 انحدرت الاوقية إلى مستوى الموزونة أو الدرهم الصغير.
المصدر السابق. ص. 30 ــ 34.

(167) الاستقصا ــ ج 9 ــ ص. 84.

H. Terrasse. Histoire du Maroc. Vol. 2. op.cit. pp. 325 à 327.

(168) G. Ayache. op.cit. p.10.

(169) Ibid. p.32.

(170) Ibid. p.42.

موزونات ، والكبير بست موزونات ، ولما أخذت السكة في الارتفاع أخذت الأسعار في الارتفاع أيضا ، وحاول السلطان رحمه الله حصرها فلم تنحصر ، وعلة ذلك والله أعلم ، أنه لما وقع مع الفرنسيس هذا الصلح وأسقط السلطان عن الأجناس ما كانت تؤديه كثر خطارهم وتجارهم بمراسي المغرب وازدادت مخالطتهم وممازجتهم لأهله ، وكثرت تجارتهم في السلع التي كانوا ممنوعين منها ، وانفتح لهم باب كان مسدودا عليهم من قبل ، فظهر اثر ذلك في السكة وفي السلع ، أما السكة فلأن سكتهم كانت هي الغالبة وهي أكثر روجانا من سكة المغرب ، فلابد أن يكون الحكم والتأثير لها ، والتجار يعتبرون فيها من الفضول والارباح الناشئة عن تغاير القطرين ما لا يهتدى إليه غيرهم من العامة ، وتبعهم على ذلك تجار المسلمين ، واما السلع فلأن تجار النصارَى يغالون في أثمانها أكثر من غيرهم كما هو مشاهد ، ثم مادامت بلاد الافرنج مترقية في التمدن وحسن الترتيب واتساع الأمن والعدل إلا وسككنا وأسعارنا دائمة الترقي في الغلاء على نسبة كثرة المخالطة واتساع مادة البيع والشراء ...»[171] .

وهذا يؤيد تحليل الوضعية المالية لعياش حيث أن ثمن مد القمح بطنجة كان 11 أوقية في 1859 ، وبعد ست سنوات تضاعف بأكثر من ثلاث مرات (36 أوقية) نتيجة للمجاعة التي اجتاحت الربوع الشمالية من البلاد .

أما في فاس فكان ثمنه 5 ،47 أوقية في 1868 . وبصفة عامة فإن ثمن القمح تضاعف عشر مرات في مدة عشر سنوات عقب الاعتدائين الفرنسي والاسباني في 1859[172] . ولقد حاول السلطان محمد الرابع أن يطبق اصلاحا نقديا لمحاربة المضاربات والاحتكارات التجارية فأصدر ظهيرا في 14 ربيع الثاني 1268 / 6 ــ 2 ــ 1852 هذا نصه :

---

(171) الاستقصا ــ ج 9 ــ ص. 54.

(172) G. Ayache. op.cit. p.36.

«...فقد طالما حاولنا حصر الزيادة في السكة وحذرنا وأنذرنا وأوعدنا من تعدَّى فيها حدا أو مد فيها بغير ما عينا يدا فلم يزد الناس إلا تطاولا فيها واقداما عليها فاستخرنا الله في أمرها فظهر لنا أن نزيد فيها ما تواطأ الناس على زيادته ولم يرجعوا عنه تتميما للاعذار وتكميلا للانذار ، فمن وقف عند ما حددنا ولم يحد عما أبرمنا فقد اختار سلامة نفسه وماله ، ومن تعدَّى وافتات في ذلك بأدنَى شيء فقد سعَى في هلاك نفسه ويناله من الوبال والنكال ما يتركه عبرة لمن اعتبر ، وتذكرة لمن تذكر ، وقد اعذر من أنذر ، وها نحن جعلنا للبندقي أربعين أوقية ، وللضبلون اثنين وثلاثين مثقالا ، وللريال ذي المدفع عشرين أوقية ، وللذي لا مدفع فيه تسع عشرة أوقية ، وللبسيطة التي بالمدفع خمس أواق ، وللدرهم الرباعي أربع موزونات ونصف موزونة ، وللدرهم السداسي سبع موزونات ....»[173] .

ولاشك أن هذه التدابير لم تجد شيئا نظرا لتغلغل معطيات الرأسمالية في الاقتصاد المغربي إذ أن نسبة تدني النقود الوطنية بلغت 90٪ في الفترة المتراوحة بين 1844 ــ 1873 رغم محاولة أخرى لاصلاح النظام الجبائي .

ففي عهد محمد الرابع شرع بصفة تدريجية في تحديد الزكوات والعشور الواجب أداؤها سنويا بالنقود بدلا من جمعها من الانتاج الفلاحي والحيواني ، الشيء الذي جعل بعض العمال ــ في منطقة دكالة مثلا ــ لا يحترمون المقاييس المرسومة ويطلبون مبالغ مضاعفة عدة أضعاف ، ولذلك استنكف بعض الناس عن أدائها وهاجروا إلى مناطق نائية ، وهذا ما وقع بشرق المغرب في 1853[174] .

ومن المحقق أن هذا السبب كان من جملة الأسباب التي دفعت عدة أفخاذ قبلية من منطقة وجدة إلى الغرب الجزائري أو إلى الصحراء في

---

(173) الاستقصا ــ ج 9 ــ ص. 64.

(174) G. Ayache. op.cit. pp.21 à 23.
- Revue Africaine. 1914. L. Voinot. op.cit. p.260.

السنوات العجاف[175] لأن سكان الأرياف كانوا يتحملون عبء الضرائب خلافا لسكان المدن الذين لم يشعروا بوطئتها الا حينما فرضت ضريبة المكس على أنواع من السلع في الأبواب الرئيسية للمدينة في 1861[176] ، فتذمروا منها بل منهم من ثار عليها مثل بائعي الجلود الفاسيين في بداية عهد الحسن الأول أي في 1873[177] .

وإذن فإن كل الظروف تضافرت لتضييق سبل العيش على التشكيلات الاجتماعية الشعبية ابتداء من النصف الثاني من القرن 19 . ولعل سكان شرق المغرب تضرروا منها أكثر من غيرهم بسبب السياسة الاستعمارية الفرنسية ذات الأساليب المتنوعة .

فمن الشواهد على ذلك أن مجموعة طغاغت من قبيلة بني منكوش ــ دوار الخدران في العثامنة ــ أي بين مدينتي بركان وأحفير ، أجبرت على أداء الزكوات المتراكمة عليها ، فسلمت أرضا مساحتها 530 هكتارا إلى شيخها .... في النصف الثاني من القرن 19 كما ورد في الوثيقة الآتية المؤرخة في 13 ربيع الأول 1331 / 20 فبراير 1913 والتي انتهى بها النزاع القضائي بين أحفاد الشيخ المذكور وجماعة من العثامنة :

«...الحمد لله ،... المنكوشي ... ابن عم القائد ... نيابة توكيل ثابتة شرعا وحضور ، للمجلس على مقابلة في عين النازلة وهو .... الخضراني العثماني عن نفسه وبحسب النيابة عن اخوانه وحضورهم للمجلس وهم ....

فمن دعوة الأول على الثاني .... ان البلاد المسماة بعلب بالهيدور الكائنة بمزارع اتريفة المحدودة قبلة ... الطريق الهابطة من تمخلوفت ...

---

(175) م.و.م.

(176) حسب الناصري، فرضت ضريبة المكس سنة 1850/1266.
الاستقصا ــ ج 9 ــ ص. 61.

(177) G. Ayache. op.cit. pp.23-26.

الذاهبة لعجرود ... هي ملك لنا انحزت لنا من والدنا الشيخ ..... وهو تملكها من أعيان آل اطغاغت ، وهم أخذوها من أولاد ابن الزهرة ، فرقة من آل بني منقوش لكونهم قتلوا أرواحا ووجبت عليهم جناية وأخذت منهم البلاد المذكورة على حسب العادة وقتئذ ... وفي بعض السنين اننا منعناكم من حرثها فتصرفكم فيها الا على وجه الغصب والتعدي ، ونحن كنا فيما مضَى استرعينا عليكم فيها واجبتمونا انكم تخدمون فيها إلا على وجه الجورة والمحبة ، والآن أردنا بلادنا ولنا عليها رسومات ...

أجابه الثاني قائلا ان البلاد التي تدعيها تسمى بعضها بعلب بالهيدور وبعض منها تسمى غير ذلك ، الا أننا نحن وجدنا آباءنا يتصرفون فيها بأنواع التصرفات إلى أن ميزنا بعقولنا شرعنا في تصرف البلاد المذكورة أيضا من الحرث والازدراع وحفر الآبار وغرس الأشجار من أراد غرس ذلك ، وفي هذه المدة لم ينازعنا أحد منكم مع أن البلاد المذكورة حيث وجدنا آباءنا ، ونحن من بعدهم لا لنا علم بملكيتها لا شراء ولا بغير ذلك ، البلاد بلادنا ونحن أربابها وأنتم لا لكم فيها سؤال لقبضنا للبلاد في المدة المذكورة....

نظر في ذلك من تولى فصل قضيتهما .. وهو الفقيه السيد القاضي بمحرصة بركان أيده الله فاقتصر نظره السديد ورأيه الرشيد ان كلف كلا الخصمين أن يأتيا بما ينفعهما شرعا بعدما أجلها أجلا مبلغه ثمانية أيام مبدؤه من يوم احدَى وعشرين من رمضان المعظم عام ثلاثين بعد ثلاثمائة وألف ، الموافق الأربعة من شهر سبتمبر سنة اثنا عشر وتسعمائة وألف ...

فلما انصرم الأجل المضروب أعلاه حضر المدعى والمدعى عليه المذكورين وأتيا كل واحد بما عنده وتحت يده .

إن المدعي أتَى برسوم : رسم بخط الفقيه القاضي السيد العربي بن الحسن الرمضاني تاريخه ستة عشر من شعبان عام تسعة وعشرين وثلاثمائة

وألف (12 ــ 8 ــ 1911) ... بأن البلاد الموصوفة غيان آل اطغاغت دفعوها لوالد المدعى وهو الشيخ .... في واجب المخزن الذي أوجبه عليهم وقتئذ ، وعيان اطغاغت دفعوها لهم أولاد ابن الزهرة في أرواح قتلوها منهم ، وكذلك شهدت بحدود البلاد . ورسم ثان .. ورسم ثالث .. ورسم رابع حكم مسجل بخط الفقيه السيد محمد بن الهاشمي وقت ولايته بوجدة تاريخه سبعة عشر جمادى الثانية عام تسعة وثمانين بعد المائتين وألف (22 ــ 8 ــ 1872) مضمنه أن من جملة أملاك اخوانهم أولاد ابن الزهرة أراضي أخرى ومطامير بيد المرابطين أولاد سيدي رمضان ... على كبير الزاوية وهو الفقيه السيد الحسين بن المكي بن رمضان .. وبعد امتناعه رجع عن قوله وسلم لهم مطمرتهم ...

(أما المدعى) أتى برسم ستة مسجلة بمحكمة بركان تاريخه أربعة وعشرين جمادَى الثانية عام ثلاثين بعد ثلاثمائة وألف (10 ــ 6 ــ 1912) ... يشهد بملكية البلاد الموصوفة أعلاه له .

وزيادة في التحري والبحث فقد عقد القاضي ثلاث جلسات أخرى ليتمكن الخصمان من الادلاء برسوم أخرى أو بشهود ، فارتأى أن يقسم الأرض بينهما بالتساوي ، ثم أرشدهما ان يعرضا قضيتهما على مجلس العلماء لمدينة وجدة إذ جاء في الفقرات الأخيرة للوثيقة القضائية[178] :

اجتمع العلماء في تاريخ ستة من ربيع النبوي عام احدَى وثلاثين بعد ثلاثمائة وألف الموافق اثنا عشر فيفري عام ثلاثة عشر وتسعمائة وألف فتأملوا رضي الله عنهم في القضية وتصفحوا حجج كلا الخصمين فاقتصر نظرهم سددهم الله ان البلاد المذكورة تقسم بينهما على خمسة أسهام ، للقائد ..... واخوته ثلاثة أسهم ، ولمحمد بن الميلود وإخوته سهمان لأجل

(178) و.ع.
ــ كان مجلس العلماء لمدينة وجدة يتكون وقتئذ من الحاج العربي بن لحبيب، محمد بن الطيب بن الحسين، الحاج عبد الرحمن الميري، الحاج أحمد بن التهامي، محمد الناصري، بوبكر بن زكري.

ما بلغ في علم السادات المذكورين وان فيما مضَى كان رجل من اخوان محمد بن الميلود المدعى عليه قد اشترَى قطعة من الأرض المتنازع فيها من القائد ..[179] .

وإذن فإن النظامّ الجبائي كان من العوامل التي أدت إلى افتقار بعض الجماعات القبلية فاضطرت إلى التنازل عن أراضيها لصالح ممثل السلطة الشيخ أو القائد ، فأدَّى ذلك ليس إلى تفكك عدة خيام فحسب بل إلى انعكاسات بعضها فوق بعض : أراضي شاسعة يستغلها فرد أو جماعة من الأفراد استغلالا جزئيا ، نقص في الانتاج الفلاحي ، تدني في الجبايات ، غلاء في المعيشة ، بخس في القيمة النقدية ... مما مهد للنفوذ الاستعماري الذي سيتحول إلى هيمنة سياسية لاسيما وان العملة الأجنبية كانت تقوي مركزها في الاقتصاد المغربي .

شاهد آخر على ذلك :

عقد بيع أرض في سهل اتريفة في شهر ذي القعدة 1285 / فبراير ـ مارس 1869 ، جاء فيه :

«..الحمد لله ، اشترى على بركة الله تعالى وحسن عونه وتوفيقه الجميل ويمنه السيد بزيان الطيب وأخيه السيد المهدي ... من البائع لهم محمد بن الطيب الصغير القرطيط جميع الأرض الكائنة عنده بموضع برّحُ المجاورة ببلد المشترين جميع ما لذلك كله من المنافع والفراقي وكافة حرمة كلها الداخلة في ذلك والخارجة عنده اشتراء صحيحا ... بثمن قدره ومنتهَى عدده بثمانية عشر دور من ضرب افرانسيسي دراهيم سكة ... قبضها البائع المذكور من يد المشترين المذكورين قبضا تاما على الوفاء والكمال بمعاينة شهود ...

كتب الحروف ... محمد بن عبد الوهاب بن الطبيب[180]» .

(179) عقد قضائي بتاريخ 13 ربيع الأول 20/1331 ـ 2 ـ 1913 يحمل طابع قاضي مدينة بركان عبد القادر بن أحمد بن يعقوب. و.ع.

(180) و.ع.

الفصل الخامس

عهد الملوك العلويين

القسم الثالث

1 ــ حالة من السيبة في عهدي محمد الرابع والحسن الأول.

2 ــ عودة إلى قضية الحدود المغربية الجزائرية.

3 ــ تحصينات مدينة وجدة.

1 – حالة من السيبة في عهدي محمد الرابع والحسن الأول :

رغم التهديد الخارجي الذي كان يشغل بال الناس ويعكر صفو حياتهم وقتئذ ويحثهم على جمع شتاتهم فإن الصراع القبلي كان يطفو على مسرح الأحداث بين الفينة والأخرى سواء بين بني يزناسن ولمهاية أو بين انجاد وبني يزناسن .

ولاشك أن هذا الصراع كانت له أسباب متعددة ، من أهمها :

- أولا ، الآنفة التي كانت تجعل كل قبيلة تحافظ على كيانها السياسي بزعامة رجل قوي الشخصية أو بزعامة جماعة من الأشخاص تربطهم عصبية الدم والجوار والمصلحة .
- ثانيا ، الظروف الاقتصادية التي كانت تضطر أهل بني يزناسن إلى استغلال أراضي السهول على حساب الآخرين .
- ثالثا ، موقف كل قبيلة مع السلطات الفرنسية المجاورة لها ومع ممثل السلطات السلطانية أي مع عامل مدينة وجدة .

ففي 4 – 9 – 1863 اغتيل قائد بني يزناسن ، الحاج ميمون ولد البشير ، من طرف رجل من لمهاية اسمه العيد بن بوجمعة ، فخلفه أخوه محمد الذي سيتقوى مركزه في قومه فيما بعد[1] .

وفي 23 – 7 – 1864 أغار بنو يزناسن على لمهاية بأحواز وجدة في الوقت الذي كانت جماعة من أعيان هؤلاء تتفاوض مع عامل المدينة ، أحمد بن الداودي ، في شأن هذا الصراع . وبما أن هذه المفاوضات لم تسفر عن أية نتيجة ايجابية التجأت 150 خيمة من لمهاية إلى الجزائر

---

(1) L. Voinot. Revue Africaine. 1918. op.cit. p.404. - Revue d'Histoire. Fév. 1908. op.cit. p.309.

وطلبت الحماية الفرنسية أي رخصة للاقامة المؤقتة هناك[2] . ولم تهدأ هذه الفتنة إلا في صيف 1866 حيث أن الشيخ بوبكر لمهياوي استجاب لطلب العامل بإحالة العيد بن بوجمعة على القضاء ومغادرة التراب الجزائري .

ولذلك ، ففي 11 غشت 1866 بدأت هجرة لمهاية من بني بوسعيد وبني واسين إلى سيدي جابر فوادي طايرت فتيولى في شكل حشود غفيرة من الفرسان الذين كانوا يسوقون أغنامهم وإبلهم ويسرعون السير لأن قطاع الطرق من أولاد انهّار وأنجاد كانوا يطاردونهم ، فآثروا الدفاع عن الرواحل التي كانت تحمل حريمهم وأطفالهم وتركوا وراءهم آلاف من رؤوس الماشية . ولقد قتل أثناء هذه الاشتباكات عدد كبير من الجانبين ، من بينهم الشيخ محمد ولد حمو الجعواني . ولم يطمئن لمهاية على أنفسهم إلا حين وصلوا إلى عين بني مطهر ونصبوا مضاربهم في هضاب الظهرا . ونظرا للخسائر الهائلة التي لحقت بهم فإن الشيخ بوبكر لهياوي طلب من السلطات الفرنسية أن تساعده على استرداد ما نهب من قبيلته ، فتمكن من آسترداد أكثر من خمسة آلاف رأس من الأغنام ، بعضها عثر عليها بسوق مغنية ، والبعض الآخر في أهالي بني بوسعيد وبني واسين في شهري غشت — سبتنبر 1866 .

ولقد اغتنم التجار الأوربيون هذه الفرصة لشراء حوالي أربعين ألفا من الأغنام بأبخس ثمن ليصدروها إلى فرنسا[3] .

وإن هذه الأحداث كان لها الأثر السيء على مدينة وجدة لاسيما وأنها تزامنت مع الفتنة التي اشعل نارها بوعزة ولد العربي في قبيلة السجاع بدعوَى الجهاد ضد الفرنسيين ، فتصدت له الإدارة المخزنية بالأسلوب السياسي وباستعمال القوة بتوجيه جيش بقيادة الشيخ علي ولد رمضان

---

(2) L. Voinot. La Situation sur la Frontière Algéro-Marocaine du Tell lors de l'Insurrection des Ouled Sidi Cheikh dans le Sud-Oranais. (1864-1870). Revue Africaine. 1919. 3è + 4è Tr. p.405.

(3) Ibid. pp.414 à 417.

والشيخ محمد الزعيمي الخالدي إلى قبيلة امسيردة يومي 16 ــ 17 أبريل 1867 ، فرد الفتان على عقبه نحو ناحية كلعية[4] .

ومنذ فبراير 1869 بدأ الخلاف بين العامل عبد السلام ولد الحاج العربي الذي خلف أحمد بن الداودي في فبراير 1868 ، وبين الشيخ علي ولد رمضان الذي كان حليف القائد محمد ولد البشير . وبلغ الخلاف أشده حين أمر العامل بالقبض عليهما في 11 ــ 10 ــ 1869 ، فثارا عليه وارغماه على الاعتصام بقصبته ، فبعث أحد مساعديه إلى تلمسان ليطلب النجدة من السلطات الفرنسية ، لكن بدون جدوَى . ثم التجأ إلى الزاوية الزيانية بحي أهل وجدة ، ثم إلى زاوية اتكافايت في طريقه إلى فاس ، وعين بوشتة بن البغدادي خلفا له في 20 ــ 11 ــ 1869[5] .

ومن الراجح أن هذا الأخير وجد ظروفا معقدة بالمنطقة ، ولذلك لم تكن فترة مهمته أهدأ من سابقتها إذ كثرت شكاوي الحكومة الفرنسية لدَى نظيرتها المغربية في شأنه لأنه واجه مناورات ضباطها بحزم وشجاعة وحكمة ، بل كان ينظر بعين الرضَى والعطف الغارات التي قام بها أولاد سيدي الشيخ ضد بني واسين في 17 مارس وفي 3 يوليوز 1871 ، وضد بني بوسعيد في 17 أبريل من نفس السنة . ولا عجب أنه عوض برجل آخر وهو الجيلالي بن كوطبي في دسمبر 1871[6] ، الذي حاول ، قبل كل شيء ، أن يحافظ على الأمن والتوازن بين القبائل ، فتمكن من فض النزاع بين أنصار محمد ولد البشير وانصار الحاج محمد الزعيمي بمساعدة شيوخ الزاوية الكرزازية في 6 ــ 9 ــ 1873[7] .

ولقد أشرنا آنفا في معرض حديثنا عن القائد محمد ولد البشير أنه كان

---

(4) Ibid. pp. 418 à 424.

(5) Ibid. pp.429-430-

(6) L. Voinot. La Menace des Ouled Sidi Cheikh contre le Tell Algérien et les dangers de leurs Intrigues au Maroc. (1870-1873). Revue Africaine. 1920. 1er - 2è Tr. pp.67 à 79.

(7) Ibid. pp.89-92

يحاول ، اما أن يسيطر على عامل اقليم وجدة ، وإما أن يعارضه علانية لدرجة أن بعض الألسنة رددت إشاعات مفادها أن أحدهما يريد عزل الآخر عن الدور السياسي ، وقد حصل الزعيم الوريمشي على مبتغاه حين خلف العامل عبد القادر بن حسين في نونبر 1874 (8) .

ويظهر أن المولى الحسن الأول أراد من وراء ذلك أن يختبر هذا الرجل الذي كان له مقام مشهور لدَى قومه ، وربما أراد أيضا أن يقلده مسؤولية قد ينغمس فيها إلى الاذقان علما منه بأن معارضيه سيتربصون به الدوائر .

وحتَّى إذا كانت الرواية التي أوردتها الوثائق الفرنسية من باب الأساطير والتي تفيد بأن الملك أوصَى بعض رؤساء القبائل ان لا يطيعوا محمد ولد البشير فإننا نتصور مدَى اطلاع العاهل المغربي على أحوال الزعيم الايزناسني بل مدَى اطلاعه على وضعية المنطقة من حيث شؤونها الداخلية والخارجية (9) .

وسرعان ما أخذ العامل الجديد بزمام الأمور حتَّى وجد نفسه أمام معارضة كل من بني ادرار بزعامة الحاج محمد الزعيمي وقبائل انكاد الذين عقدوا ميعادا على مقربة من واحة سيدي يحَيى يوم 20 ــ 11 ــ 1874 مع قبيلة لمهاية التي انضمت إليهم . وما كانت إلا أيام قلائل حتَّى وقعت المجابهة بين الفريقين على ضفتي وادي طايرت في ضحَى يوم 29 نونبر ، خصوصا بين الراجلين لأن أرضية المعركة كانت لا تلائم حركات الفرسان ، وحيث أن جيش العامل كان أكثر عددا فتعقب اثر الجيش الآخر في الشعاب والوديان .

إلا أن هذا الأخير اختار أزمنة أخرى فأغار على حين غفلة من بني

---

(8) L. Voinot. Une Phase curieuse des Rapports des Autorités Algériennes avec l'Amalat d'Oudjda. (1873-1874). Revue Africaine. 1922. 1er Tr. pp. 86-87.

(9) L. Voinot. L'Imbroglio Marocain et l'Entrevue du Général Osmont avec le Sultan à Oudjda. (1874-1876). Revue Africaine. 1923. 2è pp.189-190.

خالد في وادي صفرو في 20 دسمبر ، ثم نهب مدينة وجدة في فاتح يناير 1875 . ولقد حاول محمد ولد البشير أن يفرق تجمعات خصومه في تيولي ، فهزم شر هزيمة في 11 مارس 1875 . اما علاقته مع الفرنسيين فكانت تسير من سيء إلى أسوء إذ منع قبيلته عن أداء الضريبة الفلاحية لهم وعن المتاجرة معهم في مغنية(10) .

ولما بلغت هذه الأحداث إلى علم الحسن الأول على لسان وفود الأهالي المتضررة منها ، أرسل أخاه مولاي علي صحبة عامل مدينة تازة ، عبد الرحمن بن شليح ، إلى عين المكان ليتفقدا الرعية ويصلحا شؤونها السياسية ، فدخلا وجدة في 5 سبتنبر 1875 في الوقت الذي كان محمد ولد البشير بعين برديل ، مقر اقامته وسكناه .

فأوجس منهما خيفة وبقي هناك لحاجة في نفسه يضمرها بينما كان عليه أن يأتي إلى وجدة ليدلي لهما برأيه ويفند مزاعم خصومه .

وطال مقام مولاي علي بوجدة إلى 17 ــ 9 ــ 1875 فقفل راجعا مع عبد الرحمن بن شليح وهو متأكد من كراهية الأهالي لحكم القائد الايزناسني . وأثناء الطريق ظهرت حجة أخرى تبرر هذا الموقف بما فيه الكفاية إذ وقعت طلائع المحلة المخزنية في كمين نصبته عصاباته بمستكمر فنهبت وسلبت ولم تأتها النجدة إلا بعد أن لاذ المهاجمون بالفرار نحو الجبال(11) .

ويحق للمؤرخ أن يتساءل عن سبب هذا العدوان :

هل كان بأمر منه أم بمبادرة من أحد قواده ؟

أم كان بمثابة اعلان من احدَى القبائل عن رفضها لأداء الضرائب السنوية للمخزن ؟

---

(10) Ibid. pp.191 à 198.

(11) Ibid. p.199.

أم كان فقط مكيدة من خصوم محمد ولد البشير ليورطوه في حالة عصيان لا قبل له بعواقبها الوخيمة ؟[12] .

وعلى أية حال فإن المبعوثين المخزنيين حملاه مسؤوليتها رغم تبرئه منها وتأكيده للعاهل المغربي التزامه بطاعته واستعداده لبذل الغالي والنفيس لاستتباب الأمن وإصلاح ذات البين في وسط قبائل شرق المغرب .

وقبل الادلاء برأينا في الموضوع نورد رواية الناصري في شأنه :

«...في مدة مقام السلطان أيده الله بفاس ، بلغه عن ولد البشير بن مسعود بعض استبداد فاقتضَى نظر السلطان أعزه الله أن يبعث من قبله عاملاً لجباية تلك النواحي فعقد لأخيه المولى علي على جيش وأضاف إليه القائد أبا زيد عبد الرحمن بن الشليح الزراري بمنزلة الوزير والظهير وبعثهما إلى ناحية وجدة ، واعمالها يكرهون ولاية ولد البشير عليهم ويحبون ولاية ابن الشليح إذ كان له ذكر وصيت في تلك الناحية وربما كاتبه عرب انقاد وكاتبهم ، ولما أحس ولد البشير بذلك انصبغت العداوة بينه وبين ابن الشليح فلم يكن الا كلا ولا حتَّى وجه السلطان أيده الله ابن الشليح المذكور واليا على وجدة واعمالها وجابيا لأموالها وناظرا في شؤونها وأحوالها ، فقامت قيامة ولد البشير وعلم أنه لا يصفو له عيش معه فعزم على أن يطرده ، عن تلك البلاد ويرده من حيث جاء ، وكان ولد البشير هذا حسن الطاعة للسلطان إلا أنه انفسد أمره بما ذكرناه ، ولما قرب ابن الشليح من أرضه خرج إليه في خيله ورجله ، ولما التقت مقدمة الجيش

---

(12) هناك رأي آخر لقدور الورطاسي في شأن قضية محمد ولد البشير :

«... فالحاج محمد بن البشير لم يكن يقصد بعمله ذلك شق العصا ولكن اجتهاده في التفكير الشخصي، أو تأثره بآراء حاشيته، أو احدهما أو هما معا هو الذي املى عليه ذلك الموقف بكل اسف ولا سيما اذا اعتبرنا أن الحاج محمد بن البشير كان بعيدا عن العاصمة عكس الشأن في الشليح وبعده يحول دون الاتصال بالسلطان وشرح موقفه قبل وقوع الحادثة بمكائد الشليح ...

قدور الورطاسي — بنو يزناسن عبر الكفاح الوطني — ص. 88.

بهم انتشبت الحرب بينهم ، وقامت الفتنة على ساق ، وكان غرض ولد البشير أن يضم إليه أخا السلطان وجيشه ، ويقوم بخدمتهم ، ويطرد عنه عدوه فقط ، فلم يستقم له ذلك ، وكان رأيه هذا خطأ إذ ليس هذا بطاعة كما لا يخفى ، ثم انهزم الجيش وعمدت بنو يزناسن والعرب إلى المحلة فانتهبوها ، وعاد عبد الرحمن بن الشليح إلى السلطان أعزه الله وهو بفاس فأخبره الخبر وباثر ذلك كتب ابن البشير إلى السلطان يتنصل من أمر ابن الشليح ومحلته وأنه لازال على الطاعة لم يبدل ولم يغير ، وإنما الذي انتهب المحلة هم السفهاء من غير اذن لهم ولا موافقة على ذلك ، وحتّى الآن فكل ما ضاع من تلك المحلة يؤديه بأكثر منه ، فطوَى له السلطان أيده الله عليها وأرجأ أمره إلى وقت آخر ...»[13] توحي هذه الرواية للأحداث أن العدوان على المحلة المخزنية وقع أثناء توجهها إلى مدينة وجدة ، وهذا غير صحيح .

ثم ان عبد الرحمن بن الشليح جاء هناك ليعوض محمد ولد البشير ، وهذا أيضا غير مطابق للحقيقة لأن هذا الأخير لم يشق عصا الطاعة على الحسن الأول بل بقي بمنصبه قرابة سنة بعد ذلك رغم الإشاعات التي روجت في ربيع 1876 بأن أحد القواد من أولاد سيدي الشيخ — سليمان ابن قدور — عين عاملا على مدينة وجدة ، تلك الإشاعات التي رددتها الدوائر الدبلوماسية الفرنسية لتحتج عليها[14] .

ولاشك أن محمد ولد البشير ، لقوة شخصيته وربما لشدة بطشه بالمجرمين ، كان ممقوتا لدَى أهالي انكاد قبل غيرهم ، بدافع من العصبية القومية التي تجعل أهل السهول يتضايقون أحيانا باكتساح سكان الجبال لأراضيهم . فاستمر الخلاف بين العصبيتين على أشده :

---

(13) الاستقصا — ج 9 — ص. 145 — 146.

(14) L. Voinot. Revue Africaine. 1923. op.cit. p.207

ففي 30 دسمبر 1875 ـ 5 يناير ـ 19 يناير 1876 جالت فرسان أنجاد في وجدة وضواحيها بالانتقام والفساد .

وبعد الهدنة التي توجت مساعي شيوخ شرفاء بني وكيل وقع اشتباك بين الطرفين في سيدي جابر في 8 أبريل 1876 . وفي 21 من نفس الشهر استولَى جيش انجاد على مائتي بقرة لبني خالد على مقربة من وجدة[15] .

وللقضاء على هذه الفتنة أبَى مولاي الحسن إلا أن يأتي إلى المنطقة في صيف نفس السنة ، فوصل إلى تازة في منتصف يوليوز ، فسلوان في منتصف غشت حيث استقبل الوفود التي جاءت من كل حدب وصوب ، فمشرع كرمة على نهر ملوية حيث أرسل سبحته لمحمد ولد البشير وعلي ولد رمضان الوجدي ليطمئنهما ، فقدما إليه يوم 24 غشت طائعين خاشعين متذللين ، فارسلهما إلى فاس في اليوم الموالي مصفدين بالأغلال ، وعين عاملا جديدا على عمالة وجدة وهو بوشتا ولد البغدادي الذي تقلد هذه المهمة هناك من 1869 إلى 1871[16] .

أما مقام المولَى الحسن بوجدة فقد دام من 5 إلى 16 سبتنبر فاستقبل بجمهور غفير يوم الثلاثاء 5 سبتنبر إذ كان ممتطيا جوادا أبيض في ظل مظلة حمراء يحملها خادم من عبيد البخاري ، ومر بين الصفوف الشعبية التي كانت تهتف بحياته وتبارك مقامه بين ظهرانيها بالتصفيقات والزغاريد ، ونصبت عشرات الخيام بأحواز المدينة بينما عسكرت المحلة على مقربة من سوق الخميس بظهر المحلة ، وحول الأفراك السلطاني . وهناك استقبلت وفود الأعيان والقواد في اليومين المواليين .

وفي يوم الجمعة 8 انطلق الموكب الملكي نحو الجامع الأعظم مارا بطريق بوقنادل فباب الغربي فالقصبة ليصلي صلاة الجمعة .

---

(15) Ibid. pp.201-202-208.
(16) Ibid. pp.209-210-212.

وفي ظهيرة يوم الاثنين 11 جاء إلى وجدة الجنرال Osmont موفدا من الحاكم العام للجزائر الجنرال Chanzy رفقة كتيبة من الفرسان والمشاة ليحيي العاهل المغربي ويجري مفاوضات سياسية مع حكومته ، فاستقبل بحفاوة بالغة على الصعيد الرسمي والشعبي وأعد له نزل فاخر بخيام لا تبعد عن الأفراك السلطاني إلا بحوالي نصف كلم ، فدام مقامه يومين وتقابل مع الملك صبيحة يومي الثلاثاء والأربعاء 12 — 13 .

وفي مساء يوم 12 قام الجنود الفرنسيون باستعراض رائع تحت نغمات الموسيقى الحماسية ونال استحسان كل المشاهدين ، وخاصة المولى الحسن ، الذي اقترح على الضابط الفرنسي تعيين بعثة لتدريب الجنود المغاربة على استعمال الأسلحة العصرية .

وبخصوص المفاوضات التي جرت بين الوزير موسى بن أحمد والضابط Aublin فقد دارت بصفة مركزة حول الحدود المغربية الجزائرية وتمديد خط السكة الحديدية نحو شرق المغرب ، ووضع خط تلغرافي بين وهران وطنجة ، وحول المشاريع التجارية والاستعمارية في آن واحد ، ازاء المناطق الصحراوية باتوات وكورارا . الا أنها لم تسفر على أية نتيجة ملموسة لأن الجانب المغربي كان يريد أن يصفي الخلافات المتعلقة بمعالم الحدود قبل الشروع في تعاون دائم في الميادين الأخرى ، في حين أن الجانب الفرنسي كان يعتقد أنه من مصلحته أن لا تؤخذ من يده العصا التي كان يتكئ عليها ليوطد وجوده الاستعماري والتوسعي هناك[17] .

أما على صعيد الأحداث الاقليمية فقد كان لعزل محمد ولد البشير عن السلطة انعكاس مباشر على عشيرته التي هاجرت إلى قبيلة كلعية في فبراير 1877 ثم إلى الجزائر في أوائل 1879[18] ، كما أن عائلة الحاج الزعيمي

---

(17) Ibid. pp.210 à 232.
- Rapports concernant la Mission OSMONT. Arch. Vincennes. CI Maroc.

(18) L. Voinot. Le Début du Système des Revendications Algériennes contre le Maroc. (1876-1881). Revue Africaine. 1924. 3è Tr. pp.394.

الخالدي التجأت مؤقتا إلى ضواحي نظرومة تحت ضغط أنجاد ولمهاية في أوائل يوليوز 1878 [19] .

ولما خلف بوشتا ولد البغدادي بالبشير ولد اعمر اديمي في 16 ماي 1879 كانت الضغائن الطائفية مضطرمة في الصدور حتّى بين أفخاذ بني يزناسن ، فتفرقت كلمتهم وتلاشَى جيشهم فانهزم أمام جيش أنكاد بضواحي وجدة في 16 ـ 9 ـ 1879 .

ومن البديهي أن هذه الفتن المتجددة كانت تهدد الادارة المخزنية ، فخلف البشير ولد اعمر اديمي بالسي علال في 26 أكتوبر من نفس السنة ، أثناء المهمة التي قام بها مبعوث من الادارة المركزية ، عبد السلام بايس ، لدَى قبائل المغرب الشرقي لاصلاح ذات البين ، وكذلك لدَى السلطات الفرنسية بالجزائر التي سلم لها مبلغا ماليا قيمته 19 ألف فرنك كدية على الجنديين اللذين سقطا في كمين قرب لعريشا في ليلة 27 ـ 9 ـ 1879 [20] .

وان من علامات السيبة ان مدة اقامة العامل علي كيدر بوجدة كانت سنة ونيف فقط من يناير 1880 إلى ماي 1881 ، وانتهت إثر الزيارة التي قام بها مولاي الأمين ، أخ مولاي الحسن ، إلى المنطقة للتشاور مع أعيان القبائل وحثهم على جمع الكلمة أمام المعتدين الفرنسيين ، فعاهدوه على ذلك في حفلة بهيجة بواحة سيدي يحيَى يوم 23 ـ 3 ـ 1881 [21] .

هذا يبين لنا أن وضعية الممثل المخزني بالمنطقة ـ أي العامل ـ كانت معرضة لكل المكائد والدسائس سواء من الأعيان المحليين أو من العناصر الدخيلة والأجنبية ـ فهاهي قبيلة لمهاية التي كانت تتكون من عدة بطون : لعشاش ، أولاد امبارك ، الشرفاء ، أولاد سعيد ، ذوي خليفة ، أولاد

---

(19) Ibid. p.405.
(20) Ibid. pp.410 à 413.
(21) Ibid. p.427.

كاري ، أولاد امعمر ، أولاد عبيد ، ازوالة .... وكانت تخضع ، رغم حجمها الكبير ، لسلطة قائد واحد ، الحاج بوبكر وقتئذ . فثارت ضده فرقة لعشاش ، اما بسبب استبداده عليها ، أو بسبب سياسة العامل عبد المالك السعيدي التي كانت تتوخى تقليص نفوذ القائد المذكور سيما وأن حكمه كان يشمل قبائل بني مطهر[22] .

وفي بداية 1886 توجه وفد من لعشاش إلى فاس ليعرب عن شكاويه للملك ، فعين لهم قائدا منهم هو الشعيبي[23] . ومن هنا اشتعلت فتنة بين المتنافسين ابتداء من 22 مارس ، ثم شملت انصار العامل ، قبيلتي أنجاد وبني خالد . فاحتل الحاج بوبكر مدينة وجدة ونهبها نهبا مهولا وأرغم أحد الوجديين — حسن فاصلة الذي كان يصلح الأسلحة — على فتح السجن المدني ليطلق سراح المسجونين لمهيويين وعوضوهم بأعيان المدينة .

أما العامل الآنف الذكر فقد فر إلى زوج بغال ثم إلى السعيدية إذ التمس مساعدة الفرنسيين ضد خصومه الذين أدت بهم الجسارة والجرأة — رغم تهاطل الأمطار — إلى مطاردة جيش أنجاد في التراب الجزائري ونهب المطامير والمزارع والماشية ثم إلى الاغارة ، في 14 أبريل ، على بني خالد ، فأحرقوا لهم بعض المداشير .

ولقد توسط القائد حمادة البوزكاوي بين الجانبين مع شيوخ بني يزناسن وشيوخ الزوايا الدينية لتهدئة الأوضاع وسد الطريق أمام المناورات الاستعمارية حيث أن الجنرال Gand كان يتحين الفرصة لاحتلال وجدة[24] .

---

(22) لعل قبائل بني مطهر ضمت لحكم قائد نمهاية بعدما كانت تخضع لقيادة بوزيان الشاوي الاحلافي في إطار سياسة التوازن القبلي وتبعا للمواقع الحساسة المعرضة للقلاقل الداخلية وللاطماع الخارجية.

(23) Canal.J. Les Troubles de la Frontière Marocaine (Mars - Avril 1886). BSGO. (Bulletin de la Société de Géographie et d'Archéologie d'oran). Avril-Sept. 1886. pp.114-115.

(24) Ibid. pp. 116 à 120.
- Ibid. N° Sept-Déc. 1886. p.205.

وفي 1896 — 1897 نشب نزاع في نفس القبيلة بين الأخوين القائد الحاج السهلي والميلود بن بوكر وتمخض عن تكتلات متصارعة : من جهة ، العامل ادريس بن عيش البخاري الذي عزل الحاج السهلي من منصبه وعوضه بالميلود ، والزكارة تحت امرة القائد رمضان .... ومن جهة ثانية : لوساطة ، أولاد بركة ، لمزاوير ، بنو عتيق بزعامة القائد بولنوار ولد لهبيل ... فدارت بينهم مناوشات ومعارك في فترة فبراير — أبريل 1897 وكادت تصيب قبائل أخرى لولا تدخل الإدارة المركزية بالتي هي أحسن إذ قدم إلى وجدة مبعوث ملكي — عبد السلام لمراني — في أواخر يوليوز ، ورد الحاج السهلي إلى وظيفته .

وبعد أقل من ثلاثة أشهر عوض ادريس بن عيش ببوبكر ولد محمد العباسي الذي كان طاعنا في السن[25] .

وإذن ، فمن المؤكد أن الحالة السياسية السائدة في شرق المغرب في النصف الثاني من القرن 19 كانت دائما تتأرجح بين الاستقرار والتعايش القبلي وبين الفتن والأزمات الطائفية مما جعل المؤرخين — الأجانب منهم والمغاربة على السواء —[26] يضفون على فترات الأزمات هالة من الانفصام بين القيادات المحلية والسلطات المركزية والجهوية ، ويفسرون هذا الانفصام ببعد الشقة ، وبقوة قواد القبائل وشدة التنافس بينهم ، وبضعف امكانيات الدولة ...

إلا أن ما يسمونه بالسيبة ، وخاصة في عمالة وجدة ، لم يكتس في تلك الفترة التاريخية ، صبغة التمرد على النفوذ السلطاني ، بل ان الأهالي

---

(25) L. Voinot. Le Retour Incessant des Difficultés de la Frontière avec le Maroc. 1893-1896. BSGO. 1930.p.26.
- L. Voinot. Les Alertes à la Frontière pendant les Troubles de l'Amalat d'Oudjda. 1897. BSGO. 1931.pp.3 à 10. et 30 à 35.

(26) Laroui Abdellah. Les Origines Sociales et Culturelles du Nationalisme Marocain. (1830-1912). pp.126 à 128.

كانوا ملتزمين بالبيعة الشرعية نحو عاهل البلاد وكانوا يشيرون إليه في خطبة الجمعة ويدعون له حتّى عقب كل صلاة مفروضة ويبلغون له شكاويهم ورغباتهم في المناسبات الدينية الجليلة كالعيدين وعيد المولد النبوي الشريف ، على لسان وفود القبائل إلى الحاضرة الملكية من أجل تجديد العهد والولاء ، ومن أجل التبرك بشخصيته المبجلة .

نعم ، كان عامل البعد عن العاصمة الملكية لا يسهل التدخل السريع لفض النزاعات ولاعطاء كل ذي حق حقه ، ولكن في تقديرنا أن جوار الاستعمار الفرنسي لشرق المغرب كان أقوَى دافع لبث التفرقة وخلق حالات من السيبة وتشتيت بعض القبائل أو زعزعتها من مواقعها المألوفة ، وانتزاع أراضيها تارة بالحيل المتنوعة ، وتارة بالقوة المدمرة ، وآونة بضرب قبيلة بجارتها .

ولقد أبَى أهالي المنطقة الا أن يدافعوا عن مصالحهم ، دأبهم في ذلك كدأب أجدادهم في النجدة والشجاعة والتضحية من أجل احقاق الحق وازهاق الباطل .

ولا ننسَى أنه كان من عادتهم حمل السلاح في حالتي السلم والحرب ، بل كانوا يتداولونه بينهم في الأسواق ، فالسلاح كان رمزا لقوتهم ونخوتهم وتماسكهم القومي في تنقلاتهم الناتجة عن ظروف حياتهم الرعوية ، وفي مصاحبتهم للقوافل التجارية لحمايتها من كل اعتداء لأن العديد منهم كان يمتلك مطية وراحلة ليعزز دوره الاجتماعي والاقتصادي ، وإذا طرأت حالة الاستنفار ، ليقوم بواجبه الجهادي[27] .

وهذا يفسر لنا مدَى المقاومة الشعبية التي واجهت الحملات الاستعمارية في عمالة وجدة ، وكنتيجة لها ، الشكاوي التي تفاوض في شأنها ممثلو الحكومتين الفرنسية والمغربية هنا وهناك .

---

(27) Lacoste Yves. Ibn Khaldoun. Naissance de l'Histoire. Passé du Tiers-Monde. p.33.

2 – عودة إلى قضية الحدود المغربية الجزائرية :

قلما نجد تقريرا من تقارير الضباط الفرنسيين المشرفين على المخابرات المهتمة بشؤون شرق المغرب لا تذكر مسألة الحدود مع مستعمرتهم ، اما من أجل العثور على علامات طبيعية أوضح من العلامات السابقة ، واما لتمديدها إلى مصب نهر ملوية أو إلى نقطة استراتيجية على هذا النهر .

ولم يكد جيش الجنرال Martimprey يحط رحاله بعد عدوان 1859 حتّى توصل هذا الجنرال برسالة من وزير الحرب Randon يستشيره في ضم منطقة ملوية السفلى للجزائر ، فاستغرب هذا الرأي لأنه جاء في غير أوانه – وشتان بين من رأى وبين من سمع – ، واستحسن فقط اجتذاب القبائل المغربية القاطنة بالجزائر ، ففصلها عن ادارة عامل وجدة وأعفاها من الضرائب التي كانت تؤديها لهذا الأخير[28] .

وفي نفس الآونة ، نهج الجنرال Deligny أسلوبا آخر لفائدة قبائل بني بوسعيد ، فحول خط الحدود شرق ضريح سيدي يحيى إلى وادي طايرت ، وبذلك انتزع أكثر من ألفي هكتار من أولاد علي بن طلحة ليرغم القبائل التي كانت مستنكفة عن أداء الغرامات التي فرضت عليها عقب عدوان 1859[29] .

وفي ليلة 19 – 12 – 1859 ، وتحت مطر غزير ، توجهت كتيبة الجنرال Deligny إلى جبال الزكارة لتفاجئ بكرة خميسا وستين خيمة للمهاية ، فقتلت وسلبت ، وفي 6 – 7 يناير 1860 كررت عملية انتقامية مماثلة على عشيرين خيمة لنفس القبيلة قرب سيدي سلطان[30] .

وإن أفخاذ لمهاية كانت في ضيق شديد من جراء الاعتداءات المتوالية

---

(28) L. Voinot. Revue Africaine 1918. op.cit.p.386.
(29) Ibid. p.388.
(30) Ibid. pp. 391-392.

عليها ، فمنها من غرب فالتجأ عند اسجاج ، ومنها من فر إلى الشط الغربي عند بني كيل ، ومنها من احتمَى ببساتين مدينة وجدة ، خصوصا وأن الغرامة التي فرضت عليها — وهي 25 ألفا من رؤوس الأغنام — كانت تعادل حوالي ربع ثرواتها من الماشية[31] .

وازدادت حالتها سوءا بسبب المجاعة الناتجة عن قلة الأمطار أثناء 1862 والتي اجتاحت كل المنطقة[32] .

ومن المؤكد أن مهمة العامل أحمد بن الداودي كانت صعبة أمام محاولات الفرنسيين لرسم الحدود على حساب القبائل المغربية .

ففي 18 — 6 — 1866 التقَى بالكولونيل Chanzy في جبل بيرو لضبط الحدود بين ادراع الدوم والعاوج ، لكن قبائل بني يزناسن رفضت الاتفاق الذي حصل بينهما جملة وتفصيلا[33] .

وبقيت المسألة تشكل منبعا للمساومات وعاملا من عوامل الشقاق بين الجوانب الثلاثة ، ردحا من الزمن . ففي فاتح ماي 1873 تناقش الجيلالي بن كوطبي والجنرال Dastugue في شأن المساحة الشاسعة التي زرعها أهل أنجاد في بني واسين واتفقا على الغاء ضريبة العشر شريطة أنهم سيؤدونها مسبقا في السنة المقبلة قبل جمع محاصلهم[34] .

ولم تكن هذه البقعة وحدها عرضة للغموض والأخذ والرد ، فهناك بقع أخرى اختلف في معالمها في الدوائر الاستعمارية نفسها . فهذا Brunetière قائد معسكر مغنية يعترف بعجزه في ضبط الأشياء استنادا على الوثائق الرسمية التي بحوزته . فكان يعتقد أن هناك على الأقل خطين للحدود بين البلدين :

(31) Ibid. pp. 392-393.
(32) Ibid. p.403.
(33) L.Voinot. Revue Africaine 1919. p.411.
(34) L.Voinot. Revue Africaine 1922. op.cit. pp.87-88.

الأول يمر بازرايكة وسيدي عياد وقبر فرعون وكركور الميعاد ثم يتجه نحو وادي طايرت .

والثاني يضم رأس الأعوج ، سيدي عياد ، جورف البارود ، كركور سيدي حمزة ، زوج البغال ، سيدي زاهر ، عين تاقبلت ورأس طايرت .

بل يعترف هذا الضابط بأن بعض النقط المذكورة في معاهدة للا مغنية يستحيل ضبطها في الواقع ، وهذا يدل دلالة قاطعة على سذاجة أو خيانة المفاوض المغربي الذي أنهى مهمته بسرعة وارتجال معتمدا على النص الذي قدمه له الجانب الآخر[35] .

وفي أواخر دسمبر 1873 وبداية يناير 1874 زارت بعثة فرنسية برئاسة القبطان Boutan وبعثة مغربية مكونة من الشيخ علي ولد رمضان ، نائب العامل الذي كان بفاس ، والقائد محمد ولد البشير[36] ، والقاضي محمد بن الهاشمي الميري ، زارتا منطقة سيدي بهليل وسيدي زاهر وفج امشاميش وعين تاقبالت .

ونتيجة لذلك رسمت ثلاث مناطق مشتركة بين الطرفين وتجمع قبائل مغربية وجزائرية ، لها معالم طبيعية واضحة :

— الأولى : ادراع الدوم ، رأس الأعوج ، حوش سيدي بهليل ، جبل بيرو .

— الثانية : جورف البارود ، زوج بغال ، كركور سيدي حمزة .

— الثالثة : بين المحج الرابط سيدي زاهر بوجدة وبين حوض وادي روبان .

غير أن هذا الاتفاق المؤقت تغافل عن ابراز معالم الحدود بين عين

---

(35) Ibid. p.92.

(36) لم يشارك محمد ولد البشير في مفاوضات يناير 1874.

تاقبالت ورأس عصفور فقلص أراضي قبيلة بني حمليل التي أجبرت على أداء ضريبة سنوية مقابل امتلاكها مزارع بالتراب الجزائري[37] .

ومرة أخرى سويت مسألة مصيرية لصالح الأطماع الاستعمارية لأن الصفوف المغربية كانت متفرقة إذ أن محمد ولد البشير كان يسعَى لضمان مصالحه الشخصية وتحسين علاقاته بالدوائر الفرنسية ترقبا لتعيينه كعامل على اقليم وجدة .

ولهذا الموقف الانتهازي مؤشرات : كانت المواشي الكثيرة التي يمتلكها هذا الرجل ترعَى بالجزائر برخصة من السلطات الفرنسية .

وفي مارس 1874 استقبل القبطان Boutan بحفاوة رائعة بوجدة بمناسبة زواج محمد ولد البشير بابنت الشيخ علي ولد رمضان[38] .

وخلال الزيارات المتكررة التي كان يقوم بها هذا الأخير للضابط الفرنسي بمغنية كان يلتمس مساندته لتحقيق ما يطمح إليه صهره[39] .

وعلى أية حال فإن هذه المساعي جعلت الفرنسيين في غنىً عن اللجوء إلى استعمال العنف والقوة لاجبار الفلاحين المغاربة بالجزائر على أداء أعشار سنة 1874 ، رغم استنكاف بني ادرار وانجاد وبني حمليل عن ذلك في بادئ الأمر .

ومن الانصاف أن نقول ان العامل الجديد ، عبد القادر بن حسين – الملقب بقدور بن حيتوت – والذي لم يلتحق بمنصبه الا في 19 – 6 – 1874 حرص على تهدئة الوضع ، فبعث قوات مخزنية إلى القبائل للوفاء بالمعاهدات السابقة فأدَّى بنو ادرار وأنجاد 5.310 فرنك

---

(37) Ibid. pp.92 à 99.
(38) Ibid. pp.96-101-102.
(39) Ibid. pp.104-105.
توفي الشيخ علي ولد رمضان بمراكش في 1894. فوانو. وجدة ... ص. 133.

على أساس 70.80 فرنكا لكل زوجة ، الا أن بني حمليل لم يؤدوا واجبهم — وهو 2.180 فرنكا إلا في السنة الموالية .

وفي نفس الآونة أكد على إعادة النظر في رسم الحدود التي كانت مصدر نزاعات متوالية ، فتلقي مناورات توطد الأمر الواقع لاحراج الادارة السلطانية مع رعاياها[40] .

وليس من المستبعد أن تعيين محمد ولد البشير عاملا على إقليم وجدة أثناء الزيارة التي قام بها المولَى الحسن إلى منطقة سلوان في أواخر أكتوبر — أوائل نونبر 1874 كانت بادرة سياسية جكيمة لجمع الصفوف تحت قيادة قوية ومواجهة المناورات الاستعمارية[41] .

بيد أن معارضة قبائل أنجاد للقائد الايزناسني زادت في الطين بلة خلال سنتي 1875 — 76 مما استلزم مجيئ العاهل المغربي إلى وجدة في أواخر صيف 1876 والإقامة بها اثني عشر يوما للاستماع لذوي الرأي والنفوذ قبل سلوك المسلك الرشيد . ثم ان المفاوضات بين وزرائه والبعثة العسكرية الفرنسية أطلعته على استحالة التفاهم على تحديد التراب الوطني من الجهة الشرقية مع الحكومة العامة الجزائرية[42] .

ولاشك أنه أعطَى تعليمات واضحة للعامل بوشتة ولد البغدادي لتشمل امرته الحقيقية الفروع القبلية المغربية التي وضعت ظلما وعدوانا تحت الراية الفرنسية منذ 1859 ، كأولاد منصور وعطية وبني منكوش وحميان الجنبة .

ومن أجل ذلك بعث إليها رسلا في خريف 1876 لأن الفرق الثلاث الأولى كانت معفية من الضرائب من طرف الفرنسيين لاستمالتها إلى حكمها ، ولكن أولي الألباب أبصروا الخلفيات المسمومة لهذا الاجراء

(40) Ibid. pp. 107 à 121.
(41) L.Voinot. Ibid. pp. 122-123.
(42) L.Voinot. Revue Africaine 1924. op.cit. p.390.

فأعلنوا انتمائهم للمملكة العلوية غير ما مرة ورغبتهم في أداء واجباتهم الوطنية والدينية مهما كانت العواقب والتهديدات ، بل منهم من ثار على حكم الطاغوت كالقائد الحاج الحبيب ولد مبخوت الحمياني الذي هدد ضابطا فرنسيا بمسدسه بالعريشة في 19 ـ 10 ـ 1876 [43] .

أما قبيلة بني حمليل فقد تمسكت بأراضيها قرب ثنية امشاميش ومنعت قبيلة أولاد انهار من الرعي فيها في أواخر نفس السنة ، فتدخل قائد حامية سبدو القبطان Calley St Paul في 2 ـ 3 ـ 1877 لدَى بوشتة ولد البغدادي لرسم منطقة محايدة أخرى لرأب الصدع بين القبيلتين اضافة للمناطق الثلاث التي رسمت في 1874 [44] .

ولقد ركز المولى الحسن على ضرورة الاتفاق على حدود بارزة المعالم حينما استقبل ، لاول مرة ، السفير الفرنسي De Vernouillet بفاس في ربيع 1877 ، فتذرع له هذا الأخير بصعوبة وجود ذوي الخبرة بالمسائل الطبوغرافية في الادارة المغربية [45] ، وبقيت الأمور غامضة مما جعل بعض الشخصيات السامية كالجنرال Vuillemot يقترح تشكيل لجنة دولية لمراجعة معاهدة 1845 على أسس موضوعية وثابتة [46] .

ومن الحق القول بأن الارادة السياسية لدَى المغاربة في تضييق فجوة هذا النزاع كانت قوية ، ويكفينا الدليل الذي يتمثل في الاعتناء بالبعثتين العسكريتين اللتين استقرتا ، الأولى بمراكش في دسمبر 1877 ، والثانية بوجدة في يناير 1878 بقيادة القبطان Payerne ومساعدة الضابط

---

(43) Ibid. pp. 392-393.
(44) Ibid. pp. 400-401.
(45) Ibid. p.401.
(46) Ibid. pp.401-402.

Journee والطبيب Linares ، وقد مكثت هناك أربع سنوات[47] .

وبدل أن يدرس موضوع النزاع في الصميم بين الحكومتين فضلت الدوائر الاستعمارية أن تفتح باب المفاوضات الهامشية حول الجنايات التي ترتبت عن اصطدامات بين القبائل المتجاورة .

ففي 24 ــ 7 ــ 1878 التقَى العامل بوشنة ولد البغدادي ومبعوثان من الادارة المركزية ــ محمد بن عبد الله ــ ومقدم الزاوية الزيانية مع الكومندا بن داود بسيدي زاهر لفض نزاع بين قبائل بني كيل وحميان .

وفي 19 ــ 11 ــ 1879 توجه المفاوض عبد السلام بايس إلى سبدو للاعراب عن أسفه للجنرال Louis عن قضية لعريشة[48] . ولما انهَى مهمته رجع إلى فاس فوبخه المولَى الحسن على هذا التصرف المتذلل والقاه في غيابات السجن .

ومن فبراير إلى أبريل 1880 ــ حين خلف علي كيدر ، علي بن محمد الكيدري ، البشير ولد اعمر الديمي ــ جرت مفاوضات بين مولاي أحمد ابن العربي البلغيثي والجنرال Louis بتلمسان في شأن كل القضايا التي تراكمت منذ أمد بعيد ، فاتفقا على أن يؤدي المغرب 310.355 فرنكا لفرنسا مقابل 17 ألف فرنك لتعويض خسائر الجانبين . وقد ترددت الحكومة المغربية في هذا الصدد لأن مبعوثها بقي بوجدة إلى أوائل يونيو 1880 ثم قفل راجعا عن طريق البحر من الغزوات إلى طنجة[49] .

---

(47) Ibid. p.404.
ان الدكتور ليناريس اسدى خدمات جليلة لسكان وجدة حين تفشى فيهم داء الكوليرا في غشت 1878. المصدر السابق. ص. 409.

(48) Ibid. pp. 405-406-445.
انظر الصفحة 167.

(49) Ibid. pp.414 à 418.

ونلاحظ أنه في هذه الأثناء كانت تروج إشاعات حول مشروع ألماني للتمركز بشواطئ السعيدية المتاخمة للجزائر باتفاق مع الدولة العلوية مما أقلق حكومة باريز فأبدت تخوفاتها ووافقت على خطة عسكرية لبناء قاعدة قرب عجرود ، لها هدفان :

أحدهما عدواني والآخر تجاري[50] .

فمنحت في 1882 بقعة لضابط من البحرية ليؤسس الميناء الذي سيحمل اسمه وهو Port Say .

وبما أن هذا كان خرقا سافرا لمعاهدة للا مغنية فجاء رد الفعل المغربي في انشاء قصبة بسوق الحيمر بعجرود أطلق عليها اسم السعيدية .

ففي أواخر ماي 1883 بعث العامل عبد المالك بن علي السعيدي 24 مستخدما للشروع في الأشغال على بعد 300م غربي وادي كيس ، ثم مكث هناك خمسة أيام ، من 2 إلى 6 يونيو ، ليتابعها بنفسه .

وبطبيعة الحال بادرت القبائل بالمشاركة في هذا الانجاز باليد العاملة وبنقل مواد البناء على الدواب وبجمع الأموال ، فكان نصيب بني يزناسن ألف فرنك ، ونصيب انجاد 500 فرنك ، وكذلك لمهاية وقبائل أحواز وجدة ، وكبدانة وقلعية ...

وكانت القصبة ذات شكل مربع (150م × 150م) وذات الجدران المتينة (سمكها 1،50م وعلوها حوالي 8 أمتار) ، ولها أربعة أبراج في زواياها وبرجان في كل واجهة ، وباب واحدة في الجهة الشرقية ، وكانت تحتوي على غرف للجنود ومستودعات للذخيرة والميرة واسطبلات للكراع بالإضافة إلى مرافق سكنية وإدارية لقائد الحامية العسكرية وتم بناؤها في 1884[51] .

---

(50) Ibid. p. 418.

(51) L.Voinot. Une Epoque d'Entente Cordiale avec l'Amel d'Oudjda. (1881-1885). Revue Africaine. 1er et 2è Tr. 1926. pp. 43-44-67.
- Canal J.BSGO. 1886. pp. 216-218.

وفي هذه الأثناء توترت العلاقات التجارية مع الجزائر إذ سدت أسواقها لبعض القبائل المغربية كلمهاية وبني حمليل وبني مطهر واسجع وبني حمدون وبني يعلة وأنجاد وبني كيل وحميان الجمبة وأولاد جرير وذوي منيع .

فمنع المولى الحسن تصدير الأبقار إلى الجزائر بصفة مؤقتة ، ولم تنته هذه الأزمة إلا بعد المفاوضات التي أجراها عامل وجدة مع حاكم الجزائر Tirman بمغنية في 23 ــ 4 ــ 1883 ، وكان مصحوبا بعبد القادر بوترفاس قائد لمزاوير وبالحاج بوبكر ، قائد لمهاية ، وبعلى ولد رابح قائد بني خالد[52] .

وبخصوص معالم الحدود التي لم تضبط بكيفية جدية في أي مكان ، فقد اقترح الملك على فرنسا ، في 1892 تشكيل لجنة دولية ، إلا أنها فضلت المفاوضات المباشرة بين الادارتين المحليتين لربح الوقت وانتظار الفرصة الملائمة لتوسيع وجودها الاستعماري بالمغرب[53] .

3 – تحصينات مدينة وجدة :

إن الأحداث التي ذكرنا آنفا ، سواء منها التي لها علاقة بالحدود المغربية الجزائرية أو التي لها صلة بالاضطرابات الداخلية ، كانت تزيد في الدور الحساس والحيوي لمدينة وجدة كمركز سياسي وكنقطة رئيسية للمواصلات وكسوق تجارية نشيطة ، وكذلك كقاعدة عسكرية ذات أهمية .

---

(52) L.Voinot. Revue Africaine 1926. op.cit. pp. 36 à 40.

(53) ان المحاولة التي قام بها Cdt De ST Julien والعامل ادريس بن عيش في بداية أبريل 1896 بتعيين منطقة محايدة بين جرف البارود وزوج بغال كانت تندرج في سياسة الهيمنة التي تعتمد على الهاء الخصم بالاساليب الملتوية قبل مفاجئته بالأمر الذي لا قبل له به.
- L.Voinot. BSGO. 1930. op.cit. pp.5-18 à 21.

وكان من الضروري أن ترمم أو تجدد تحصيناتها الخارجية والداخلية ، من حين لآخر ، بل ان تضاف إليها بنايات أخرى لتعزيز المراقبة ولاستيعاب الاعداد الوافرة من الجنود الذين كانوا يتمركزون بها تبعا لضغط الأحداث الناجمة عن الحالة الاستنفارية التي ميزت تاريخ المدينة ، خاصة في القرن 19 .

ولا أدل على هذه المعطيات من عدد الأبواب التي كانت تجعل من كل حي مدينة صغيرة قائمة بحاجياتها ولها مسجد أو مسجدان ، بالإضافة إلى زاوية دينية أو أكثر .

فالزائر للمدينة في بداية القرن 19 كان يمر عادة من باب الزاوية في الجهة الشرقية ، ثم بعد مسافة قصيرة يحاذي قبة سيدي عبد الوهاب ، ثم يمر من باب سوق الخضرة إذا أراد أن يتوجه إلى القيسارية ، أو من باب السوق إذا أراد أن يقصد القصبة التي لها أيضا باب متينة لا تبعد عن باب أخرى ، وهي باب سيدي الشعيب ، الا بحوالي خمس عشرة خطوة .

أما إذا واصل سيره من هذه الباب نحو حي أولاد القاضي فكان يمر من باب سيدي زيان ثم يتجه غربا نحو باب أحراش ، ثم يمر بازقة ملتوية نحو باب ابن مرزوق .

وكانت هناك أبواب أخرى : باب أولاد عمران أو باب سيدي زيان ، شمالا ، وباب أهل الجامن ، غربا ، وباب سوق لغزل شمال مسجد سيدي عقبة ، والأبواب الخمس للقيسارية .

ومن المظاهر التي كانت تمتاز بها مدينة وجدة إلى عهد ليس ببعيد انها كان لها نوعان من التحصينات :

– **أولا** : نوع من التحصينات يشتمل على جدران الطوبية الصلبة والحواجز النباتية المختلفة الأشكال والأحجام التي كانت تحد البساتين الغناء

التي تسر الناظرين بسواقيها المتفرعة من وادي سيدي يحيَى وبخضرواتها وأشجارها الذوات الأفنان من زيتون وتين ورمان وغيرها من الفواكه ، وذلك على مساحة ألف هكتار تقريبا[54] .

– **ثانيا** : القصبة التي كانت تضم مرافق الإدارة والمحلة العسكرية وعددا من المنازل الخاصة بالتجار الكبار وفي طليعتهم التجار الفاسيين .

وكانت محاطة بسور ضخم من الطوبية المختلطة بالأحجار يبلغ سمكه 1،30م وارتفاعه من 6 إلى 7 أمتار ، وطوله حوالي كلم . وكان يتخلل هذا السور 10 أبراج :

واحد في كل من الجهة الشمالية والغربية ، اثنان في الجهة الجنوبية ، ثلاثة في الجهة الشرقية وثلاثة في ثلاث زوايا .

وكان يرمم من حين لآخر : ففي 1876 أمر المولى الحسن باصلاحه أثناء زيارته للمدينة ، وفي عهد العامل كيدر أي في 1880 – 1881 ، رمم جزءه الغربي على إثر انهياره بسبب عاصفة من الريح على جماعة من بني كيل أهلكها عن آخرها[55] .

وكان يخيل للمرء وهو يشاهد القصبة من الخارج انها قلعة منيعة ، خصوصا في جهتيها الغربية والجنوبية إذ كان سورها يشرف على خندق عميق . أما في الجهة الشمالية فكان ثمة الباب الوحيد الذي يؤدي إلى مرافقها .

ولم يبق من سور القصبة إلا الجدار الذي يحد حوش سيدي الشعيب ومدرسة أم البنين والزاوية الدرقاوية وحمام الحبوس ، والجدار الذي يشق الحمام البالي ويصل إلى سور ادريس بن عيش .

---

(54) Canal. J.Oudjda. BSGO. Sept-Déc. 1886. pp. 254 à 260.

(55) L.Voinot. Oudjda.. op.cit. pp. 117-118-120.
- Saladin Henri. Les Monuments d'Oudjda. p.9

إلا أن تلك التحصينات أصبحت غير كافية في معطيات الوضعية السياسية السائدة في أواخر القرن 19 حيث بدأت تلوح الدوائر الاستعمارية الفرنسية بالجزائر بالتدخل العسكري في شرق المغرب بعدما زحفت جحافلها في الصحراء المغربية القريبة من فكيك . ولذلك قرر العامل ادريس بن عيش ، في عهد المولَى عبد العزيز ، انشاء سور حول الأحياء الرئيسية للمدينة . فجمع اليد العاملة ــ مائتي رجل ــ في أكتوبر 1895 ، وشرع في الاشغال بحماس كبير وبمشاركة السكان ، كل حسب طاقته ، فمنهم من تطوع للحفر ، ومنهم من تطوع لنقل احمال من التراب والأحجار ، ومنهم من تصدق على العمال بالطعام والشراب ، وتبرع التجار ب 25 ألف فرنك لتعزيز مساهمة ادارة الأوقاف بضعف هذا المبلغ . وفي أبريل 1896 تم بناؤه ونظم احتفال بالمسجد الأعظم بهذه المناسبة فتليت آيات الذكر الحكيم والأمداح النبوية ، وأشاد الامام الحاج عبد الرحمن الميري بهذا الانجاز المفيد . وكان لهذا السور بالمواصفات الآتية : ارتفاعه 6 أمتار ، وسمكه متر ، وله مسننات مختلفة الأحجام .

وله أربعة أبواب : باب سيدي عبد الوهاب شرقا ، باب أولاد عمران شمالا ، باب الخميس في الجهة الشمالية الغربية ، باب الغربي أو باب تازة في الجهة الجنوبية الغربية ، لكل باب دفتان من الحديد السميك صنعتا بتلمسان(56) .

ويتميز باب سيدي عبد الوهاب بضخامة هيكله ، وكان ينفتح على رحبة واسعة تمتد نحو الشرق إلى مقبرتي «قبور ابازة وكرن الجامع» ، وكانت في النهار دائمة الازدحام سيما يومي الأربعاء والأحد حيث كانت رحبته تتحول إلى سوق للماشية ولمختلف البضائع . وكان يعلق عليها رؤوس

---

(56) L.Voinot. Oudjda. op.cit. p.118.

الثوار بعد تمليحها من طرف الحرفيين اليهود ، ثم بعد أيام كانت تدفن بالمقبرتي الآنفتي الذكر .

وتبدو واجهته للناظر بارزة عن جدار السور ، ويعلوها صف من الأشكال الهندسية رائعة الاتقان رغم بساطتها .

أما باب الغربي فلا يختلف شكله كثيرا عن باب سيدي عبد الوهاب ، انما يتميز أحد برجيه عن برجي الآخر بنافذة صغيرة تنفتح على ساحة النخيل . وكان يفضي إلى الطريق المؤدية إلى غرب البلاد ، لذلك كان يعرف أيضا بباب تازة كما أنه كان يطلق عليه اسم باب سيدي عيسَى نسبة لرجل صالح يوجد ضريحه فوق تلة تبعد عنه بحوالي كلم ، كما أنه لم ينقش في زاويتي اطاره السفلى الرسم الهندسي الذي يزدان به باب سيدي عبد الوهاب .

أما باب أولاد عمران فكان يوجد أمام مدخل زنقة السانية التي تربط روضات البساتين بحي أولاد عمران ، وكان يتشابه مع باب الخميس ماعدا في شكله الذي كان مقوسا بينما كان شكل الباب الثاني مربعا[57] .

ولقد مست هذين البابين الاصلاحات البلدية في بداية العشرينات من هذا القرن ، أي في عهد الحماية الفرنسية حيث اختفت معالمها حين هدم جزء كبير من السور على طول أكثر من كلم لتخطيط عدة شوارع وأزقة .

وبعبارة أدق فحينما كان الفأس يهدم شيئا فشيئا هذه المآثر التاريخية والحضارية البديعة فكأنما كان يعلن لسكان الأحياء القديمة هيمنة الاستعمار الأجنبي على مرافقهم الاقتصادية والعمرانية والاجتماعية ، وبذلك بدأ محور هذه المرافق يتحول من باب سيدي عبد الوهاب إلى شارع فرنسا ، شارع الأبناك والدور التجارية .

---

(57) Ibid. pp. 120-121.

الفصل الخامس

عهد الملوك العلويين

القسم الرابع

فترة التفكك الداخلي والاحتلال الفرنسي

1 ــ فتنة بوحمارة.

2 ــ فتنة بوعمامة.

3 ــ الاحتلال الفرنسي لشرق المغرب.

1 – فتنة بوحمارة .

رأينا أن الأوضاع العامة لشرق المغرب خلال القرن 19 طغت عليها سمات الاختلال والاعتلال نتيجة للعلل التي كانت تنخر البلاد من كل جانب وبصفة أدق بسبب الوطأة الامبريالية الفرنسية والاسبانية والانجليزية .

ولا عجب إذا نادَى زعماء الاصلاح بوحدة الكلمة وتراصَى الصفوف لمعالجة حالة الأمة حتَّى لا يزداد الخرق على الرقيع . ولا عجب أيضا إذا وجد كل ناعق ضالته لبث الأراجيف وإثارة الفتنة ارضاء لنزوات الكبرياء والجاه وسعيا وراء المغانم المادية والحضوض الدنيئة . وإذن ، كيف يمكن للباحث النزيه الذي يتحرى استجلاء الحقائق التاريخية أن يميز – في هذه الظروف – بين المصلح الماهر والمفسد الماكر ، وبين المخلص المتجرد والفاسق المتمرد ؟

والاسم الحقيقي لبوحمارة هو جيلالي بن عبد السلام بن ادريس اليوسفي ، وأصله من قرية أولاد يوسف بجبل زرهون بإقليم مكناس . كان مربوع القامة ، «أبيض مع صفرة ، نحيف الجسم ، مثمر الشفة السفلى ، على كتفه أثر جرح الرصاص ، وبإحدَى عينيه زناد»[1] .

كان كاتبا في الإدارة المخزنية حيث اتهم بالغش والتدليس فألقي في غيابات السجن مدة سنتين ثم أطلق سراحه وعين مساعدا للأمير مولاي عمر بن الحسن بفاس . وحينما بلغ عمره حوالي الأربعين بدأ يتجول في البوادي ممتطيا اتانا ومدعيا بأنه من أتباع الزاوية الدرقاوية ، ثم رحل إلى المشرق في 1900 لأداء فريضة الحج ، وأثناء ذهابه وإيابه زار الجزائر

---

(1) رسالة ملكية إلى القائد رمضان بن محمد الزكراوي في منتصف ذي الحجة 1320/منتصف مارس 1903. و.ع.

وتونس وتعرف على بعض العلماء وشيوخ الطرق الصوفية . ولقد طال به المقام بمدن تلمسان ووجدة والغزوات والسعيدية ثم أجرى عدة اتصالات بقبائل بني يزناسن وقلعية ، فظهرت عليه ملامح الذكاء والزهد والتنسك ، وبراهين الفطنة والمعرفة والتبرك ، فاستهوَى بها قلوب المتشوفين إلى الخلاص من وضعية الذلة والمسكنة ، ومن أيام الضعة والمشئمة .

ثم انتقل إلى قبيلة لحياينة بإقليم تازة وحضر الموسم السنوي لولي صالح هناك وبهر جلساءه بسعة علمه وفقهه ، وبجزالة سخائه وكرمه ، لاسيما لما أطلعهم على شرف نسبه ونبل مقصده . إذ ادعَى أنه هو مولاي محمد بن الحسن الأول ، شقيق الملك المولى عبد العزيز الذي لم يعتل على عرش أسلافه في 1894 ــ وسنه لم يناهز 14 سنة ــ إلا بحيلة دبرها الحاجب أبا أحمد بن موسَى ليسير شؤون الدولة وفق مبتغاه ومناه[2] .

وإن مولاي عبد العزيز الذي أصبح مبدئيا صاحب الحل والعقد منذ وفاة هذا الأخير في 1900 كان يميل إلى حياة اللهو والاسراف مع قرناء السوء والانحراف أمثال وزير الحرب المهدي لمنبهي والحاشية الانجليزية وعلى رأسها الضابط ماك لين Mac Lean الذين كانوا يتحفونه بأدوات اللعب والمرح كالدراجات المختلفة الأنواع ولوازم كرة المضرب .. ليخلو لهم الجو ويستبدوا بمال الدولة ورقاب الشعب في غيبة السلطان ولكن دائما باسمه[3] .

ولقد كان لدعاية بوحمارة في قبائل عدة مناطق أثر الوقود في هشيم

---

(2) اتحاف اعلام الناس ــ ج 1 ــ ص. 399 ــ 412.
ــ عبد الوهاب بن منصور. اعلام المغرب العربي ــ ج 1 ــ ص. 303.
- E.I. : Encyclopédie de l'Islam LEWIS 1960. p.1320.
- Arnaud-Dr L. Au Temps des «Mehallas» ou le Maroc de 1860 à 1912. pp. 154-159...
- Arch. de Vincennes. AV. C 20 Maroc. (Journal; La France Militaire du 5-51903).

(3) Arnaud. Dr. L. op.cit. p.157.
- Veyre Gabriel. Au Maroc. Dans l'Intimité du Sultan. ppl 83 à 120.
- Moulieras Auguste. les Zkara. BSGO. 1905. p.226.
اعلام المغرب العربي ــ ج 1 ــ ص. 347.

الزرع ، فاجتمعت حوله البناديق والطبول والأموال والصهول ، وتمكن من الاستيلاء على تازة في خريف 1902 ، وكاد يحتل فاس لولا مقاومة الجيش النظامي في المعارك الطاحنة التي دارت معه والتي رددت صداها بنواحي وجدة بعثاته الاخبارية لتحث الناس على مبايعته مستشهدة بآيات من الذكر الحكيم «ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ...»[4] وبأحاديث نبوية : (من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه ...) ولذلك شايعته بعض البطون القبلية من بني بوزكو وأسجاع وأنجاد ولمهاية وبني محيو وأولاد سيدي علي وأولاد سيدي الشيخ وبني كيل[5] بعدما وردت عليها أوامر من هذا النسق :

الحمد لله وحده وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحَبه . خدامنا الأرضين (السيد المأمون وكافة قبيلة الاعشاش) وفقكم الله وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ، فها نحن وجهنا لطرقكم الحاج عبد القادر نائبا عنا في قتال من بقي من الفساد الفارين من تازة وعليه فنأمركم بالوقوف على ساق في شد عضده والتخييم معه والتضييق بهم والهجوم عليهم حتّى يضمحل أمرهم ويبدد شملهم وتطهر من رجسهم البلاد والعباد ، وها نحن في انتظار ما يسمع عليكم أصلحكم الله والسلام ، صدر به أمرنا الشريف المعتبر بالله في 14 شعبان الأبرك عام 1321 (5 ـ 11 ـ 1903)[6] .

انما قبائل بني يزناسن أعرضت عنه في بادئ الأمر ريثما تطلع على جلية أمره رغم نداءاته المتكررة وعتاباته وتهديداته المستمرة[7] باستثناء شرذمة منها انضمت إليه حينما تمركز بقصبة سلوان على بعد 20 كلم من ميناء

(4) الاية 113 من سورة هود.

(5) رسالة من الروكي إلى عبد الرحمن، قائد بني كيل. 3 شوال 3/1320 ـ 1 ـ 1903 AIX. 1 J 189.
- L.Voinot. L'Agitation Roguiste. BSGO. 1912. p.178.
- Lt Gaquiere Berguent. (1904-1906). BSGO. 1913. pp.172-182-183.

(6) AIX. 1 J 189.

(7) Ibid.

مليلية ليسهل عليه استجلاب العتاد والميرة والذخيرة وليوثق صلاته بالدوائر الأجنبية التي كانت تتربص بالمغرب الدوائر وتسعَى في بث الشقاق والاختلاف في فصائل سكانه .

ولولا العمل السياسي الذي اضطلع به الأمير مولاي عرفة بن محمد ، عم الملك عبد العزيز ، بتعاون مع رجال الدين والوجهاء لتفنيد دعاية المتمرد واظهاره على حقيقته وتشبيهه بالذين يلبسون الحق بالباطل لانحاز إليه كل الناس بعدما ألحق هزيمة نكراء بالمحلة المخزنية قرب لعيون سيدي ملوك في 5 ــ 4 ــ 1903 .

وعقب ذلك توجه مولاي عرفة والعامل أحمد بن كروم في 13 ــ 4 ــ 1903 إلى معسكر مغنية ليلتمسا مساندة السلطات الفرنسية وتدخلها المباشر ضده إذا استفحل أمره[8] .

وبما أن هذه المفاوضات والمشاورات صادفت زيارة رئيس الجمهورية لتلمسان قرر أحمد بن كروم أن يحييه هناك جريا على العادة وتأكيدا لحسن العلاقة والجوار ، ثم عاد إلى مغنية ، فوجد بها وفدا من أهل وجدة لينصحه بالرجوع إلى مقر ولايته لطمئنة السكان وسد الفرصة أمام اشياع الدعي الذين تمكنوا من نفث سمومهم حتَّى في المصالح المخزنية فضلا عن الأوساط الشعبية . فاستجاب لرأيه وعاد إلى وجدة يوم الأحد 19 محرم 1321 / 21 ــ 4 ــ 1903 . لكنه لاحظ أن حزب الأعداء كبر شأنه وعلا نجمه بفضل قاضي المدينة محمد بن الطيب ، فقرر ليلة يوم الأربعاء 22 محرم / 24 أبريل أن يفر بأهله ، فقصد دار محمد بن عبد الغني ، شيخ زاوية قادرية ، بحي أهل وجدة ، ودخل بكرة مغنية حيث أبرق إلى

---

(8) L'Afrique Française. Mai 1903. N°5 p.164.
- Ibid. Juillet 1903. N°7. pp.221-222.
- L.VOinot. BSGO. 1912. op.cit. p.179.

الحاج محمد بن العربي الطريس طالبا ارسال مدد عسكري على جناح السرعة[9] .

ومن جهة أخرى اتصل وزير الخارجية عبد الكريم بن سليمان بسفير فرنسا بطنجة St René Taillandier ليشرح له كيفية تطبيق الاتفاقية التي أبرمت بين البلدين بالجزائر في 20 ـ 4 ـ 1902 والتي نصت على التعاون بينهما في حالة نشوب أي اضطراب قرب الحدود ، وذلك درءا للأخطار المحدقة بالمنطقة الشرقية التي أصبح امدادها بالجنود والعتاد أو حتّى استقاء أو استقصاء أخبارها مستحيلا عن طريق البر[10] .

وإذن فكان لابد لتلك الامدادات والوفود الرسمية أيضا (الحاجب السلطاني أحمد الركينة ، عامل فاس عبد الرحمن بن عبد الصادق ، القائد أبو بكر بن محمد العباسي أو الحباسي ، الأمين الحاج أحميدة بناني ، رئيس البعثة المغربية بالجزائر محمد الجباص ، الأمين محمد بن الحسن الحجوي ...)[11] ان تمر بحرا من طنجة إلى الموانئ الجزائرية ، الغزوات ، وهران ، بني صاف ... ثم تسير تحت الحماية الفرنسية إلى وجهتها المقصودة ، وبهذا كانت العيون الاستعمارية مطلعة تمام الاطلاع على مواطن القوة والضعف في الهياكل العسكرية والسياسية المغربية[12] ، بل على كل حركة أو خطة تستهدف القضاء على الفتان بوحمارة الذي لقب

---

(9) اعلام المغرب العربي ـ ج 1 ـ ص. 322 ـ 328.

(10) Saint Rene Taillandier. Les Origines du Maroc Français. Récit d'une Mission. (1901-1906). pp.117-118. AIX. 1 J 189.

(11) اعلام المغرب العربي. ـ ج 1 ـ ص. 330.
ـ عين محمد بن الحسن الحجوي رئيسا للبعثة المغربية بالجزائر مع الاقامة بوجدة في صيف 1904، وذلك في الوقت الذي خلف عبد الرحمن بن عبد الصادق أحمد الركينة كقائد عام على المحلات المخزنية. المصدر السابق. ص. 357.

(12) كانت بعض الأصوات الاستعمارية تندد من حين لأخر بهذا التعاون مع المغاربة وتزدري من هيئة وهندام جنودهم اثناء إقامتهم بالجزائر.
L'A.F. Août 1903. N°8. p.216.

بالروكي تذكيرا بالرجل الذي تزعم ثورة بقبيلة الرواكة في عهد المولَى محمد بن عبد الرحمن في 1862 .

وليس من قبيل المؤازرة الخالصة ان ترافق المحلة النظامية في التراب الوطني فرقة من المدفعية برئاسة ثلاثة ضباط Martin + Larras + Mougin بالإضافة إلى أربعة مساعدين جزائريين اشتهر منهم عبد الرحمن بن أسديرة في سلسلة المعارك التي جرت مع الثوار خلال الفترة 1903 — 1906[13] .

ولولا الدور الذي قامت به هذه المدفعية[14] لوطد الروكي نفوذه بمدينة وجدة لأنه على اثر انتصاره الساحق على محلة لعيون سيدي ملوك في 5 — 4 — 1903 ذاع صيته في الآفاق فمال إليه بعض الأعيان وقدموا إليه بيعتهم في سلوان في 27 أبريل ثم في اغبال في 23 يونيو ، وبذلك فتحت له أبواب مدينة وجدة في 26 يونيو ونصب صهره الحاج محمد الطيب عاملا عليها .

وأثناء مقامه هناك إلى يوم 10 يوليوز نصب مضاربه على كدية سيدي عيسَى وصلَّى صلاة الجمعة بالمسجد الأعظم وكلف أحد الجزائريين — ابن سالم فاصلة — بصنع شعارات الملك — رمحين ومضلة من الطراز الرفيع — ليزيد في أبهات الملوكية ، كما أنه استولَى على مدفعين كانا بأبراج سور القصبة وثمانمائة بندقية كان الأمير مولاي عرفة وزعها على السكان ليدافعوا

---

(13) Mougin. Cap. Résumé de Nos Rapports avec les Représentants du Maghzen et les Populations de la Zone-Frontière Orano-Marocaine depuis 20 ans. BSGO. 1910. pp. 404-405.
- BSGO. 1912. op.cit. pp. 190-191.

(14) نعتقد أنه مهما كانت الجوانب السلبية لمساعدة فرنسا للمغرب لقمع الثوار فكانت أقل ضررا من التدخل السافر لجيشها الذي الح عليه أحمد الركينة حين عاين قلة العسكر النظامي وضعف وسائل المواصلات البحرية لنقل الامدادات البشرية والمادية إلى مواقع الفتنة. وحتى لو فرضنا أن مولاي عبد العزيز كان يشاطر رأي مفوضه فلم يكن من مصلحة فرنسا أن تتورط أكثر من اللازم في صراع داخلي لتعقد موقف الملك مع رعاياه ولتقوض شرعية سلطته. اعلام المغرب العربي — ج 1 — ص.334.

عن أنفسهم[15] ثم أنه راسل السلطات الفرنسية بالجزائر لئلا تنحاز إلى مخزن مولاي عبد العزيز أو على الأقل لتلتزم الحياد الودي أمام الصراع الداخلي بينهما. ومما جاء في إحدَى مراسلاته :

«...إلى أعقل رؤساء الدولة الافرانصيصية المتعين بمدينة وهران ؛ لازال السؤال عن كافة أحوالكم السنية وتصرفاتكم المرعية ، اما بعد ، لم تزل دولتكم هذه مع دولتنا المغربية في أحسن حالة وعذوبة المحاورة ومتن السياسة والمخالطة حتَّى ثار من لعبت به نفسه الأمارة في أواننا هذه الساعة الذي أراد خراب ديننا والتشيطن في دولتكم من جوارنا عبد العزيز ، واتباعه الحال ببلدتكم الآن[16] تواجه قصدا للتشيطن فيما بيننا وبينكم ، وارادتهم حسم المصارفة معكم وذلك لما ضعفت قوتهم وخابَ مسعاهم ؛ فالشيطان لما ضعفت قوته وخسرت بضاعته بدت منه وسوسة وذلك منتهاه وطاقته ، ولما تحقق منهم ذلك حاكم مليلية طردهم عنه لتلك الحيثية وأجابهم في قوله : إن كانت لكم طاقة بمن قام لنصرة دينه فابرزوا في بركم لمحاربته وأخرجوا أميركم كخروج الآخر لمبارزته واتركوا التعلق بمن سواكم والا سلموا الأمر لمن دهمكم ، وأشتغلوا بأنفسكم.

فلما ايسوا اغاثته وتحققوا لهم طرده توجهوا وجهتكم مستبرئين أحوالكم ، فهم الآن كمتبوعهم كمن أكل السم وعدم الطبيب وأشرف على حتفه ولم ينفعه حديث ولا حبيب ، كيف وقد شاع عند جميع الأجناس ورؤساء الإسلام ممن له عقل وحواس انحياشكم لجانبنا والميل بكليتكم إلينا كما أن الانجليز أتعب مهجته في الميل للطائفة الباغية العزيزية[17] ... لما له في ذلك من الدسيسة الجلية التي يريد بها من بين

---

(15) المصدر السابق. ص. 336.
BSGO. 1912. op.cit. pp.185-187 à 189.

(16) يعني مولاي عرفة واحمد الركينة واحمد بن كروم ...

(17) كان في نية بوحمارة تهييج المنافسة بين فرنسا وانجلترا واسبانيا قبل أن يقدم على التحالف مع الأولى إذا رغبت في ذلك، ولكن مجريات الأحداث خيبت ظنه وأرغمته على انتهاج سياسة التعاون مع السلطات الاسبانية بمليلية.

الأجناس الخصوصية ... فها نحن الآن جواركم نريد كما تريدون من حسن المصارفة معكم ... في 30 صفر الخير عام 1321 (27 ماي 1903)»[18] .

ومما لاشك فيه ان انحياز فرنسا لمولاي عبد العزيز أرغم القوات التي تركها الروكي بمدينة وجدة على مغادرتها مخافة أن تطوقها المحلة التي جاء بها أحمد الركينة وأحمد بن كروم من الجزائر في 11 غشت 1903[19] . وهل ذلك أفقده الأمل في تغيير الكفة لصالحه وبالأحرَى تعزيز موقفه بالتفاهم مع بعض الدوائر الفرنسية ؟

يبدو العكس تماما لأن الرجل اختار أحد المغامرين الفرنسيين وهو Gabriel Delbrel الذي كان عمره وقتئذ 32 سنة ، لتموين جيشه بالعتاد الحربي علما منه بكفائته وبخبرته الواسعة في التجسس لحساب مخابرات والي الجزائر[20] .

ولقد كان Delbrel همزة الوصل بين الروكي والشيخ بو عمامة الذي ساهم بقسط وافر في اتساع واستمرار حركة التمرد ولو في مناطق محدودة ، وحتَّى بعد ما ثبتت للرأي العام الداخلي أساليب التمويه والتضليل والخداع التي استعملها الروكي حيث أنه كما ورد في نشرة لعلماء فاس :

«...وكيف يرضي ذو همة أن يتبع ذلك الفتان مع ما اشتهر عنه من الكذب والبهتان ، فمن ذلك كذبه في نسبه حيث زعم وادعَى أنه الشريف مولاي محمد بالفتح ابن مولانا المفدي أمير المؤمنين مولانا الحسن مع أن الشريف مولاي محمد المذكور هاهو الآن بفاس ، كان قدم من مكناسة

---

(18) AIX 30 H 49.
AIX 1 J 189.

(19) BSGO. 1910. op.cit. p. 405.
BSGO. 1912. op.cit. p.191.

(20) Du Taillis Jean. le Maroc Pittoresque. pp. 59 à 61.

الزيتون وزار مولانا ادريس وسيدي أحمد التيجاني رضي الله عنهما ، ولازال هنا يراه الجم الغفير من أهل فاس وغيرهم من علماء وشرفاء وحملة القرآن وأهل الخير والعامة من الرجال والنساء والصبيان والاحرار والمماليك رؤية عيان لاشك فيها ولاريب ، وليس لانكارها سبيل إذ النهار لا يحتاج إلى دليل ، وليس الخبر كالعيان وما بعد رؤية البصر بيان»[21] .

وفي الحقيقة أن الروكي ما كان يبلغ شأنه ما بلغ لولا العوامل الآتية :

ـ أولا : اغرائه سفلة القوم والمغامرين الذين يرتزقون من سفك الدماء والنهب والغصب لدرجة أنه اجتذب حتّى بعض الجزائريين أمثال صالح التلمساني ـ الصدر الأعظم في حكومته !!! ـ وعبد الملك بن محي الدين حفيد الأمير عبد القادر ـ رئيس مصلحة المخابرات !! ـ وعبد القادر بن الحاج البارودي ـ وزير الخارجية !!! ـ... وتدخل في هذا الصدد الامتيازات التي انعم بها على بعض الاشراف أو حافظ على استمراريتها للزوايا الشهيرة كزاوية سيدي محمد بن عبد الله بقبيلة عطية[22] . وأما المخلصون للعرش العلوي من أبناء المنطقة الشرقية فقد تصدوا له استهانة بحيله المرغبة والمرهبة وأجبروه على مراعاة الحذر والحيطة لأنهم تفطنوا لمكايده وبالعواقب المفجعة لمخططاته .

ومن هؤلاء المجاهدين الأبرار الذين انفقوا كل غال ونفيس في هذا السبيل ، القائد حمادة بن المختار البوزكاوي[23] الذي سجل له التاريخ صفحة مجيدة وخالدة لأنه استطاع بذكائه وبسالته أن يقلص نفوذ الروكي

---

(21) AIX 1 J 189.

(22) المرسوم المؤرخ في 13 ذي القعدة 11/1320 ـ 2 ـ 1903. المصدر السابق.

(23) ينتمي حمادة بن المختار إلى قبيلة أولاد علي بن احمد الذين هاجروا من قصبة لوداغير بفكيك إلى جبال بني بوزكو. وعين قائدا على قبائلها في 1876، في عهد المولى الحسن الذي تزوج بإحدى بناته ـ السيدة حليمة ـ التي يوجد قبرها بضريح علي أو يوسف بسوق الخميس. تحقيق المؤلف.

Gaquiere Lt. Les Beni Bou Zeggou. Bull; de la Société de Géographie et d'Archéologie d'Oran. 1910. pp. 501 à 504.
- BSGO. 1912. op. cit. p.198.

بشكل حاسم. ذلك أن الملك المزعوم أوفد إليه في 17 غشت 1904 / الأربعاء 5 جمادى الثانية 1322[24] جماعة مكونة من 85 رجلا من كبار الشخصيات من حاشيته، منهم صدره الأعظم صالح التلمساني، والقائد ابن شلال، والشريف الكركري، والقائد ميمون، والحاج حدو المزوجي والقائد مزيان الزهراوي — والد المارشال محمد مزيان — ومحمد ولد بوترفاس قائد بني محيو.... ونسوة وعشرة بغال محملة بالمهر ليخطب حفيدة له فيربط معه أواصر القرابة والتعاون السياسي والحربي في آن واحد. فاستقبلهم حمادة بكل ما يليق بهم من حفاوة واعتناء واكرام. وبعدما سهروا زلفا من الليل على الفرش الوثيرة في المذاكرة الممتعة التي تمتزج بالجد والهزل عرض عليهم الاستحمام في حمامه الخاص[25] وملابس جديدة أعدها للبسهم قبل أن يضطجعوا في أفرشة النوم. وكان قد رصد لهم به أعوانا شدادا غلاظا بأيديهم أدوات الفتك من سيوف وخناجير وسكاكين. فاستحسن القوم هذه المكرمة، لكن ما كان أحدهم يتخطّى عتبة الحمام حتّى كانت ضربة شفير الحديد تقع على عنقه أو بطنه وترديه قتيلا في الحال، وبذلك قضي على معظمهم إلا من رحم الله، ولم ينج منهم إلا الحاج المزوجي والقائد مزيان الزهراوي.

ثم جمع حمادة أهله وأنصاره — 200 خيمة — وبعض الأمتعة وانسحب إلى وجدة[26] حيث استقر إلى أن وافته المنية في أبريل

---

(24) إن الرسالة التي بعثها القائد حمادة إلى حمزة، شيخ زاوية الكافايت في 13 جمادى الأولى 26/1322 — 7 — 1904 تفيد أنه التمس منه الاتصال بالسلطات الفرنسية كي تساعد القوات المخزنية في دحر الهجوم المنتظر من جانب الروكي على قصبته بسوق الخميس .AIX 30 H 12

— حسب عبد الوهاب بن منصور، ان هذه المذبحة وقعت يوم الاحد 21 — 8 — 9/1904 جمادى الثانية 1322. اعلام المغرب العربي. — ج 1 — ص. 340.

(25) يوجد هذا الحمام بالزاوية الشرقية للقصبة التي حولها الروكي إلى أطلال ليشفي غليل الانتقام. وقد أصلحها القائد محمد بن حمادة لكن عوامل التخريب والاضمحلال عادت إليها حينما هاجرها أهلها، فأصبحت قاعا صفصفا كان لم تغن بالامس. تحقيق المؤلف.

(26) رسالة ملكية إلى القائد حمادة في 24 جمادة الثانية 5/1322 — 9 — 1904. و.ع.

1905[27] وهو مدفون بمقصورة مسجد سيدي عقبة[28].

وقد نوه المولى عبد العزيز بمقام القائد حمادة لديه وهنأه على شجاعته وأنعم «عليه وعلى ولده محمد بفرسين بسناحهما ومكحلتين وكسوتين وخمسين كسوة لاعيان قبيلته»[29].

ونقتطف من الظهير المؤرخ في 13 جمادَى الثانية 1322 / 25 غشت 1904 ما يلي :

«...يعلم من كتابنا هذا لازال ملتفي بواجب التعظيم وكفيلا لخواص الخدام بزيادة الاعتبار والتكريم أننا بحول الله وقوته وشامل يمنه ومنته اسبلنا على ما سكه خديمنا الأنصح الأنجد الأفلح القائد حمادة البوزكاوي أردية الحظوة والافتخار واثبتنا له على صفحات الزمان رسوم العز والعناية والاعتبار ، والحقناه بملاحق الرضى والتقريب والإيثار وزدناه على مكانته المحفوظة مكانة .... وألحقنا به في ذلك أولاده أصلحهم الله وأقاربه والمحبين له من اخوانه ..»[30].

— أما العامل الثاني الذي وطد نفوذ بوحمارة بالمنطقة فيتمثل في قوة بطشه بكل من تردد عن اتباع سبيله . ويكفينا دليلا هذه المراسلة الموجهة إلى أنصاره في قبيلة بني بو يحيَى في 25 رجب 1323 / 25 — 9 — 1905 :

---

(27) رسالة ملكية تعزي محمد بن حمادة في وفاة أبيه مؤرخة في 4 ربيع الأول 9/1323 — 5 — 1905، ورد فيها :

... وما ضاع في الحقيقة الا لنا، فقد كان من العمد القوية في خدمتنا الشريفة ومن أصدق النصحاء المحبين لجانبنا العالي بالله، وقد ولينا مكانه ... و.ع.

(28) اعلام المغرب العربي. ج 1 — ص. 339 — 340.

— معلومات الفقيه الفاضل والشيخ الوقور محمد بن الطيب الملحاوي، الامام الراتب لمسجد سيدي عقبة الذي توفي يوم الأحد 1984/4/15 / 14 رجب 1405.

BSGO. 1910. op.cit. pp.502 à 504.

(29) رسالة ملكية إلى القائد حمادة. 14 جمادة الثانية 1332 / 26 — 8 — 1904.و.ع.

(30) و.ع.

...خدامنا الأرضين كافة قبيلة بني بو يحيَى وعمالهم أمنكم الله وأرشدكم وسلام عليكم ورحمة الله ، وبعد ، قد بلغ شريف علمنا أن بعض الكرونيين (أي الذين كانوا ملتزمين بالبيعة لعبد العزيز والذين نعتوا بهذا الاسم المشتق من اسم الكولونيل ماك لين الانجليزي الذي كان يدرب الجيش المخزني بفاس) من اخوانكم يبيعون زروعهم ويهربون لاتريفة ، وعليه نأمركم بالبحث عنهم ، ومن ظهر عليه شيء من ذلك فاقبضوا عليه وثقفوا متاعه وزروعه إلى أن تأمرون بما هو المعول عليه في ذلك ، أعانكم الله والسلام ...[31] .

ـ والعامل الثالث تجلى في استقباله الوفود من رجال الصحافة الأوربيين للتأثير على الرأي العام السياسي للتعاطف مع حركته ومؤازرتها بشتَّى الوسائل[32] .

ـ والعامل الرابع : توثيق علاقاته مع الاسبان بمليلية ليشتري المعدات العسكرية وكل ما يحتاج إليه من أدوية وأغطية وغيرها في عين المكان أو على مقربة من هذه المدينة حيث كانت البواخر من جبل طارق وشركة المانية من هنبورك ومن الولايات المتحدة الامريكية تفرغ له صناديق من الأسلحة والبارود والملابس على مسمع ومرأى من الحامية الاسبانية[33] .

ومن الثابت أيضا أنه كان له من يزوده بها من الجزائر اما برا واما بحرا ، وقد عبرت غير ما مرة الحكومة المغربية عن امتعاضها وقلقها من هذه الظاهرة التي كانت تتنافَى مع السياسة الفرنسية الرسمية كما أشرنا إلى ذلك آنفا[34].

---

(31) Paul Paquignon. Quelques Lettres du Makhzen de Bou Hmara. R.M.M. 1909. p.601.

(32) AIX 1 J 192-

(33) مراسلة من حاكم الجزائر إلى وزير الحرب. 27 ـ 6 ـ 1905.
AV C 18 Maroc.

(34) اعلام المغرب العربي. ج 1 ـ ص. 372.
AV C 12 Maroc.
Mohamed Omar El Hajoul. Histoire Diplomatique du Maroc. (1900 - 1912). p.62

وما هذا الموقف المزدوج من دولة استعمارية بخارج عن الاعراف الأخلاقية الدولية ولا بمخل مع علاقاتها مع المغرب إذ كانت تعرف مدَى احتياج هذا الأخير إليها ثم انها كانت تأخذ بعين الاعتبار مصالح رعاياها بمستعمرتها الجزائرية ، وفي طليعتهم أرباب المؤسسات الاقتصادية والتجارية .

وقد راج في أوساط الأهالي بشرق المغرب أن الروكي يعمل لصالح فرنسا ، بدءا وختاما ، وبأنه من المعاول الاستعمارية التي تهدم سيادة وحرية الوطن .

ولو كان كذلك لما ندد هذا الرجل بالاعتداء العسكري الفرنسي على مدينة فكيك في 8 يونيو 1903 [35] ولما اختار قصبة سلوان كمركز رئيسي لحركته ولما ولي وجهه شطر المناطق الغربية من البلاد في 1908 حينما فقد سيطرته على القبائل التي كانت تأويه وتؤازره . وهناك حقيقة أخرى لاحظها من عاصر الأحداث وشارك فيها بنفسه [36] وهي أن اتباعه الذين عينهم في المناصب القيادية [37] وبقوا على قيد الحياة بعد انصرام أمره

(35) AIX 30 H 49.

(36) من الرجال الذين انخرطوا في جيش بو حمارة مدة ثلاث سنوات الحاج محمد بن محمد بن أحمد بن الطاهر امبوعزة، وهو من اولاد محمد بن سعيد من قبيلة بني وكيل. وقد أكد لي يوم الاثنين 23 شوال 1401/8/24/1981 ــ وكان عمره وقتئذ يناهز، مائة سنة ــ ان الروكي كان يعمل لنفسه، لا لفرنسا، لأنه خلافا لما وقع لأنصار بوعمامة البوشيخي، فأنصاره المرموقين في عهده، أصبحوا من عامة الناس أيام الاحتلال الفرنسي. ومن هؤلاء محمد بن عبد القادر قجعيو في بني خلوف، وعبد القادر ولد الحاج الحسين + التهامي ولد الحاج عبد القادر في بني وكيل، وعبد القادر ولد علي، قائد بني ميمون، والمصطفى ولد علي الكنفود، قائد لبصارة...

(37) من بين الرجال الذين انعم عليهم الروكي بظهائر القيادة :
- في بني وريمش : محمد ولد البشير حرود، محمد بن علي.
- في بني منكوش : المصطفى ولد علي الكنفود، محمد ولد عبد القادر قجعيو، محمد الكروج.
- في بني خالد : ميمون ولد السي علي، محمد ولد شناح، محمد ولد عيسى، شهبون ولد عبد المومن.
- في اولاد احمد بن ابراهيم : عبد القادر بن ختير، عبد الكريم ولد اعمارة.
- في اولاد علي بن طلحة : قويدر بوعرفة، بوزيان ولد بن زيان.
- في الزكارة : محمد ولد رمضان، بلعيد ولد رمضان.
- في بني بوزكو : محمد ولد الحاج محمد الحولي، الماحي ولد عامر، محمد ازروال.

وتشتيت شمله لم يحظوا بأية عناية ولا بأي امتياز أو وظيف مرموق في عهد الحماية الفرنسية . فهل يمكن لدولة عريقة في الحضارة والقوة أن تتنكر إلى هذا الحد لمن أسدَى لها خدمات وانخرط في سلك سياستها الاستعمارية ؟؟

ونعتقد أن شهادة التاجر Bourmance الذي تذاكر مرتين مع الروكي لا تجانب حقيقة الأمر :

«...ان مشاعر الملك المزعوم نحو فرنسا هي مشاعر الجار الذي لا يهتم كثيرا بجاره ولا يحمل له أية مودة ، بينما يكن لاسبانيا مشاعر الصداقة الحقيقية والعرفان الخالص لأنها تؤيده وتساعده ...

فهو الآن بجنان الحاج السهلي و(على بعد 20 كلم جنوب مدينة وجدة) .. وسيدفع بقبائله نحو الشمال لضرب الحصار على وجدة التي يؤمل سقوطها بيده عما قريب . ووقتئذ ستكون له صلة أكيدة مع الجزائر التي سوف لا يمنح لها أي جزء من سلطته لأنه يتحدث الآن عن مراجعة الحدود معها في الناحية الجنوبية . وأن المسألة الوحيدة التي سيتنازع عليها معها هي رأس العين «التي احتلها ليوطي في 15 ــ 6 ــ 1904» فهو يعتبرها من مملكته وسيؤكد ذلك بقوة السلاح .... وان هذه القوة التي تتضخم وراء الحدود بفضل الفرنسي Delbrel ستشكل خطرا علينا ...»(38) .

= * في لمهاية : بوسوار ولد عيسى، المدني ولد قدور، الشيخ ولد بوحفص.
* في اسجاع : لخضر ولد اسليمي.
* في بني يعلة : احمد ولد بوزيان.
* في لمزاوير : قدور ولد امعمر.
* في بني عتيك : محمد ثم أخوه عبد السلام ولد لهبيل.
* في هوارة : الدخيمي ولد علي العمري.
* في بني محيو : محمد ثم أخوه قدور ولد بوترفاس.
BSGO. 1912. op.cit. p.204.

(38) مراسلة حاكم الجزائر إلى وزير الحرب. 25 ــ 6 ــ 1905.
ترجمة المؤلف. AV C 12 Maroc

— والعامل الخامس يتمثل في الحالة المادية والمعنوية للجيش العزيزي . فإن كثيرا من الدلائل تبين لنا الأحوال السيئة التي عاشها الجندي النظامي ، سواء حين ظعنه أو اقامته . فتارة كان لا يتوصل بأي راتب ، فيلتجئ إلى اللصوصية والاستجداء أو الرجوع إلى أهله إذا وجد إلى ذلك سبيلا ، وقلما كان يجد هذا السبيل نظرا لبعد الشقة وانعدام الزاد والراحلة . وتارة كان يذهب إلى الجزائر ليشتكي للسلطات الفرنسية عسَى أن تنقذه من سوء الحال واخطار المآل .

ففي أكتوبر 1903 ، لما توجهت محلتا تازة ولمسون إلى شرق المغرب كان جنودهما يعانون من العياء والعري والجوع لدرجة أنهم كانوا يتلفون في كل مرحلة ما يعجزون عن حمله من السلاح والذخيرة والمتاع ،حتَّى لا يستولي عليها أنصار الروكي .

ولما تفقد أحمد الركينة أحوالهم بلعيون سيدي ملوك رأَى من الفوضَى ومرض القلوب وخيانة الأمانة وتجاذب حبل السلط وتداخل الاختصاصات ما جعله يحتار ويتشاءم من الحاضر والمستقبل . وبينما كان يتشاور مع الادارة المركزية في شأنهم ، أصدر قوادهما الأمر بالانسحاب إلى وجدة حيث ضاق السكان بهما ذرعا لأن بساتينهم ومطاميرهم أصبحت عرضة للنهب ليلا ونهارا . فقرر أحمد الركينة ترحيلهما إلى طنجة خشية أن تثيرا مشاكل مع الجيش الفرنسي المرابط بالحدود ، وطلب من قوادهما اجراء احصاء للجنود والكراع لتوفير السفن اللازمة . لكنهم امتنعوا عن ذلك خشية أن تفتضح الاعداد الخيالية من الجنود التي كانوا يتسلمون رواتبها ومؤنتها . وهذا يدل على الخيانة العظمَى لبعض الضباط الذين كانوا يستأثرون بالأموال والمؤن تاركين الجنود في المخمصة والمرض والاهمال .

قد يقول قائل ان هؤلاء كانوا على شاكلة سامي الموظفين الذين كانوا يمدون أيديهم لمال الدولة لانعدام المراقبة الدقيقة ، لا يستثني «...منهم أمين الأمناء بالعاصمة ولا أمناء المحال وضباط الوحدات ، ومعظم الأسر

التي ظهر عليها الثراء في مطلع هذا القرن العشرين كآل التازي والجابي والمنبهي انما اثرت واستغنت مما سرقته من مال المخزن ــ أي مال الشعب ــ في هذه الفترة العصيبة من تاريخ المغرب ، فبالاضافة إلى رواتب الاعداد (المنفوخة) من الجنود والمصاريف الخيالية والنفقات السرية كان المال إذا وصل إلى رؤساء المحلات وضباط الوحدات يستبدون بمعظمه لأنفسهم ..»[39] .

وإذا كانت هكذا حالة الجيش النظامي فما بالنا بالوضعية التي كان يتردى فيها المجاهدون المتطوعون الذين جاءوا من مختلف الجهات المغربية ! وهل يسوغ لنا أن نؤاخذ من فر منهم من الجندية أو باع سلاحه أو أغار على قوافل التجار وأموال القبائل الموالية أو المعادية للمخزن مثلما وقع في 1905 ؟؟[40] .

ولنا بعض الإشارات إلى هذه الأوضاع في الرسالتين الملكيتين اللتين توصل بهما القائد محمد بن حمادة الملقب بانكادي ، الأولى في 3 رجب 1323 / 3 ــ 9 ــ 1905 ، والثانية في 27 صفر 1324 / 22 ــ 4 ــ 1906 :

«...وصل كتابك بخروج الفتان من قصبة العيون وتركها عامرة مع كون أهل أنجاد لازالوا على خوضهم وان بقوا عليه فلا يستقيم أمر وخصوصا إذا توجهت المحلة للريف ، وان كان ولابد من توجيهها ، فيتوجه النصف ، والنصف الآخر يبقَى لاستقامتهم ، ويبقَى معك مدد بكل ما يحتاج إليه من العدة والقرطوس والمؤونة لاصلاح اخوتك ...»[41] .

---

(39) اعلام المغرب العربي. ج 1 ــ ص. 346 إلى 351.

(40) المصدر السابق. ص. 369.

(41) و.ع.

«...وصل كتابك ان الفاسد الفتان لازال بقصبة سلوان ، وكذلك أبو عمامة لازال نازلا بين بني بوزكوا والزكارة ، وكلاهما فشل أمره واضمحل ناموسه ، ولولا تراخي المكلفين بالمحلة هناك لقطع دابرهما وانحسمت مادة شرهما وصار بالبال ، وقد أحسنت في الاعلام بذلك ..»[42] .

ورغم ما كابد الموالون للسلطة الشرعية من العناء والمشاق فقد صمدوا في وجه الثوار وكبدوهم أفدح الخسائر في ساحة القتال وتصدوا لهجماتهم المتوالية على وجدة في يوم السبت 19 ــ 9 ــ 1903 / 25 جمادى الثانية 1321 ويوم الأحد 29 ــ 1 ــ 1905 / 23 ذي القعدة 1322 ويوم الأحد 9 ــ 4 ــ 1905 / 3 صفر 1323 حيث دارت معارك عنيفة في ثلاث واجهات :

شمالا ، قرب الجرف الأخضر ، ضد بني بوزكو واسجاع والزكارة ، وجنوبا بين جبل حمرا وسيدي يحيَى ضد بني بو حمدون وبني حمليل وأنصار بو عمامة ، وجنوبا كذلك فوق منحدرات جبل السمارة ضد جحافل أخرى معززة بالمدفعية .

فانقلب هؤلاء المهاجمون على أعقابهم خائبين ومتحسرين تاركين عددا كبيرا من قتلاهم ، فحزت 18 رؤسا من جثثهم وعرضت على باب سيدي عبد الوهاب لاذكاء حماس المقاتلين ورفع معنويات سكان المدينة[43] .

ومنذ ذلك الحين وبعد الهزائم الكبرَى التي لحقت بقواته في يوليوز 1905[44] تيقن الفتان باستحالة احراز أي نصر في هذه الناحية خصوصا وان ضربات مدفعية البعثة العسكرية الفرنسية كانت توقع بجموعه أسوء

---

(42) و.ع.

(43) اعلام المغرب العربي. ج 1 ــ ص. 342 ــ 361
AV C 15 Maroc.

(44) مراسلتان ملكيتان إلى القائد محمد بن حمادة : في 20 جمادى الأولى 23/1323 ــ 7 ــ 1905 وفي 27 جمادى الأولى 30/1323 ــ 7 ــ 1905. و.ع.

الارتباك ، فانتقل إلى مستكمر ثم إلى بركان فسلوان حيث استقر ليتمتع بنعيم الملك ويستقبل مبعوثي المؤسسات الاستعمارية ، فوعد بعضهم بامتيازات تجارية أو بامتلاك أراضي للاستثمار الفلاحي أو المعدني ومنح لشركة اسبانية حق تأسيس منجم للحديد وربطه بخط للسكك الحديدية بمليلية[45] . وهذا ما جعل أهالي المنطقة يستفيقون من غفلتهم ويرجعون عن غيهم زرافات ووحدانا سيما وأنهم كانوا يتعبون أنفسهم بدون طائل في معارك مع المحلات المخزنية المرابطة قرب نهر ملوية .

وسرعان ما لاذ الروكي بالفرار صوب النواحي الغربية عبر وديان ومنعطفات سلسلة جبال الريف ، فاقتفى أثره عسكر المخزن حتّى طوقه وهو بزاوية مولاي عمران فألقي عليه القبض في 22 ــ 8 ــ 1909 وحمله إلى فاس ، مكبلا بالاغلال في قفص من حديد . وهناك ذاق مرارة الخزي العظيم والعذاب الأليم قبل أن تزهق روحه برصاصة في رأسه في 15 ــ 9 ــ 1909[46] .

2 - فتنة بوعمامة

ولد محمد بن العربي بن الحرمة ، الملقب بالشيخ بوعمامة ، بفكيك في العقد الرابع من القرن التاسع عشر ، وينتمي إلى فرقة أولاد سيدي التاج البوشيخي التي كانت تتكون من عرب بدو رحل يستثمرون أموالهم في تربية المواشي وفي المبادلات التجارية بين الواحات الصحراوية والمدن المتاخمة لساحل البحر الأبيض المتوسط[47] .

وحين بلغ حوالي أربعين سنة أنشأ زاوية بقصر مغرار التحتاني ، على

---

(45) AIX 30 H 55.

(46) اعلام المغرب العربي. ج 1 ــ ص. 362...

- AIX 30 H 58
- Weisgerber Dr F. Au Seuil du Maroc Moderne. p.196.
- Harris Walter B. Le Maroc Disparu. pp. 109-110.
- E.I.Lewis. p. 1320.

(47) AIX 30 H 52.

مقربة من عين الصفراء، فاجتمع حوله رجال من بني جلدته ومن قبائل الشعانبة ولعمور وأولاد أجرير، ثم حاول أن يعترض طريق الجيش الفرنسي[48] الذي كان قد عزز زحفه نحو الصحراء بخط للسكك الحديدية مرتبط بميناء وهران، وذلك في 1881.

ومنذ ذلك الوقت اضطر بوعمامة إلى اللجوء إلى مناطق نائية في اتوات وكورارا[49] غير أنه أجرى بواسطة رسله عدة مفاوضات مع السلطات العسكرية الفرنسية سنعرف من خلال مراحلها وملابساتها مواقفه وأهدافه[50].

ففي محرم 1304 / أكتوبر 1886 بعث رسالة إلى حاكم دائرة أمزاب، جاء فيها :

«...نحب معك الخير والعافية، والهناء يكون على يديك، لا تصغي لكلام الوشية الذين ليس لهم عقل، أنتم دولة عظيمة، وما حكمتم في جميع الأقطار إلا بالسياسة مع الخلق لا بالتشويش، لو كنا نحب الخلط ما سكنا بمنطقة أتوات، وهي ضعيفة القوت وأهلها مساكين...»[51].

وفي رجب 1310 / فبراير 1893 برر ترددات وتخوفات لحاكم دائرة اجريفيل حيث قال له :

«...وصلني جوابك الأجل الذي بعثته إلي مع رقاس من بلاد ابريزينة، اعلم أننا طالبين الأمان التام يأتينا من اكبار الحكام لكي تطمئن

---

(48) بمناسبة الذكرى المائوية لثورة الشيخ بوعمامة ضد الفرنسيين نظمت بجنوب الجزائر حفلات على الصعيد الرسمي والشعبي والثقافي في ماي 1981/رجب 1401.

(49) اعلام المغرب العربي. ج 2 — ص. 78.
— مراسلة شيخ زاوية وزان، عبد السلام بن العربي، إلى والي الجزائر في 6 شعبان 1305/18/ 4/ 1888.
- AIX 30 79
- AIX 30 H 79 AV C 18 Oran.

(50) Arch. Vincennes. C 7 Oran - C 42 Algérie.

(51) AIX 30 H 80.

نفوسنا ، وقد كنا قادمين للبلاد والملاقة في الأبيض سيدي الشيخ ، وتلقتنا محلة أولاد سيدي حمزة ، وما آمنا ورجعنا ، وكذلك كنا قادمين من جهة أخرى ، تلقتنا محلة سيدي الحاج عبد السلام[52] ، وما آمنا ورجعنا ، وقدمنا من جهة فجيج ، تلقتنا محلة من اجنين بورزق ، وخفنا ورجعنا ، واليوم لو كان بيدينا أمان اكبار الدولة ما نخاف ولا تحيرنا ملاقة المحلة ولا غيرها ، وأنتم خيمة كبيرة ودولة فخيمة وأهل سياسة عالية تفعل الخير في جميع الناس ....»[53] .

وبالإضافة إلى حرص بوعمامة على الابتعاد من مناطق النفوذ الاستعماري فكان يخبر الضباط الفرنسيين بالغارات التي كان ينظمها الأهالي ضدهم بمساندة اخوانهم المجاهدين الذين انطلقوا مرارا من تافيلالت والأطلس الكبير دفاعا عن الأراضي المغربية المترامية الأطراف في أعماق الصحراء الشرقية .

جاء في رسالة أخرى موجهة للحاكم الآنف الذكر في فبراير 1893 :

«...بعد اعلامك عليّ بالأمر الذي وقع في عرش الرزاينة اعلم وحقق أن البرابر وحدهم كانوا ذاهبين لولد سيدي حمزة ، سيدي قدور ، وتلاقوا مع هذا الناس ، وقد اعلمنا بهم وانذرنا أهل القفل كلهم ، طاعتكم ، كل من ورد كورارا واتوات ، وكذلك اعلمنا وانذرنا ولد سيدي حمزة ، وأنتم أهل السياسة الكبيرة والعقل الراجح ، ولا نخلط بين الدولتين ولا يسعنا فعل ذلك ، ولا نحب إلا الهناء والعافية لنفوسنا ولمن معنا ، وترونا نطلب منكم الأمان التام ..»[54] .

ونستشف من العبارات الأخيرة ، وبدون عناء ولا تأويل ، أن بوعمامة

---

(52) الحاج عبد السلام هو شيخ الزاوية الوزانية الذي كان يزور مريديه، من حين لاخر، في الصحراء المغربية.

(53) AIX 30 H 80

(54) Ibid.

كان يعتبر نفسه مغربيا وتحت امرة السلطان مولاي الحسن الأول إذ جدد مبايعته لأمير المؤمنين في عدة مناسبات ، بل التمس من الممثل الدبلوماسي الفرنسي بطنجة ، لينارس ، أن يتوسط له لدَى الحكومة المغربية ويسلم لها رسالة مؤرخة في يوم الأحد 20 رمضان 1312 / 17 مارس 1895 تؤكد ولاءه للدولة الشريفة وانتمائه للأمة المغربية ، وذلك في مطلع عهد الملك المولَى عبد العزيز(55) .

ومن الدلائل القاطعة التي تثبت مغربية بوعمامة نص الرسالة التي وجهها لحاكم الجزائر Cambon في يوم الجمعة فاتح شعبان 1313 / 17 يناير 1896 ، قال فيها :

«...فليكن في كريم علمك أننا كنا هاربين لبلاد التوات ، خوفا من الخلاط ، وحين زادت علينا الشعانبة وسارت تخدم الفساد هربنا من التوات ، ولما كثرت سرقتهم فررنا منهم وطردنا جميع السراق من بين الذين يقربنا ، ولا بقي معنا من اشعانبة إلا القليل ، واليوم ، اعلم لو كنا نحب الفساد بين الدولتين لبقينا في بلاده ومع أهله ، نحن أناس مساكين لا نحب فتنة ولا نقدر عليها ، اننا في طاعة سيدنا السلطان مولاي عبد العزيز نصره الله ، ونحب منك أن تنبه طاعتك «أي الممثلين للحكم الفرنسي» وتأمرهم بكف الأذَى عنا وتقول لهم يستوصوا بنا خيرا ...»(56) .

أما رغبته في عقد معاهدة الأمان مع السلطات الفرنسية فكانت تنطوي على الشروط التالية :

أولا : الحصول على عفو عام يشمل حاشيته دون اتباعه الذين ليس له عليهم سلطة قوية وفعلية .

---

(55) AIX 30 H 79.
(56) Ibid.

ثانيا : الحصول على منحة مالية دائمة من لدن الحكومة الفرنسية .

ثالثا : الاذن بالإقامة بقرية مغرار[57] .

إلا أنه رغمَ المحاولات الكثيرة في هذا الشأن لم يحصل بوعمامة على الأمان الكامل لأن زاويته لم يكن لها اشعاع كبير في وسط الأهالي ، بل كانت في الحقيقة ملاذا لقطاع الطرق وأصحاب الأغراض المادية[58] .

ورغم ذلك ، لقد استمر في اسداء الخدمات للفرنسيين ولو كانت على حساب المصالح المغربية .

ففي ربيع النبوي 1317 / يوليوز 1899 أخبر الحاكم العسكري لمنطقة عين الصفراء بالأشياء التالية :

«كلما طلبته فينا وجدته ، ونحن طلبنا فيك بطاقة الأمان تاتينا ، ولم يتيسر لك حال ، فنحن نرجو منك ما طلبنا يأتينا لتطمئن قلوبنا ونزيد في الخدمة وتيأس الخلاطين من خدمة التشويش ، وها نحن وقفنا على أهل الحمام الفوقي (في مدينة فكيك) على ما ذكرت لهم من رد مدفع البايلك — أي الجيش الفرنسي — وكانت مخفية عليهم في أرض غيرها ، فاجتهدنا وبحثنا عليها حتَّى اشتروها ، وهاهما صرفوها لك مع الحامل الشيخ ابن الحرمة ، وهم طالبين كما طلبنا فيك الأمان ، يتسوقوا ونحن كذلك ، اما خبر المخزن ، نزل تفلالت بمحلة كبيرة عظيمة حتَّى لم يسعها موضع تبثي فيه القوطين — أي الخيام — واليوم ، كل من طلب منا الرجوع فنوصلوه

---

(57) Ibid.
AIX 30 H 80.

(58) من ذكاء بوعمامة ومهارته السياسية انه في الوقت الذي كان يلتمس الامان من السلطات الفرنسية كان ينصح جماعة من قبيلة لعمور بعدم الرجوع إلى بلادها ليضمها لصفوفه ويقوي بها عصبته. جاء في رسالة مؤرخة في جمادى الثانية 1310/أواخر دجنبر 1892 — يناير 1893.
«.. خدام اسلافنا جماعة الاعمور كافة المهاجرين... سمعنا بأنكم انتقلتم من جهة ابنجيل وانعزلتم وحدكم، لا يليق بكم ما سمعنا عليكم من جهة الرجوع للكفار، قبح الله سعيهم، كل ما تحبوه عند الله ورسوله وعبد القادر بن محمد ... AIX 30 H 80

لأحد أمانه ، وكلما زاد علينا نعلمك به ، وعلى العهد والسلام ...»[59] .

وليبرهن عن صدق نواياه في ربط علاقات أكثر مودة وأوفر نفعا معَ الجهات الاستعمارية التقى الشيخ بوعمامة مع القابطان Ducloux بضواحي بني ونيف في 6 ــ 12 ــ 1900 ، وكان مصحوبا بالقائد حكوم بن محمد من أولاد سيدي عبد الحاكم وبثلاثة قواد من بني كيل ، أحمد بن علي ، سليمان بن عيدة ، محمد ولد بوستة[60] .

ولقد ترك هذا اللقاء في نفسه أطيب وأعمق الأثر إذ كان ينوه في مراسلاته لوالي الجزائر ، بالضابط الآنف الذكر ، في حين أنه كان يشتكي إليه بضباط آخرين نهبوا وشردوا من كان يستظل بظله ويلوذ بجاه[61] .

وعلى صعيد آخر ، فإنه كان يرغب في الاستقرار بفكيك ليتنمي علاقاته التجارية بأهالي الصحراء وأيضا بالتجار الأجانب . فهكذا نراه مرة يغري حاكم عمالة وهران بأهمية الرواج التجاري بأسواقها ، وتارة أخرى يلتمس حمايته للتاجر البشير بن الطاهر الزناكي[62] .

وبالتالي أصبح يميل شيئا فشيئا إلى الجانب الاستعماري مؤكدا للتاجر Bournier أنه إذا حصل على الأمان التام سيخضع للحكم الفرنسي[63] .

أما الحكومة المغربية فكانت على علم بوقائع الأمور وانذرت مرارا بوعمامة ليكف عن الدسائس والتواطؤ مع الأعداء الأجانب ، فتوجس هذا الأخير خيفة وترك ناحية فكيك في ذي القعدة 1319 / فبراير

---

(59) AIX 1 J 169.
(60) AIX 30 H 80.
(61) انظر الوثيقة الاضافية المؤرخة في 1319/1901. AIX 30 H 80
(62) 13-4-1904. AIX 30 H 80.
(63) Ibid.

1902[64] ليتجه نحو النجود العليا على مقربة من عين بني مطهر وكافايت[65] ، ولم يلبث فيها الا قليلا حتّى بلغته أخبار الفتنة التي أشعل نارها الجيلالي بوحمارة ضد السلطان المولى عبد العزيز بدعوى أنه مولاي محمد ، الولد الأكبر للمولى الحسن بن محمد ، فآزره في الاضطرابات التي توالت في اقليم وجدة من 1321 إلى 1324 (1903 ــ 1906) والتي أضعفت سلطة المخزن وسهلت بذلك التغلغل الاستعماري الفرنسي في المملكة المغربية[66] .

ولاريب أن مشاركته في فتنة بوحمارة ناتجة عن جهل محض بأصل وهوية ومقاصد هذا الرجل لأنه في رسالة بتاريخ 19 ــ 5 ــ 1904 / 4 ربيع النبوي 1322 للرئيس العسكري لدائرة مغنية أبلغه أن مولاي محمد بن الحسن أحق بالملك من أخيه عبد العزيز وأن على السلطات الفرنسية أن تلتزم سياسة الحياد إزاء الصراع الدائر بينهما[67] .

ويؤكد ذلك أن ابنه الطيب ، لما أفاق من غفلته وتجلت له حقيقة الأمور[68] نصحه أن يعرض عن الروكي سيما وأن هذا الأخير كان لا ينزله المقام اللائق به حين يستقبله أو يكاتبه[69] .

ومن بين الأحداث التي وقعت في هذه الفترة الحالكة لابد من ذكر

---

(64) مراسلة بوعمامة للزكراكي عامل مدينة فكيك وللوزير محمد بن محمد الكباص. 3 ــ 2 ــ AIX 30 H 13.1902
AIX 30 H 80.
ــ اعلام المغرب العربي. ج 1 ــ ص. 320.

(65) في بداية شهر ماي 1904 كان معسكر بوعمامة بكافايت، بالمكان الذي به حويطة تعرف الان بحويطة بوعمامة، بينما كان ابنه الطيب بقصبة لعيون سيدي ملوك. رسالة شيخ عين بني مطهر، محمد بن عدو، إلى الضابط Lagrange رئيس ملحقة لعريشا. 9 ــ 5 ــ 1904. AIX 30 H 80.

(66) محمد بن الحسن الحجوي. ثورة ابي حمارة. مخطوط. ص. 45 إلى 50.

(67) AIX 1 J 184.

(68) رسالة الطيب بن بوعمامة لاعيان قبيلة اولاد سيدي الشيخ ــ 21 صفر 27/1323 ــ 4 1905.
ــ رسالته لأحمد بن كروم عامل وجدة. 22 صفر 28/1323 ــ 4 ــ 1905 AIX 30 H 80.

(69) رسالة الطيب من مليلية إلى أبيه. 3 صفر 9/1323 ــ 4 ــ 1905. المصدر السابق.

حدث ذي طابع خاص وعواقب كبيرة إذ يظهر لنا بجلاء الموقف المتذبذب الذي يميز شخصية الشيخ بوعمامة ومدَى تقلباته الانتهازية .

ففي ربيع الأول 1323 / ماي 1905 كلف بوعمامة ابنه الطيب بالاتصال بعامل اقليم وجدة ، أحمد بن كروم ، ليلتمس منه العفو عن ما مضَى من العصيان ويجدد ولاءه للادارة الشريفة ، فاستقبلت وفادته بحفاوة وتكريم في يوم الخميس 6 ربيع النبوي 1323 / 11 ماي 1905 [70] ، لكنه بعد مدة وجيزة بدأ يخبر أباه بتحركات المحلة المخزنية ضد بوحمارة ، فوضع في سجن وجدة ثم الصويرة [71] . ومن هناك ، وفي ثاني رمضان 1323 / 31 ــ 10 ــ 1905 بعث رسالة للسفير الفرنسي بطنجة Taillandier يذكر له فيها الخدمات التي اسدتها زاوية أبيه للحكومة الفرنسية ويعرب له عن رغبته في الحصول على الحماية السياسية كمواطن جزائري [72] .

وحيث أنه لم يحصل على أي طائل من هذه الجهة بعث رسالة ثانية إلى والي الجزائر على يد خاله أحمد بن المنور في 24 ذي الحجة 1323 / 19 ــ 2 ــ 1906 ، قال له فيها :

«...وأنتم دولة فخيمة كريمة تحمي من احتمَى بكم ولا تطرد من التجأ بجانبكم السعيد ، واني احتميت بكم واردت الرجوع لبلادي ، ونخدم باقي عمري تحت رايتكم السعيدة ، ونجتهد في رد أبي أن أحب ، ولا

---

(70) رسالة ملكية إلى القائد محمد بن حمادة البوزكاوي في 7 ربيع الثاني 11/1323 ــ 6 ــ 1905. و.ع.

ــ ثورة ابي حمارة. ص. 85.

ــ من بين الذين كان لهم الفضل في رجوع الطيب بن بوعمامة إلى طاعة المخزن الحاج عبد الواحد عمور الذي كان ذا تجارة كبيرة بمليلية. أعلام المغرب العربي. ــ ج 1 ــ ص. 320.

- L'A.F. Mai 1905 N°5. p.214.

- Voinot. L. Les Conséquences de la Lutte du Makhzen et du Rogui.. BSGO. 1934. p.208.

(71) مراسلة والي الجزائر إلى وزير الحرب. 14 ــ 7 ــ 1905 AV C 18 Maroc.

(72) AIX 1 J 169.

- Les Origines du Maroc Français.. op.cit. pp. 361 à 364.

نقصر بكل صلاح ، وان هذا الناس غدروني بعدما أعطوني الأمان، وانما طابع السلطان تحتي ، في أربع بطائق ، زوج بالطابع الكبير وزوج بالطابع الصغير.. وكنت نجري في صلاحهم حتّى كان أبي ومن معه وافقوني على الرجوع للمخزن . وإني احتميت بكم تنقذوني من هذا الناس ولا تردوني خائب ...»[73] .

وبالفعل ، اطلق سراحه في يوم الثلاثاء 26 ربيع الثاني 1324 (19 ـ 6 ـ 1906) بعد الضغط الدبلوماسي على مولاي عبد العزيز ، فنقل إلى مدينة لغواط بالجزائر[74] .

وقد يقول قائل : هل تحولت زاوية بوعمامة منذ تلك الآونة إلى أداة شبيهة برأس الرمح للوجود الاستعماري بشرق المغرب ؟

للإجابة على هذا السؤال نتابع تفحصنا للوثائق التاريخية التي لا تتسرب إليها أية شبهة ولا تقبل أدنَى تحريف .

كان من الطبيعي أن يثلج صدر الشيخ بوعمامة بالعناية التي أولتها الحكومة الفرنسية لابنه الطيب الذي اعتبرته من الرعايا الجزائريين ، وقد عبر عن مشاعره لوالي الجزائر في عدة مناسبات منها :

«...فجزاكم الله خيرا على ما فعلتم من الخير الجميل والفعل الجزيل في ولدنا الطيب حين استعان واستغاث بكم ، غشتموه وسرحتموه من سجن الاحزان والكبل والقيد والشر والهوان ، والآن الولد ولدكم ، فأنتم الخيمة الكبيرة ...»[75] .

«...خيرك لا ننساه على ما فعلت من المزية في ولدنا الطيب ، كثر الله خيرك ، وانتما أهل الخير والمزية والعهد والصدق ، وأنتما الخيمة الكبيرة التي

---

(73) AIX 30 H 81.
(74) L'A.F. Juillet 1906 N°7. pp.203 à 207.
(75) 3-7-1906./13 Joumada 1er 1324. AIX 30 H 81.

لم تحاسب الناس بأفعالها ، وذلك المظنون لجانبك حتّى وقفت موقف الجد والصدق ...»[76] .

وكان من الطبيعي أيضا أن يطلب الطيب من الدوائر الاستعمارية أن تنقله إلى الحدود الجزائرية المغربية ليخدم مصالحها «السلمية» ولينتقم من السلطات المخزنية التي أهانته[77] .

ولا غرو إذا رأيناه بعد مدة وجيزة يرجع إلى زاوية أبيه في بداية يوليوز 1907[78] في الوقت الذي كانت أجزاء من شرق المغرب ترزح تحت نير احتلال الجيش الفرنسي ، وقبل أن يتلاحم هذا الأخير مع مجاهدي بني يزناسن تلاحم الحروب[79] .

3 – الاحتلال الفرنسي لشرق المغرب :

* من 1901 إلى 1906 .

ا) المبادئ

منذ مطلع القرن العشرين كانت الدوائر العسكرية الفرنسية قد أنهت المخطط لتمديد الوجود الاستعماري من الجزائر إلى المغرب باحتلال مدينة فاس ، وكلفت الجنرال Lyautey بانجازه في أوجز وأسرع مدة انطلاقا من دائرة عين الصفراء[80] .

وفي هذا الصدد اقترح والي الجزائر Jonnart الذي شغل هذا

---

(76) 3-11-1906/16 Ramadan 1324. Ibid.

(77) مراسلة إلى والي الجزائر في 31 – 8 – 1906. AIX 30 H 81

(78) المصدر السابق. مراسلة أخرى إلى الجنرال ليوطي في 14-7-1907.

(79) ثلاث مراسلات من بوعمامة :
* إلى الكولونيل Reibell في 12 – 7 – 1907.
* إلى حاكم وهران في 6 – 11 – 1907.
* إلى والي الجزائر في 30 – 11 – 1907
- AIX 1 J 169.
- AIX 30 H 81.

(80) AV C 20 Maroc.

المنصب من 1900 إلى 1911 ــ ماعدا سنتين لأسباب صحية ــ ، اقترح تأسيس مراكز عسكرية في مواقع معينة بتعاون مع الحكومة المغربية لقمع القبائل المتمردة ولحماية وتعزيز المصالح الاقتصادية[81] .

وقد استند والي الجزائر على الوثيقتين الدبلوماسيتين اللتين أبرمتا في 20 ــ 7 ــ 1901 بباريس وفي 20 ــ 4 ــ 1902 بالجزائر[82] . فبمقتضى البرتكول الأول شكلت لجنة برئاسة محمد الكباص والجنرال Gauchemez لتتصل باعيان قبيلتي ذوي منيع وأولاد جرير من أجل ابلاغ من أراد منهما أن يبقى مغربيا الا يرجع إلى المنطقة التي نزح منها فرارا من الحكم الاستعماري ، وستضمن له حقوقه في الممتلكات التي تركها هناك .

ولا يخفى على أحد ما في هذه التدابير من ظلم واجحاف للأهالي ومن انتقاص وخرق للسيادة الوطنية .

وفي الواقع لم تكن زيارة اللجنة المشتركة لواحتي فكيك ولقنادسة من يناير إلى مارس 1902 إلا لاظهار القوة وتأكيد سياسة الوعد والوعيد ، إلا أن نتائج اتصالاتها ومحاوراتها كانت أشبه بالأثر الذي يقع في نفس الظمآن الذي يرى سرابا بقيعة حتّى إذا جاءه لم يجده شيئا[83] .

أما الاتفاقية الثانية فقد نصت على مساندة فرنسا للمغرب في مساعيه لاستتباب الأمن في المناطق الشرقية والصحراوية كما أنها ألحت على ضرورة بناء أبراج للحراسة بضواحي فكيك التي كانت القلب النابض للمقاومة ، وعلى طول خط الحدود بين السعيدية وثنية الساسي .

---

(81) - Smaili M.A. Thèse. op.cit. p. 139.
- Corresp. du Gouverneur Général de l'Algérie au Ministre de la Guerre. 7-6. 1904. AV C 20 Maroc.
- CH.A. Julien. Une Pensée Anticoloniale. p.27.

(82) Smaili. M.A. Thèse. op.cit. pp.99—100.
- L.Deloncle. op.cit. pp.13 à 24.

(83) Les Origines du Maroc Français.. op.cit. pp.67 à 70.

ب) احتلال رأس العين ببني مطهر : 15 – 6 – 1904 .

بالإضافة إلى ما أشرنا إليه آنفا فإن اتفاقية الجزائر في 20 – 4 – 1902 نصت على إحداث سوق مشترك بين الجانبين بالنجود العليا على مقربة من ينابيع رأس العين ، وحيث أن الجانب المغربي جنح إلى سياسة التماطل والتسويف – دهاء منه ، أو عجزا لأنه كان منشغلا مع دعاة الفتن أمثال بوحمارة – فإن الجنرال ليوطي شرع في اجتذاب قبيلة بني مطهر ، اما بصفة مباشرة(84) أو بواسطة علال ابن الشيخ ابن الطيب ، قائد الزوا لغرابة(85) .

وفي 28 – 2 – 1904 اجتمع هناك القابطان Du Jonchay مع شيوخها : محمد ولد ابن عدو ، المعروف باحمر اللحية ، ابراهيم ولد ابن ابراهيم ، محمد بن عشور ، محمد ولد بلمحى بن طلحة ، لحبيب ولد أحمد بن موسَى ، وتعاهد معهم على الشروط الآتية :

– أولا : تسهيل استقرار التجار ومقام حامية عسكرية فرنسية باحدَى القصبات .

– ثانيا : انهاء النزاع بينهم وبين قبيلة احميان فيما يخص المنطقة التي يظعنون إليها بانعامهم .

– ثالثا : تعاون الجانبين لتأمين السابلة(86) .

وفي 15 – 6 – 1904 جاءت كتيبة بقيادة الضابط Henrys وضربت خيامها على ضفتي وادي الحي ، جنوب رأس العين بحوالي 7

---

(84) مراسلات بين احمر اللحية والقبطان Du Jonchay رئيس دائرة مشرية. في نونبر 1903/شعبان 1322. AIX 30 H 51

(85) AIX 30 H 51.

(86) Ibid.

كلم ، ثم بعد مدة وجيزة تمركزت بقصبة أولاد بوبكر قرب ينابيع المياه[87] .

ووقتئذ كان سكان هذا الموقع ينتمون لعدة فصائل :

أولاد الحيمر : منهم أولاد داود وأولاد قدور والفقرا .

أولاد حمادي : منهم العواشير وأولاد الغازي والجرابعا .

أولاد بن عيسَى : منهم أولاد علي بن عبو ، أولاد ابن الناصر ، أولاد امحمد ، أولاد علي .

المرابطون : منهم أولاد ابن عبد الرحمن والقضيا .

الشرفاء أولاد مولاي هاشم[88] .

ولقد استبشر أعيان قبيلة بني مطهر خيرا بهذا الاحتلال لأنهم كانوا إلى عهد قريب خاضعين لقائد الأحلاف ، بوزيان الشاوي ، ثم لقواد لمهاية ، الحاج بوبكر ولد ميمون حتَّى 1885 ، وبنيه الحاج السهلي حتَّى 1893 ، والحاج الميلود حتَّى 1904[89] ، كما أنهم أصبحوا في مأمن من شضايا فتنة الشيخ بوعمامة[90] .

أما على الصعيد الرسمي فإن الحكومة المغربية احتجت على هذا الوجود الاستعماري واعتبرته انتهاكا لسلطتها[91] ، بيد أن هذا الاحتجاج كان

---

(87) Berguent. BSGO. 1913. op.cit. pp.62 à 64-67.
— بالاضافة إلى قصبة الحاج بوبكر كان لكل فخذ من الأفخاذ الاتية قصبته.
اولاد بن عيسى، اولاد الحيمر، الفقرا، اولاد حمادى، اولاد مولاي هاشم.

(88) Ibid. pp.32-33.

(89) Ibid. p.29.
عين الفرنسيون أول قائد من بني مطهر، وهو حمو ولد ابراهيم، من الفقرا، ثم جاء بعده لحمر ولد المجدوب، من اولاد قدور، ثم ولدا هذا الأخير : الرحماني فالسهلي.

(90) مراسلة في 7 ربيع الثاني 21/1322 — 6 — 1904 AV C 20 Maroc

(91) Hist. Diplom. du Maroc. op.cit p.43.

- Ibid. pp. 33-34.

بمثابة صيحة في واد لأن فرنسا كانت في تلك الآونة تهيمن على الأمور كلها .

* **دبلوماسيا** : حصلت على مساندة انجلترا بموجب معاهدة 8 ـ 4 ـ 1904 التي حولت أطماع الدولة المنافسة إلى القطر المصري[92] .

* **عسكريا** : فصلت منطقة بشار ولقنادسة عن المغرب في 1903 وقنبلت قصر الزناكة بفكيك في 8 ـ 6 ـ 1903 على إثر الكمين الذي نصبته ثلة من المجاهدين للفيلق الذي كان يصاحب الوالي جونار في 31 ـ 5 ـ 1903 ، وقد نجا منه هذا الأخير باعجوبة خارقة[93] .

* **استراتيجيا** : لأن المغرب كان مدينا لها بسبعين مليون فرنكا نظرا للأزمة الخانقة التي كانت تعتري ميزانيته من جراء المصاريف العسكرية وانخفاض قيمة النقود الرسمية إزاء النقود الأجنبية التي كثر التعامل بها بصفة أخص منذ النصف الثاني من القرن 19[94] .

وقد أظهر المفوض المغربي بشرق المغرب ، أحمد الركينة مهارته السياسية حين أبلغ الجنرال ليوطي في 17 ـ 6 ـ 1904 انه يعتمد على قواته العسكريه المتواجدة برأس العين لخضد شوكة بوعمامة ، بل أظهر بهذا الموقف شجاعته لأنه كان ألصق من غيره بمجريات وباخطار الأحداث الدائرة بين المغاربة أنفسهم ، ولعل تعويضه بعبد الرحمن بن عبد الصادق كان بسبب ذلك الموقف[95] .

وبخصوص سياسة الدوائر الاستعمارية ، فخلافا لما يتبادر إلى الذهن ،

(92)
- L. Deloncle. op.cit. pp.30 à 34
- Smaili. M.A. Thèse. op.cit. p.134.

(93)
- Ibid. pp. 148 à 151.
- AIX 30 H 70.
- AV C 20 Maroc.

(94)
- P.Guillen. Les Emprunts Marocains. 1902-1904. pp. 59-63. 148 à 150.
- Smaili. M.A. Thèse. op.cit. pp. 32-36-37.

(95)
- Ibid. p.141.
- Berguent. BSGO. 1913. op.cit. p.68.
- AIX 1 J 126. - AIX 30 H 12. AV C20 Maroc.

لم تكن على نسق موحد ، بل تخللها تباين في الآراء وفي المواقف .

فبعد أسبوعين من الاحتلال العسكري لرأس العين أصدرت الحكومة الفرنسية أمرها بالجلاء من هذا الموقع (96) .

فكيف كان رد ليوطي ؟

إنه صب رأيه وغضبه في برقية نلخصها في العبارات التالية :

«...ان بوحمارة عبر نهر ملوية ليضم قواته إلى اتباع بوعمامة الذي يوجد بجبال الزكارة .

سيكون لهذه المعطيات انعكاسات فوريه على كل المنطقة لولا وجودنا العسكري برأس العين الذي هو المكان الوحيد الذي يتوفر على المياه ...

إن عدة قبائل التمست حمايتنا وستفسر تراجعنا ونبذ عهودنا بتخاذل وفرار أمام الروكي وصاحبه ، وحتّى لا أفقد شرفي نحوها فمن الضروري أن أعوض بمسؤول آخر ليطبق قرار الجلاء ...» (97) .

وبعد سلسلة من المشاورات والخطب البرلمانية الحادة بورك في سياسة ليوطي الذي كثيرا ما كان يضع حكومته أمام الأمر الواقع (98) .

---

(96)
- Smaili. M.A. Thèse. op.cit. p.141.
- AV C 20 Maroc.
ــ لا شك أن الأمر بالجلاء العسكري من رأس العين جاء بوحي من Taillandier السفير الفرنسي بطنجة الذي كان يفضل المساعي السليمة وتوزيع الرشاوى في شكل هدايا وعطاءات دائمة للوزراء المغاربة كي يدوروا في فلك المصالح الاستعمارية، كان يفضل ذلك على أساليب الضباط مهما سمت رتبتهم. - AIX 30 H 12.
- Smaili. M.A. Thèse. op.cit. p.143.

(97)
- Ibid. p.142.
- AV C 20 Maroc.
- Lyautey Hubert. Vers le Maroc. Lettres du Sud Oranais. (1903-1906). pp.83 à 85.

(98)
- Berguent. BSGO. 1913. op.cit. p.69.
- AIX 30 H 12.
- AV C 20 Maroc.
- Smaili. M.A. Thèse. op.cit. p.144.

جـ) موقف قبائل أولاد بختي إزاء الأحداث .

لا يسع الباحث عن الحقائق التاريخية ولو على وجه التقريب إن لم يتوصل إلى الجزم والتأكيد إلا أن يقول بأن تسرب نفوذ الهيمنة الاستعمارية في الهضاب العليا كان يمر في الظروف المناسبة حسب مخطط في غاية من الدقة حيث أنه لا يستهين لا بالفتيل ولا بالقطمير .

فما كادت المصالح التي كلفت بتهييء التصميم المعماري للقرية الجديدة برأس العين حتّى اشرأبت الأعناق إلى الاطلاع على ما يجري هناك .

وإن من السباقين إلى الاستفادة من هذه الوضعية حمادة بن حمزة ، شيخ زاوية كافايت ، الذي كان مهددا من طرف عبد القادر لعتيقي المكني بوحصيرة ، أحد أنصار الروكي ، فاتصل بالجنرال ليوطي وتبادل المراسلات مع الضابط ئئء Henrys ثم[99] في 10 ــ 8 ــ 1904 هاجر مع أهله وحوالي 300 من مريديه بالاثقال والمواشي ، محفوفا بالجنود الفرنسيين[100] الذين ساعدوه مرة أخرى في 19 من نفس الشهر في نقل الحبوب التي كانت مخزونة بمطامير الزاوية وبعد المناوشات التي تعرضت لها كتيبة الضابط Baumelle [101] .

غير أن موارده تضاءلت وضاقت عليه الأرض بما رحبت ففضل أن ينتقل إلى قبيلة بني واسين بناحية للا مغنية في 27 ــ 1 ــ 1905[102] ثم إلى ضواحي مدينة وجدة ، ولم يرجع إلى كافايت إلا في أبريل 1909[103] .

---

(99) مراسلة في 15 جمادى الأولى 28/1322 ــ 7 ــ 1904. AIX 30 H 12

(100) AIX 30 H 12.

(101)
- AV C 20 Maroc.
- Berguent. BSGO. 1913. op.cit. pp.166 à 169.
- Smaili. M.A. Thèse. op.cit. pp.144-145.

(102) مراسلة حمادة بن حمزة إلى الجنرال ليوطي. 28 ــ 10 ــ 1904.
- AIX 30 H 12.

(103)
- Berguent. BSGO. 1913. op.cit. pp.169-170.
- Smaili. M.A. Thèse. op.cit. p.145.

ومن جهة أخرى فهناك عامل مهم أثر في نفسية أولاد بختي ، وهو الرواج التجاري المتصاعد بالسوق الأسبوعية ببني مطهر ، في يوم الأحد ثم في يوم الخميس . فبدءوا يؤمونه شيئا فشيئا على غرار قبائل لمهاية واشجع وبنو يعلا وأهل لمقام وطافراطا وبني بوزكوا ، واذعنوا بالطاعة للفرنسيين وأدوا المغارم التي كانت بذمتهم في 20 ـ 2 ـ 1906 (104) .

د) موقف قبائل بني كيل إزاء الأحداث .

من بين الأساليب التي كانت تستعملها المخابرات الاستعمارية لتمهيد غزواتها إثارة الضغائن التي كانت تحملها قبيلة ضد قبيلة أخرى من جراء ما مس مصالحها الاقتصادية من اضرار في سالف الأزمنة . وبما أنها اصطدمت بقوة عصبية قبائل بني كيل التي كانت تضم أكثر من ثلاث آلاف خيمة من أولاد فارس وأولاد ابراهيم وأولاد أحمد وأولاد أيوب وأولاد الحاج ... فلم تجد منفذا إليها إلا على يد قبيلتي احميان والزوا اللتين كانتا تتزاحمان على المراعي مع جيرانهما لاسيما في السنوات العجاف التي كانت تحول حياتهما أو حياتهم جميعا من الرفاهية والنماء إلى شظف العيش والبلاء (105) .

وإن كثرة الاشتباكات بين تلك القبائل أكبر دليل على تورط السلطات الفرنسية فيها رغم أنها كانت تزعم أنها لا تتدخل فيها إلا لتلعب دور الوسيط والحكم بين المتخاصمين .

وها نحن نرَى في 10 ـ 1 ـ 1904 جماعة من أعيان بني كيل تلتقي بفكيك بالسي مولاي ، أغا عين الصفراء ، وتعقد معه معاهدة حسن الجوار ثم تجتمع في القرية الأخيرة مع ليوطي الذي حثها على ارتياد

---

(104)
- Ibid.
- Berguent. BSGO. 1913. op.cit. pp.42-171.
- AV C 20 Maroc.

(105)
- AIX 1 J 126.
- Bauger Lt. La Confédération des Beni Guil. BSGO 1907. pp. 23 à 35.

الأسواق الجزائرية التي كانت تعرض بها أصناف عديدة من السلع المعفاة من الضرائب كالسكر والشاي ...[106] وسوف يندهش المرء حين يلاحظ أن هذا الوفاق لم يدم أكثر من بضع أسابيع لأن القائدين علال الزواوي والحبيب الحمياني أغارا في 18 ــ 2 ــ 1904 على خيام أولاد أحمد ، علوانة ، أولاد المحجوب ، أولاد علي والجبابرة على مقربة من تسِكنيت بدافع النهب والسلب[107] .

ولولا انقسام بني كيل على أنفسهم ومشايعة بعضهم الثائر الروكي بوحمارة لانتقموا من هؤلاء المعتدين ، مما حدا بالقائد عبد الرحمن اليوبي[108] إلى التفاوض معهم بعين الصفراء معتقدا بأن شر الاستعمار الأجنبي أهون من شر الفتنة والتطاحن الذي نخر كيان المسلمين وجعلهم كلما رأوا الجيش الفرنسي يزحف نحوهم ــ في 30 نونبر 1904 قرب تندرارا ، في 24 دجنبر 1904 بناحية تسكنيت ، في ماي ويونيو 1906 قرب معتركا ، يولون الأدبار ويسوقون أنعامهم ومواشيهم إلى مسالك الأمن والاستقرار[109] .

*** من 1907 إلى 1912 .**

أ) احتلال مدينة وجدة : 29 – 3 – 1907 .

يمكن اجمال الأسباب التي تذرعت بها فرنسا قبل احتلال مدينة وجدة في ما يلي :

---

(106) Ibid. p.37.

(107) مراسلة القائد علال إلى رئيس دائرة مشرية في 9 ذي الحجة 26/1321 ــ 2 1904. AIX 30 H 51

(108) مراسلة القائد عبد الرحمن اليوبي إلى الجنرال ليوطي. 7 ذي الحجة 24/1321 ــ 2 ــ 1904. Ibid -

ــ خصصت السلطات الفرنسية للمتعاونين معها منحة سنوية : أربعة الف فرنك للقائد الانف الذكر وستة ألف فرنك للقائد علال الزواوي

(109) - Ibid.
- Berguent. BSGO. 1913. p.34.
- Ibid. pp. 180 à 182. et 196 à 198.
- AIX 30 H 12. - AIX 30 H 51.

ـ إن المفاوضات التي كانت تجريها فرنسا مع المغرب لترضية الجزائريين الذين كانوا يزعمون أن القبائل المغربية اعتدت عليهم لم تفد شيئا ، بل بقيت مقرراتها حبرا على ورق . وهذا ما شعرت به اللجنة المختلطة التي كانت تضم الكولونيل Calley Saint Paul والضابط المترجم اسماعيل Hamet والعامل أبو بكر ولد محمد العباسي والأمين الحاج أحمد بن العربي الشراطي ، والتي اجتمعت بمدينة وجدة من 28 يناير إلى 30 يونيو 1899 (110) .

ـ ان انعكاسات الفتن التي أشعلها بوحمارة وبوعمامة دفعت عدة قبائل نحو البلد المجاور للاحتماء بالحكم الفرنسي أو لطلب امتداد هذا الحكم إلى شرق المغرب . ففي بداية أكتوبر 1904 التجأت أكثر من 300 خيمة للمهاية وأولاد مولاي هاشم رفقة القائدين الحاج الميلود ومولاي اسماعيل إلى قبيلة بني واسين (111) .

ـ أضف إلى ذلك أن السلطات المغربية كانت تقف حجر عثرة أمام محاولات التاجر Souin في أبريل 1906 لنقل المسافرين في عربات تجرها الخيول في الطريق الرابط وجدة بمغنية . والأدهَى أنها كانت تصرف في بعض الأحيان التجار المغاربة عن ارتياد الأسواق الجزائرية (112) . كما أنها كانت تساند حركة المقاومة بقيادة الشيخ ماء العينين ضد المستعمرين الأجانب بموريتانيا ، ثم ان اغتيال الطبيب الجاسوس Mauchamp بمراكش في 15 ـ 3 ـ 1907 فتح باب التدخل العسكري على مصراعيه (113) .

---

(110) L.Voinot. Les Entraves au Commerce Algéro-Marocain et la Conclusion d'Accords Spéciaux. (1892-1902).
BSGO. 1933. pp.48 à 50.
- Smaili. M.A. Thèse. op.cit. p.95.

(111) - AV C 7 Oran.

(112) - AMAE.

(113) - Smaili. M.A. Thèse. op.cit. p.155.

فني يوم الجمعة 14 صفر 1325 / 29 ـ 3 ـ 1907 ، على الساعة الثالثة صباحا تحرك الكولونيل Felineau بجيشه من مغنية في الوقت الذي كانت تتهاطل أمطار غزيرة . وقبل أن يصل إلى ضواحي وجدة بعث قائد بني واسين ، بوحميدي ، ليشعر العامل أحمد بن كروم[114] بواقع الأمر .

ولاشك أن هذا الأخير لم يفكر لحظة واحدة في رد العدوان لعلمه بما آل إليه الحكم المخزني منذ سنين من انكماش وانتكاس وتدهور .

فجمع الأعيان ومساعديه وقصد مركز زوج بغال الذي كان يوجد الجنرال ليوطي على مقربة منه ، بعد أن أصدر الأمر بفتح أبواب المدينة للجيش الفرنسي .

وبالفعل ، وحوالي الساعة 10 صباحا ، دخل الخيالة الفرنسيون والجزائريون من باب الخميس مصحوبين بعدد كبير من المشاة بينما مرت فرقة المدفعية من باب سيدي عبد الوهاب ، واتجه الجميع نحو القصبة وباب الغربي في نظام بديع أدهش الأهالي الذين هرعوا إلى أبواب أو سقوف منازلهم ليشاهدوا هذا الاستعراض في صمت وسكون .

ثم تمركزت كتيبة بالقصبة وأخرى قرب وادي سيدي يحيَى وثالثة على مرتفع سيدي عيسَى[115] .

وتجدر الإشارة إلى انسحاب بعثة الخبراء العسكريين الفرنسيين بقيادة Lt Mougin من وجدة في 27 مارس 1907 بينما لم يبق بالمدينة الا التاجر Figari وزوجته في فندقهما بساحة سوق الماء ـ ساحة

---

(114) ان احمد بن كروم البخاري تقلد منصب عامل إقليم وجدة من 1902 إلى 1922.

(115)
- AV C 18 Maroc.
- L. Voinot. BSGO. 1912. op.cit. pp.219-220.
- L'A.F. Mai 1907. N°5. p.188.
- Smaili. M.A. Thèse. op.cit. pp.155-156.

Figari فيما بعد ، الذي به الآن دكاكين في ملكية أحفاد الجوهري بوغالم[116] .

ويهمنا أن نتعرف على الأصداء التي تركها هذا الوجود الاستعماري في وسط الرأي العام .

لقد أعلنت الدوائر الرسمية بأنه مؤقت ولا يستهدف تقويض السيادة المغربية . وأكدت ذلك ، النشرات التي قرئت على منابر المساجد أو وزعت على الأعيان والقواد ، مفادها ان الموقف يتطلب نهج سياسة التهدئة والحكمة والدفاع بالتي أحسن[117] .

وإن كثيرا من القواد ــ محمد بن دحمان العزاوي ومحمد بن عيسَى من أهل تغجيرت وقدور ولد سعيد من أولاد الغازي ... ــ فضلوا أن يلعبوا على الحبلين بربط مصالحهم بمصالح الغزاة ، حينما تيقنوا ان زمام الأمور أفلت من يد الادارة المخزنية تنظيميا وعسكريا[118] .

اما الذين أرادوا أن يعاكسوا هذا الاتجاه ــ وقليل ما هم ــ فقد عزلوا من مناصبهم وأبعدوا من المنطقة خشية أن يتفاقمَ نشاطهم السياسي . فعلى إثر طلقات البارود قرب المعسكر الفرنسي بمناسبة عيد المولد النبوي ليلة 24 ــ 25 أبريل 1907 ، عزل أربعة شيوخ مخزنيون وأجبر مولاي اسماعيل ، قائد أولاد مولاي هاشم وبني وكيل ، على الإقامة بعين بني مطهر إلى غاية سبتنبر 1907[119] .

وبخصوص الفئات الشعبية التي سئمت مسلسلات الفتن الداخلية ،

---

(116) L.Voinot. La Tension des Rapports avec le Maroc et l'Occupation d'Oudjda par les Français (1906-1907). BSGO. 1935. p.180.

(117) رسالة ملكية إلى القائد محمد بن حمادة البوزكاوي في 19 صفر 3/1325 أبريل 1907. و.ع.

(118) - AIX 1 J 193.
- Smaili. M.A. Thèse. op.cit. p.157.

(119) - Galinier C. Lees Beni-Mathar de Ras El Ain. (Berguent). BSGO. 1917.p.171.
- AIX 30 H 56.
- L. Voinot. BSGO. 1912. op.cit. p.222.

فقد خالجها شعور الارتياح لأنها لم يكن لها الوعي الكافي لادراك أبعاد الوضعية الجديدة ، وخالجها أيضا أمل رؤية غد أفضل . وسوف لا نلومها على هذا الموقف السلبي والمتخاذل إذا عرفنا أن سبل العيش ضاقت عليها في الآونة الأخيرة وتضررت كثيرا بارتفاع أثمان المواد الغذائية وضآلة قيمة النقود الوطنية .

نقرأ في وثيقة عدلية[120] :

«...فالزوجتان باعتا عن أنفسهما وأولادهما الذين في حضانتهما ... من التاجر الأرضَى السيد محمد ابن السيد الطالب الأزرق الفاسي من تجار وجدة وهو مشتر منهم ... جميع البلاد البورية المذكورة ... حاز كل واحد (حقه) ، فالزوجتان واجبهما وواجب أولادهما يصرفان عليهم نفقة وكسوة لكونهم في غاية الاحتياج والفاقة لما وقع في البلاد من القحط وغلاء الحبوب وارتفاع الأسعار ... في 26 محرم 1325 / 11 ـ 3 ـ 1907» .

ولا ريب أن الفئة الاجتماعية التي رحبت بالفرنسيين قلبا وقالبا هي فئة التجار الكبار التي جنت فوائد جمة من معاملتها مع الحاميات العسكرية ومن توثيق ارتباطها بالأسواق الجزائرية المجاورة[121] . وفضلا عن ذلك فإنها التمست من الادارة الجديدة أن تحل المشكلة المالية التي طالما عانت منها الأمرين حيث أن الادارة المخزنية وعدتها منذ 1905 أن تعوض لها خمسين ألف فرنك من النقود النحاسية التي بخس ثمنها والتي أودعتها عند أمين الجمارك بالمدينة ، بالنقود الفضية على أساس 4 فرنك من هذه مقابل 5 فرنك من تلك .

ورغم أن هذه المشكلة لم تكن خاصة بشرق المغرب فإن الأوساط

(120) و.ع.

(121) AMAE.

الاستعمارية أدرجتها في سياسة الترغيب وتبادل المنافع ، فسوتها خلال 1907 [122] .

وسوف لا نجانب الحقيقة إذا قلنا أن الرسالة التالية المؤرخة في 25 صفر 1325 / 6 أبريل 1907 كانت مرآة لرأي عدد غير يسير من الناس :

«...من عبد ربه الشيخ بوعمامة ابن العربي إلى سعادة المعظم الأرفع المحترم الأنفع السيد الكرونيل ريبل حاكم دائرة مغنية ورئيس الأمور السياسية بوجدة ، عليك السلام كما يليق بجنابك ورفع المقام ، أما بعد ، فإنني وافقت محب الجميع قائد بني واسين السيد عزيز بن قدور على ما طلبه مني من جانب الخير والمهادنة وإصلاح ذات البين بين الايالتين وذلك ما يعود نفعه للجميع وحسن المجاورة واطفاء نار الفتنة بين الفريقين ، وهذا الأمر يستحسنه الخاص والعام ، ولا يكره أحد من الناس الخير..» [123] .

أما الروكي بوحمارة فقد اكتفَى باسداء النصائح لاتباعه ولمن أراد أن يلوذ بجواره أمثال القاضي محمد بن علي من بني محيو ليلتزموا الهدوء والسكينة لأن الأعداء سينسحبون من وجدة «بعون الله وحفظه رغم أنفهم اذلة ومغمومين» .

ولكنه في الواقع كان متيقنا بأنه لا طاقة له أمامهم إلا انتظار الفرصة للتفاوض معهم على قدم المساواة ليصبح ملكا بصفة شرعية ولو على الجزء الشرقي من المغرب [124] .

---

(122) AIX 1 J 193.
(123) Ibid.
(124) - 7 Avril 1907. Ibid.
- Smaili. M.A.Thèse. op.cit. pp. 158-159.

ب) احتلال منطقة بني يزناسن .

ما ان تمركز الجيش الفرنسي بمدينة وجدة حتّى قام القائد محمد بن السايح في بني منكوش والقائد امكعد الرأس في بني عتيق والقائد محمد ولد عيسَى في أولاد منصور والمرابط الشيخ المختار بن محيي الدين البوتشيشي وغيرهم[125] يدعون الناس إلى الالتفاف حول راية الجهاد لرد كيد المعتدين في نحورهم ومناهضة من كان يريد أن يلف لفهم أمثال القائد قدور ولد سعيد في أولاد الغازي والقائد بلغماري في بني ادرار[126] .

وفي 7 ــ 8 أكتوبر 1907 اشتبكت كتيبة Cdt Barthaud بالمجاهدين قرب قرية أولاد مريم ، فردت على اعقابها ، ثم حاولت السلطات الفرنسية أن تزرع الشقاق بين بني يزناسن بواسطة العامل أحمد بن كروم ، منتهجة سياسة الوعد والوعيد ، فطلبت منهم أداء غرامة قدرها خمسة ألف فرنك لتعويض خسائرها ، وأعطتهم مهلة إلى غاية 12 نونبر ، ومنعتهم من الحرث ببسيط انكاد وأغلقت في وجههم الأسواق الجزائرية[127] .

وفي 23 نونبر بدأ الكولونيل Felineau يتسلق بجنوده منحدرات بني سكمان فاصطدم بمقاومة عنيفة وتراجع قليلا ليستجمع قواته ويعيد الكرة في اليوم الموالي ، لكنه شعر بخطورة الموقف ورجع مذموما محسورا إلى معسكره بوجدة حيث استقبلته الجالية اليهودية بالهتافات والتصفيقات ، وكأنها نفست عنه ما كان به من الغم والحزن[128] .

وأثناء تلك المعارك انطلقت تجريدات أخرى من كيس لنهب الأموال والانعام ببسيط اتريفة فتصدت لها طوابر من المجاهدين من اغبال وأرغمتها

---

(125) انظر رسالة العامل احمد بن كروم إلى المختار البوتشيشي في الوثائق الاضافية.

(126) L. Voinot. Oudjda. op.cit. pp.224 à 228.

(127) - Ibid. pp. 228-29

(128) - AMAE.
- AIX 30 H 56.

على التقهقر ، بل حاصرتها بباب العسا وناوشتها عدة مرات من 26 إلى 29 نونبر[129] .

ولقد ظهر تفوق الغزاة في التخطيط والمعدات حين زحفت حملتا الكولونيل Branliere من الشمال والكولونيل Felineau من الشرق ، فاحتلت الأولى احفير في 30 نونبر واغبال في 5 دجنبر . وهنا جاءت جماعة من بني نوكا وتغجيرت وبني منصور وبني عتيق من أجل التفاوض ، فقبلت الشروط الآتية :

- أداء غرامة قدرها 210 ألف فرنك على أساس مائة فرنك لكل خيمة أو دار .
- فتح طريق من فج الكربوز .
- ارجاع أسلحة وبذل الجنود الذين سقطوا في المعارك السابقة .
- التعامل التجاري مع الأجانب بأسواقهم .
- احترام الدوريات العسكرية التي تجوب المنطقة .

ثم احتلت بركان في 14 دجنبر حيث استسلم القائدان امكعد الرأس وامبارك ولد لهبيل .

أما الحملة الثانية فتوجهت نحو عين الصفا فواد صفرو حيث انهال عليها وابل من الرصاص من كل جانب فتقهقرت ثم زحفت نحو تافوغالت التي تمركزت بها في 22 دجنبر 1907 .

وفي ليلة 30 — 31 دجنبر حاول Lt Lapostolle ان يلقي القبض على الشيخ المختار البوتشيشي بمنزله بتغجيرت ، لكن هذا الأخير تفطن للمكيدة

---

(129) - L. Voinot. Oudjda.. op.cit. pp. 231 à 235.
- AMAE.
- AIX 30 H 57.

والتجأ إلى رأس فوغال ، ثم رضي بالأمر المحتوم ، فاعتقل بمغنية إلى أواخر يناير 1908 [130] .

ولقد ذللت العقبات أمام هذه العمليات العسكرية بالعمل السياسي الذي قام به في وسط الأهالي الطيب بن بوعمامة والقائد أعمر ولد اليوجيل ومحمد ولد بومدين أوليو ببني عتيق ، وكذلك الحصار الاقتصادي الذي ضرب على المنطقة في المسالك الرئيسية ، الشيء الذي جعل الفلاحين يحاولون استدراك ما فاتهم من الوقت إذ شرعوا يحرثون حقولهم طيلة النهار وحتّى بالليل على نور القمر بعدما هدنت الأوضاع واستتب الأمن [131] .

وقد يكون من المفيد أن نشير أنه شعورا بعجزها أمام الوقائع الدائرة بشرق المغرب فإن الادارة السلطانية قررت التعاون مع الادارة الفرنسية لتكوين مائة مشاة ومائة جندي للمدفعية وأربعين خيالة تحت اشراف حوالي 20 ضابطا + 500 جندي من الفرنسيين والجزائريين [132] .

جـ) احتلال لعيون سيدي ملوك وتاوريرت : يونيو 1910 .

قبل أن يكتسح الوجود الاستعماري سائر المنطقة الشرقية كان من الضروري على الجنرال ليوطي أن يستميل بادئ ذي بدء بوعمامة وبوحمارة أو على الأقل أن يزيل العروة الوثقَى التي كانا يتمسكا بها ثم ان يؤلب احدهما على الآخر ليذيب كل شكل من أشكال الادارة المخزنية التقليدية .

فبخصوص الروكي ، كان في نية Regnault ، ممثل فرنسا بالمغرب أن يهيء مفاوضات بين مولاي عبد العزيز وبعده مولاي حفيظ وبين

---

(130) - Ibid.
- AMAE.
- L. Voinot. Oudjda. op.cit. pp. 236 à 241.

(131) - AIX 1 J 169.
- AMAE.
- Smaili. M.A. Thèse: op.cit. pp. 163-164.

(132) رسالة ملكية إلى احمد بن كروم في 6 ذي القعدة 11/1325 — 12 — 1907. الوثيقة 74 من كتاب : Mohamed Nehlil. Lettres Chérifiennes

بوحمارة خلال نونبر 1907 لاضفاء صبغة الشرعية على نفوذ هذا الأخير في شمال البلاد أمام الجيوب الاسبانية[133] . وكادت الخطة تتحقق لولا اصرار الروكي على متابعة نضاله ضد خصمه . وهذا ما أكده للقبطان ابن خوتي والترجمان أحمد بالناصف اللذين اتصلا به في مارس 1908 قرب سلوان ، وطلب من الفرنسيين عدم التدخل في النزاع الدائر بينه وبين المولَى عبد الحفيظ إذ لكل واحد منهما دائرة نفوذه ، فلهذا منطقة الدار البيضاء ــ التي احتلتها القوات الفرنسية في غشت 1907 ــ ، ولذاك منطقة وجدة ، وانهما متفقان على مواصلة الجهاد ضد المستعمرين النصارَى لاجلائهم من البلاد ... وإذا انتهت مهمتهما سيفوضا أمرهما لله الذي يؤتي الملك من يشاء من عباده[134] .

وإزاء بوعمامة ، فمن أهم العوامل التي سهلت مهمة المخابرات الفرنسية لاستمالته ان هذا الشيخ كان قد بلغ من الكبر عتيا وان صحته كانت في تدهور مستمر في الوقت الذي كان ابنه الطيب منفيا بواحة لغواط .

جاء في رسالة من الوالي جونار للجنرال ليوطي في 25 ــ 4 ــ 1907 :

«...أشاطر رأيكم انه من المفيد أن يبقَى المرابط مقيما بالتخوم المغربية بعد استسلامه لنا حيث سيسدي خدمات جليلة . وسأدرس بكامل العناية اقتراحاتكم في شأن تخصيص منحة مالية لهذا الشخص ...»[135] .

وفي مراسلة من وزير الخارجية Pichon للوالي جونار في فاتح يونيو 1907 نقرأ ما يلي :

---

(133) AIX 30 H 55.

(134) - Ibid.
- AIX 1 J 186.
- Smaili. M.A. Thèses. op.cit. p.170.
انظر الفقرة الخاصة بفتنة بوحمارة. ابتداء من الصفحة 207.

(135) - AIX 1 J 169.
- Smaili. M.A. Thèse. op.cit. pp.164-165.

«...لابد من استعمال المرابط ... بصفة مفيدة في شكل محايد ثم في شكل ايجابي وخفي في منطقة شاسعة لتسهيل مهمة قواتنا الأمنية ولفتح الأسواق ... ان وجوده في حوض ملوية وعلى الطريق المؤدي إلى فاس سيعاكس سلطة المخزن ... سنقرب منه ابنه وسندفع له منحة مالية ...»[136] .

ولنزداد يقينا على أهمية الدور السياسي الذي لعبته زاوية بوعمامة بالمنطقة لصالح الوجود الاستعماري حيث أنها كانت على حد تعبير محمد بن الحسن الحجوي «طليعة الجيش الفرنسي»[137] نورد رسالتين للشيخ بوعمامة ، الأولى موجهة للجنرال ليوطي في 9 جمادى الأولى 1325 / 20 ــ 6 ــ 1907 والثانية موجهة لوالي الجزائر في فاتح جمادَى الثانية 1325 / 12 ــ 7 ــ 1907 .

قَالَ في الأولى :

«...(فقد وصلتنا) الكتائب 13 اجوان سنة 1907 المحتوية على الأمان الذي كنت طالبا منكم نحن وأهلنا وكل دائرتنا ، جزاك الله خيرا وذلك الظن بكم وأنتم أهل الكرم والمسامحة وقبول من أتاكم بنية صالحة بما يرضاه ويطمئن باله ، أمد الله آمالنا على مكافاتكم ....»[138] .

وقال في الثانية :

«...قد وصل لدينا ولدنا السيد الطيب بن أبي عمامة وأخبرنا باحسانكم العظيم لديه ومكارمكم الخارقة للعادة إليه ، ووقع لنا فرحا (هكذا) عظيما فنحن نشكر في جنابكم الكريم على ما أسديت من الخير والاحسان الذي لا ينسَى على مرور الليالي والأيام ، أبقَى الله جنابكم في

---

(136) - Ibid. p. 166.
- AIX 1 J 169.

(137) ثورة ابي حمارة. ص. 50.

(138) AIX 1 J 169.

غاية المجد والاحترام فنحن لا طاقة لنا بمكافاتكم إلا بالثناء عليكم والاعتراف بفضلكم نطلب الله أن يتم هذه المحبة بيننا وبينكم ...

نطلب من جنابكم أن لا تهملوا أمرنا بما أن يلتجأ بنا أحد في المستقبل أو نحتاجوا لأمر من جانبكم كما أننا كذلك ، وأخبر جنابكم انني أريد أن أصلح بناء قصبة العيون لأجل تعمير السوق بها ولنخزن أثاثي بها ربما ان نحتاج إلى مؤنة البناء نطلب منكم أن تعينوني به ...»[139] .

ولاشك أن رجوع الطيب بن بوعمامة إلى لعيون سيدي ملوك كان له أكثر من دلالة ومن مغزى .

إنه فند الاشاعات القائلة بأن ابن المرابط كان أسيرا ومذلولا بالجزائر .

انه أظهره مكرما ومعززا في المنطقة التي سجن بها من طرف الإدارة المخزنية وأضفى عليه حماية دولة أجنبية بصفته مواطنا جزائريا .

وبحكم هذه المزايا والاعتبارات سيوضع في كفة النفوذ الاستعماري حتّى في حالة انسحاب الجيش الفرنسي من وجدة[140] .

وامعانا في سياسة الكتمان والمراوغة وتكريسا للأمر الواقع الذي لا جدال فيه ولا مناقشة فإن الدوائر الدبلوماسية الفرنسية أشعرت الحكومة المغربية بأنها سمحت للطيب أن يزور أباه لمدة محدودة طالما أن هذا الأخير كان طريح الفراش ويعاني من مرض خطير[141] .

ومنذ تلك الآونة تقرر منح مبلغ 15 ألف فرنك سنويا لزاوية بوعمامة لقاء دورها الايجابي في احداث بني يزناسن الآنفة الذكر[142] .

---

(139) Ibid.

(140) Ibid.

— مراسلة الجنرال ليوطي إلى الوالي جونار 1 — 6 1907.

(141) مراسلة وزير الخارجية، عبد الكريم بن سليمان إلى المفوض الفرنسي بالمغرب رنيو. : 27 — 10 — 1907. AIX 30 H 81

(142) مراسلة رنيو لجونار : 5 — 12 — 1907. المصدر السابق. بالمقارنة مع المنحة المخولة للشيخ بوعمامة فإن منحة القائد علال الزواوي كانت تبلغ وقتئذ اثنى عشر ألف فرنك. AIX 1 J 169

ولقد كان الأهالي يعتبرون اتباع بوعمامة عناصر جزائرية في خدمة المصالح الفرنسية بعدما كانوا يناهضون السلطات المخزنية باسم سلطانهم الجيلالي بوحمارة ، وقد استولوا على مساحات كبيرة من أراضي قبيلة السجع وحولوا مجرَى بعض السواقي لمزارعهم ، ولما رفع السكان الأصليون شكواهم للإدارة الفرنسية لم يحصلوا على أي طائل ، واستلبت منهم نصف أراضيهم أي أكثر من عشرة ألف هكتار(143) .

وعلى سبيل المثال فإن أحفاد الشيخ منصور بن حمدان السجعي الايوبي نزعت منهم قطع من الضيعة التي كانوا يمتلكونها والمياه التابعة لها في عين الدفلة ، على مقربة من قصبة لعيون سيدي ملوك رغم أن هذه الملكية كانت معززة بعقد قضائي يرجع تاريخه إلى شهر محرم 1231 / دجنبر 1815 ، وقد اشتراها الشيخ المذكور بمائتي وثمانية وأربعين مثقالا من الشيخ مامون بن فارس وأقاربه من أولاد بوزيد(145) .

ومما زاد في تمزيق شتات قبائل المنطقة وغير علاقات الانتاج فيما بينها ان بعض أعضائها استفادوا من الاضطرابات السياسية ومدوا أيديهم لممتلكات الغير غصبا وظلما وعدوانا .

مثال على ذلك : رسالة المولى عبد العزيز إلى القائد حمدون بن احميدان في 16 رجب 1323 / 16 ــ 9 ــ 1905 :

«...فقد رفع الشكاية لشريف حضرتنا النقيب السيد محمد بن بوجمعة الطرشون من أولاد تميم بأن بلاده الكائنة بقرب عيون سيدي ملوك فيضة الرمانة والحرائق وقبر الجاهل وغير ذلك قد حرثوها الشجع من ايالتك ، وكتب إليك ولم تجاوبه ، وهذه البلاد قد سلموها أعيان الشجع بوجدة بالقاضي والعدول وعامل وجدة السيد عبد الرحمن بن الصادق ، والآن

(143) مراسلة ليوطي إلى جونار : 25 ــ 3 ــ 1909. المصدر السابق.

(144) وثائق القنصلية الفرنسية بوجدة.

(145) و.ع.

رجعوا يحرثونها بقصد الملك ... وعليه فنأمرك أن تعاقب جميع من حرث فيها ...»[146] .

بيان حول زاوية بوعمامة في 1907
(144)

الفصائل القبلية	الخيام	الرجال	النساء	العبيد	الاماء	الأطفال
أولاد سيدي الحرمة	16	27	34	41	39	31
الخـدام	67	82	22	—	—	10
ا. سيدي بن عيسَى	8	10	9	—	—	2
ا.س. امحمد	9	14	12	2	—	11
ا.س. الحاج أحمد	13	21	13	—	—	8
ا. جرير	5	7	7	—	—	5
الشعانبة	69	93	73	4	—	95
ا.س. التاج	13	21	20	—	—	9
العمـور	85	157	131	1	—	89
المجمـوع	285	432	321	48	39	260

وعلى أية حال فإن هالة الهيمنة المادية التي كانت تتمتع بها زاوية بوعمامة ، قبل وبعد وفاة هذا المرابط في يوم الأربعاء 11 رمضان 1326 / 7 ــ 10 ــ 1908[147] ، استمدت جانبا كبيرا منها من السلطات الفرنسية .

فرسالة الطيب إلى الوالي جونار في 12 ذي القعدة 1327 / 25 ــ 11 ــ 1909 من الشواهد على ذلك :

(146) و.غ.

(147) AIX 30 H 81.

«أخبرك أيها الأب لما تكرمت علينا الدولة الحليمة بخروجنا من السجن المغارب (هكذا) ورجعت بنا لزاويتنا تفقدت ما كان بزاويتنا من الدراهم والزيارة من كل جانب ، وجدنا الدراهم قد تمت في مخاسير أبي حمارة ، فمنها من ذهب سلف ولم ترجع ، ومنها من ذهبت عطاء ، والزيارة التي كانت تأتينا بها القاس (هكذا) من كل جانب انقطعت علينا ، فوقفنا ولا وجدنا حيلة استعملها ، واحتجينا لكل حاجة من خدمة الدولة ولخدمة نفوسنا ، ونحن خدام تحت يد الدولة الحليمة ولابد للخديم أن يطلب كل ما يحتاج إليه من سيده ، من غير حياء ولا عتاب ، ونحن خدام تحت يد دولة لها بال ، فخيمة ، ولها طاقة قادرة على مكافأة كل من كان لها خادم ...

فها نحن نطلب من الدولة الكريمة أن تتكرم علينا بما نستعين به على أمر دنيانا ..»[148] .

وبالفعل فإن انصار الطيب مهدوا السبيل للاستعمار الفرنسي ، السياسي والعسكري والاستيطاني ، وشنوا عدة غارات على قبائل المنطقة ، وحتّى على أحلاف تاوريرت[149] قبل أن يتمركز الكولونيل Passard بعيون سيدي ملوك في يوم الأربعاء 6 جمادَى الثانية 1328 / منتصف يونيو 1910 ، وشاركوا في الهجومات المتوالية التي قادها الكولونيل Feraud على تاوريرت في يوم الأربعاء 20 جمادى الثانية 1328 / 29 يونيو من نفس السنة[150] ، فانزل حامية هناك ثم نقلها بعد مدة وجيزة ، لأسباب صحية وأمنية[151] ، إلى دار الشاوي ، جنوبي تاوريرت

---

(148) Ibid.

(149) مراسلة الطيب إلى Cdt Feraud : 12 شعبان 29/1327 — 8 — 1909. Ibid

(150) L. Voinot. Sur les Traces Glorieuses des Pacificateurs du Maroc. p.25.

(151) كانت الدوريات العسكرية الفرنسية تقع، من حين لاخر، في الكمائن التي ينصبها الاحلاف : ففي 3 — 8 — 1912 تركت كتيبة القابطان Berthon عدة ضحايا بين عين ادريسة وتاوريرت.

وفي 31 من نفس الشهر كادت عربة المسافرين الرابطة بين وجدة وتاوريرت تسقط في أيدي المجاهدين قرب المدينة الاخيرة. L'A.F. Sept. 1912. N°9. p.370.

بعشرة كلم[152] .

وان هذا التحرك العسكري كان يتناقض مع معطيات اتفاقية فاس المؤرخة في 4 ـ 3 ـ 1910 التي نصت على انسحاب الحاميات الفرنسية من وجدة وبني يزناسن والشاوية وتعويضها بقوات مخزنية مدربة بطريقة عصرية[153] .

د) احتلال دبدو : 5 ماي 1911 .

فيما يخص هذه المدينة فقد وضعت المخابرات الفرنسية في حساباتها المعطيات الآتية :

* ان اتفاقية الجزائر في 20 ـ 4 ـ 1902 قررت تنشيط المبادلات التجارية بعدة مدن من المغرب الشرقي ، ومن جملتها دبدو .
* ان سكانها المسلمين كانوا منقسمين إلى طوائف متنافسة على الجاه ، وخاصة بين سكان القصبة والأحياء الأخرى .
* ان ملاح اليهود كان الحي المركزي للمدينة ، اقتصاديا وتجاريا ، وانه كان معرضا للأخطار كلما نعق ناعق من المغامرين والمتمردين[154] .

ففي نونبر 1910 اغتيل به تاجر فرنسي اسمه Apparicio ورفيقه الشيخ ولد حمو .

وهاجمت طائفة مسلمة على يهوديين في 16 يناير 1911 فقتلتهما ، ثم أعادت الكرة في 19 ـ 20 من نفس الشهر فاغتالت أربعة يهود وانتهبت الدكاكين والبساتين[155] . ولذلك تعالت نداءات اليهود للسلطات الفرنسية

---

(152) ان السوق الذي كان يعقد بجوار اطلال قصبة مولاي اسماعيل نقل إلى دار الشاوي، وهي القرية التي أسسها القائد الشهير بوزيان الشاوي في عهد المولى عبد الرحمن.

(153) - Voinot. L. De Taourirt à la Moulouya et à Debdou. La Géographie. 1912.pp.22 - 23.
L'A.F. Nov. 1910. N°11 pp. 347 à 349.

(154) L'A.F. Déc. 1909. N° 12. p.422.

(155) AIX 30 H 60.

المتمركزة بتاوريرت لتنقلهم إلى جوارها تحت حراسة قبيلة السجع أو لتحتل دبدو وتريحهم من تعسفات خصومهم[156] .

وبما أن أولاد يوسف والكياديد كانوا يستحسنون المعاملة مع الفرنسيين اجريت مفاوضات مع الشيخ غمريش ولد قدور ولد علو ـ رئيس أهل القصبة وأهل المصلى ـ ومحمد ولد الحاج الصغير ـ أحد أعيان أولاد اعمارة ـ لتذليل العقبات أمام دخول جيش الكولونيل Henrys المدينة يوم الجمعة 6 جمادَى الأولى 1329 / 5 ماي 1911 ، الا أنه صدرت مقاومة عنيفة من قبيلة علوانة حيث دمرت دورية القبطان Labordette في 15 ماي ، ومن قبيلة بني رييس حيث قتل عدد كبير من الغزاة ، من بينهم Cdt Roumens في 23 من نفس الشهر[157] .

---

(156) مراسلة الجنرال Toutee إلى وزير الحرب : 12 ـ 3 ـ 1911. AIX 30 H 61

(157) - AIX 30 H 60.
- Sur les Traces des Pacificateurs.. op.cit. pp. 81-82.

الفصل السادس

وضعية الجالية اليهودية

1 ــ جالية مستغلة ومحتقرة ؟؟؟

2 ــ تنظيم الملاح.

3 ــ جالية مدينة دبدو.

4 ــ جالية مدينة وجدة.

5 ــ النهضة اليهودية العالمية.

كان للعنصر اليهودي بشرق المغرب وجود بارز في الحياة الاقتصادية والاجتماعية وأحيانا ، حتّى في المجال السياسي[1] ، وذلك منذ أقدم العصور .

ولا يستبعد أنه شارك في نشأة ثم في ازدهار مدينة وجدة لأننا نلاحظ أن اليهود كانوا يسكنون في أهم أحيائها ، في حي أهل وجدة ، وحي أولاد عيسَى ، وحي أهل الجامن ، وبصفة مكثفة في حي أولاد عمران ، أي في الزاوية الشمالية الغربية للمدينة القديمة . وقد يدل اسم أولاد عمران على ول بطن يهودي أسس هذا الحي لأن هذا الاسم يتداول كثيرا في العائلات العبرية ، وقلما يتسمَّى به في العائلات الإسلامية[2] ، ثم ان المقبرة الخاصة بهم كانت توجد قرب هذا الحي وكانت تتميز باتساع رقعتها وأهمية الأراضي المحبسة عليها . ويمكن القول أنه لولا الحيوية التي كانت تتميز بها هذه الجالية وصمودها أمام المحن والنزاعات الداخلية والأخطار الخارجية لاضطرت من طرف العنصرين العربي والبربري أن تحتمي وراء جدران وأسوار الملاح كما وقع في جل المدن المغربية[3] . إلا أنه من الراجح ان الأحداث التاريخية والاعتبارات الدينية والعرقية انعكست بصفة سلبية على وضعيتها المعنوية بالنسبة لجيرانها المسلمين .

حقيقة ، ان اليهود كانوا يعيشون وسط المواطنين المسلمين بحكم روابط المصالح المتعددة . ولكن لم يكونوا معهم على قدم المساواة ، لهم نفس

---

(1) انظر بداية الفصل الخامس.

(2) لابد من الاشارة إلى ان هناك بطنا من بطون قبيلة ذوي منصور كان يعرف باسم اولاد عمران أو العمارنية، وينتسب إلى قبيلة الاحلاف الشهيرة. (انظر الفصل الرابع).
كما انه يوجد حاليا دوار لعمارنة في ثلاثة مواقع من بسيط انكاد، واحد بقبيلة لمهاية قرب قرية سيدي موسى، واثنان بين وجدة وبني ادرار.

(3) على سبيل المثال، خصص حي الملاح لليهود بمدينة مكناس في 1093هـ/1682م من طرف المولى اسماعيل. الاستقصا. ج 7 ــ ص. 64.
ــ نشر المثاني. ج 2 ــ ص. 305.

الحقوق ونفس الواجبات رغم الصلات الحميمة التي نسجتها الحياة المشتركة والأصل الواحد[4] .

إن اليهود كانوا قبل كل شيء أهل الذمة إذ كانوا يتمتعون بنظام حر فيما يخص طقوسهم وعاداتهم الدينية وإدارة شؤونهم الاجتماعية[5] . بيد أن علاقاتهم بالمسلمين كانت تخضع ــ نظريا وأحيانا عمليا ــ للمبادئ التي سطرها الماوردي في القرن 11م ، والتي تتلخص :

أولا : في واجب الاحترام للقرآن الكريم ولشخصية الرسول ﷺ وللدين الإسلامي بصفة عامة ، وكل يهودي ساعد أعداء المسلمين كان يتعرض لعقوبة شديدة قد تصل إلى الاعدام .

ثانيا : في ارتداء زي خاص ــ أسود في غالب الأحيان ــ ليتميزوا عن الآخرين .

ثالثا : في أن مساكنهم لا ينبغي أن يتجاوز علوها مباني المسلمين .

رابعا : في الامتناع عن شرب الخمر علانية ، وعن تلاوة كتبهم الدينية أو أداء صلواتهم جهارا .

خامسا : في الامتناع عن ركوب الخيل[6] .

نعم ، إن اليهود كانوا يخضعون كرها لهذه القيود والعادات التي فرضت عليهم لاسيما أثناء حكم من كان يريد أن يميزهم عن غيرهم لضمان حمايتهم ورعايتهم ، لا من أجل احتقارهم والتضييق عليهم ، أو من أجل الامتناع عن مخالطتهم والتعامل معهم لأن هذا يتنافى مع صميم الأخلاق الإسلامية .

---

(4) Chouraqui André. Les Juifs d'Afrique du Nord. p.62.

(5) Moise Nahon. Les Israélites du Maroc. Revue des Etudes Ethnographiques et Sociologiques. 1909. p.265.

(6) Chouraqui André. La Condition Juridique de l'Israélite Marocain. pp. 50-51.

والشاهد على ذلك ، التدابير التي اتخذها الخليفة الموحدي يعقوب المنصور بالزامهم بزي خاص بهم ، فوضع لهم ثيابا كحلى اللون «ذات أكمام مفرطحة السعة ، طولها يصل إلى أقدامهم ، وبدلا من العمائم جعل على رؤسهم كلوتات على أشنع صورة كأنها البراديع واصلة إلى ما تحت آذانهم» ثم إن ابنه الناصر استجاب لتوسلاتهم فغير زيهم إلى ثياب وعمائم صفر ، في 595هـ / 1198م[7] .

1 – جالية مستغلة ومحتقرة ؟؟؟

للإجابة على هذا السؤال لابد من الاستناد على بيانات تاريخية .

فحسب الحبر Moise Edrehi ان يهود مدينة دبدو في أواخر القرن 18 كانوا محترمين من لدن المسلمين ، وكانوا لا يؤدون أية ضريبة للحكومة المركزية ، وكانوا في حماية القواد أو أعيان القبائل الذين كانوا يتقاتلون إذا هضم حق من حقوق مواليهم ...

وبفضل ذلك كان اليهود يحققون مطالبهم ... إنما كان عليهم أن يقدموا هدايا لاسيادهم ، مرتين أو ثلاث مرات في السنة ... وعلى أية حال فكانوا سعداء وفي أمن تام[8] .

ويظهر أن هذه الوضعية تغيرت كثيرا إذا ثقنا بشهادة De Foucauld ، الضابط الفرنسي الذي تجول في عدة مناطق مغربية في 1883 — 84 في مهمة تجسسية واستكشافية ، مرتديا زي الأحبار ومصحوبا بحبر جزائري اسمه Mardochee Aby Serour

ولقد أقام بدبدو من 14 إلى 18 ماي 1884 ودون ملاحظات قيمة نقتطف منها ما يلي :

---

(7) Voinot. L. Oudjda. op.cit. p.413.
عبد الله علي علام. الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المومن بن علي — ص.241.

(8) Slousch Nahum. Un Savant Marocain. R.M.M. 1909. p.67.

«...هناك صنفان من اليهود : صنف في المناطق الخاضعة للنفوذ المخزني وصنف في البلاد الثائرة والسائبة .

إن الصنف الأول يتمتع بحماية الدول الأوربية وبعناية السلطان نظرا لنشاطه في الميدانين التجاري والاقتصادي ...

منهم من جمع ثروات ضخمة ... فهم يضطهدون فقراء المسلمين ويحترمون من طرف أغنيائهم ... انهم يعيشون في البذخ والكسل ...

أما اليهود الذين يعيشون في بلد السيبة فانهم يشتغلون في أراض سيدهم المسلم (؟) الذي يستغلهم استغلالا فاحشا ... .

فهم لا يشعرون بالأمن ، لا لأنفسهم ولا لممتلكاتهم .. وهم أشقَى الناس على وجه الأرض .. كسالَى ، أشحاء ..

يعرف اليهودي بشاشيته وبأحذيته السوداء . ، ولا يسمح له أن يختار غير هذا اللون ..

في البادية ، يمكن له أن يمتطي حمارا أو بغلا ولكن إذا وجد في طريقه فقيها أو مسجدا فمن المفروض عليه أن ينزل من راحلته أو أن يغير اتجاهه ...

انه ملزم بأداء ضريبة عند الدخول من أبواب المدينة ...

في المدينة يمشي حافي القدمين ...

ويحرم عليه أن يسير في بعض الأزقة المجاورة للمساجد .. انه يعيش مع بني جلدته ، بعيدا عن المسلمين ، في حي اسمه الملاح ..

إن الملاح محاط بسور له باب أو بابان ... إذَا دخله فإنه يشعر بنوع من الحرية والكرامة ، فيلبس أحذيته ويسير في شبكة من الأزقة المظلمة والمتعفنة .. (9) .

---

(9) Charles De Foucauld. reconnaissance au Maroc. (1883-1884). p.395.

ان اليهود ، في نظر المسلمين ، لا يمكن لهم أن يزاولوا سوَى المهن التجارية والصناعية .. فالفقراء هم صانعو الأحذية والصباغون والحدادون والدلالون ... أما الأغنياء فهم تجار ، وجلهم مرابون ..

ان اليهود في بلد المخزن يوجدون تحت امرة عمال الملوك ويؤدون لهم ضريبة سنوية ..

الأغنياء منهم هم في كنف دولة أوربية سواء بعد إقامة حقيقية أو خيالية بالجزائر أو بواسطة بعض الأعيان المسلمين الذين يعملون لصالح تلك الدولة .. اما اليهودي في بلد السيبة فهو في ملك سيده المسلم ..[10] .

ومن الطريف أيضا أن اليهودي كان يلجأ أحيانا إلى شيخ إحدَى الزوايا الدينية للحصول على الحماية الشخصية التي تثبت قواعدها «عقود الحرم» شبيهة بالعقد الذي منحه شيخ الطريقة الزيانية القنادسية لأحد اليهود من دبدو :

«..الحمد لله .

جماعة أهل دبد (هكذا) اعلموا بأننا الذمم الحران برهيم ولد الهرها ، راه دبنا ودخل تحت حرمنا وحرم الشيخ سيدي محمد بن أبي زيان ، وقبلناه ، وهو يهودينا ، ومن ضره وتعدَّى عليه فالله يتولاه ، ودعوت (؟) الشيخ سيدي محمد بن أبي زيان تتبعه ، وكذلك اخوانه ، والسلام .

ومن استرحمهم على وجه الشيخ فالله يرزقه من الدنيا والآخرة» .

وقد كتب على هذا الحرم بالحروف العبرية : هذا الكاغط دكتبلي سي محمد البزوان وسي المهدي كدباش انا يهوديهم[11] .

---

(10) لاشك ان ارتسامات De Foucauld حول مساوىء اليهود المغاربة مبالغ فيها بحكم تأثره بالظروف القاسية التي شاهدها حينما كان ينزل ضيفا بإحدى البيعات في الملاح، وقد نسى ان الذين سهلوا له انجاز مهمته التجسسية خاطروا بأنفسهم وأكرموه ايما اكرام.

- Les Juifs d'Afrique du Nord. op.cit. pp. 94-95.
- Reconnaissance du Maroc. op.cit. pp.397 à 399.

(11) A. Cour. Acte de Horm. BSGO. 1914. pp. 110 à 112.

وعلى صعيد السلطة المخزنية فإن الذميين كانوا يجدون العون والسند في القواد الذين كانوا مضرب الأمثال في الانصاف وحسن المعاملة كالقائد رمضان بن محمد بن عمر المحمدي الزكراوي الذي ورد ذكره في الوثيقة القضائية التالية : المؤرخة في 26 رمضان 1313 / فاتح مارس 1896 :

«...حضر لدَى شهيدين الذمي يعقوب ولد يوسف من سكان ملاح وجدة وأشهد علي نفسه أنه توصل من القائد رمضان الزكراوي بجميع ما ضاع له بسوق الزكارة يوم كسره توصلا تاما اعترافا ، وابرأ القائد المذكور وجميع ايالته من جميع ما ضاع له ابراء تاما شاملا مطلقا عاما بحيث لم يبق له من ذلك قليل ولا كثير طال الزمان أم قصر ، حضورا واشهادا تامين ...»[12] .

ومهما كانت الظروف فإن اليهودي كان لا يطمئن على نفسه وأهله إلا في حي الملاح[13] .

2 - تنظيم الملاح .

كلما كانت الجالية اليهودية كثيرة العدد ، في وجدة أو في دبدو مثلا ، إلا وكانت تدير شؤونها بنفسها ، الدينية منها والاجتماعية ، بواسطة مجلس المعمد الذي كان يضم الأحبار والأعيان البارزين — عادة ، سبعة من الأخيار — يعينهم من هو على شاكلتهم في العلم والثراء لتمثيل اخوانهم لدَى السلطة المخزنية . وبطبيعة الحال ، كان من بين هؤلاء من يتميز عن رفقائه فيصبح قائدا للملاح وصاحب الحل والعقد[14] .

---

(12) و.ع.

(13) ان دلالة اسم الملاح ترمز إلى مكان يباع به الملح بكثرة أو يوجد به حرفيون يستعملون الملح في بعض الصناعات، كصناعة الجلد مثلا، أو يهيئون الرؤوس البشرية التي غنمت في الحروب لتعلق على أبواب المدينة قصد إرهاب الخصوم والمتمردين.

— يرجع بناء أول ملاح بالمغرب إلى القرن 13م أو 15م.

- H. Terrasse. Histoire du Maroc. T. 1. p. 30
- Eisenbeth Maurice. Les Juifs du Maroc. p. 85.

(14) Aubin Eugene. Le Maroc d'Aujourd'hui. p. 368.

وكانت لهذا المجلس عدة اختصاصات :

* مساعدة الفقراء ، تدبير الأوقاف الدينية .
* تعيين الحبر الأكبر ، دراسة المطالب المخزنية .
* جباية الضرائب ، جمع التبرعات والهبات .
* تنظيم العمل الجماعي ....

ومن أجل ذلك كان لأمين المال ـ الكيزبور ـ وظيفة ذات نفوذ وأهمية سيما في الفترات السياسية المضطربة التي كانت تعكر الحياة بالملاح ، بل تعرض المجموعة اليهودية للوبال والثبور[15] .

وفي تقديري ان أعظم دور قام به المعمد يتمثل في فض النزاعات بين اليهود أنفسهم وجمع كلمة الفئات المختلفة والمتباينة في العادات والمراتب الاجتماعية والأصول التاريخية وحتّى في اللغات واللهجات والمشارب الدينية[16] . وان أشهر مثال على ذلك كان يتجلى في مدينة دبدو .

3 – جالية مدينة دبدو .

كانت تشكل جاليتهم أضخم مجموعة بشرية في المدينة[17] إذ كانت حارتهم في وسطها ، وكان عددهم يبلغ حوالي ثلثي سكانها ، 1.500 نسمة في 1884[18] ، 1.400 نسمة من مجموع ألفي نسمة في 1.913[19] .

---

(15) La Condition Juridique de l'Israélite Marrocain. op.cit. p.180.

(16) Les Israélites du Maroc. op.cit. p.263.

(17) Nehlil Mohamed. Notice sur les Tribus de la Région de Debdou. Bull. de la Sté de Géogaphie d'Alger. 1911. p.48.

(17) ان الجالية اليهودية تاثرت كثيرا بداء الطاعون الذي اجتاح مدينة دبدو في 1745. Les Juifs de Debdou. op.cit. p.263.

(18) ان De Foucauld نزل ضيفا عند هكو مرسيانو الدبدوبي من 14 إلى 18 ماي 1884.
وكانت دار هذا اليهودي في ملكية جابري الكيلي في 1978. تحقيق المؤلف.
Reconnaissance au Maroc. op.cit. p.250.

(19) يعزي انخفاض تعداد اليهود بمدينة دبدو في ظرف 30 سنة إلى هجرة بعضهم إلى مدن شرق المغرب =

ولقد استوطنوا هذه المنطقة الجبلية التي تقع جنوب المحور التجاري الرئيسي الرابط وجدة بفاس ، بحوالي 50 كلم ، وذلك منذ أقدم العصور ، ثم تكاثروا بفضل النمو الداخلي ، وأيضا بأفواج أخرى هاجرت إليها في فترات تاريخية مختلفة ، وخاصة في القرنين 14 — 15 بعيد الاضطهاد المسيحي باسبانيا .

وانهم اشتهروا بحيويتهم ونشاطهم الاقتصادي والتجاري والديني لدرجة انهم كانوا يوجدون بالمدن المغربية أو الجزائرية وحتّى الفلسطينية[20] .

ومن المفيد أن نذكر أهم العائلات في أواخر القرن 19 :

* أولاد كوهن الصقلي : 150 عائلة بقيادة الشيخ دفيد بن حيدة ، كانوا يعتبرون أنفسهم أشرف الناس وأولى بالرئاسة والجاه مما جلب لهم معارضة الفئات الأخرى ، وفي طليعتهم أولاد مرسيانو الذين كانوا يطالبونهم بحقوقهم في ملكية بيعة بدار مشعل ، قرب مدينة فاس ، بناها سيمون كوهن الصقلي في القرن 17[21] .
* أولاد مرسيانو : حوالي مائة عائلة ترجع أصلها لمدينة مورسيا الاسبانية . كان يترأسهم دفيد بن اكو مرسيانو .
* أولاد حمو : حوالي 20 عائلة بزعامة هارون دي شميل .
* أولاد ابن سوسان : اثني عشرة عائلة بقيادة ابراهام بن سوسان .
* أولاد ابن كيكي : عشر عائلات من أصل صحراوي ...[22] .

= (وجدة، احفير، العيون، تاوريرت...) اثناء الاستيطان الاستعماري هناك. Les Juifs de Debdou. op.cit. p.224

— في 1978 لم يبق منهم الا سبع عائلات، وفي 1984 خمس عائلات فقط تتعاطى للتجارة. تحقيق المؤلف.

(20) Les Juifs de Debdou. op.cit. p. 235.

(21) Les Juifs au Maroc. op.cit. p.53.

(22) Les Juifs de Debdou. op.cit. p.234.

ولقد تجلى النزاع الطائفي بدبدو في وجود خمس عشرة بيعة وعدة جماعات معمدية ، فاشتد الشقاق السياسي والديني وأدّى إلى الحملات الاعلامية في الجرائد العبرية ، وتدخلت محاكم فاس وبيت المقدس في قضايا لا حصر لها[23] .

ورغم ذلك فإن يهود دبدو كانوا يمتازون بالنشاط المتواصل والصبر الجميل والخبرة الواسعة في الميدان التجاري والاقتصادي . ولولا هذه الخصال ما كان لمدينتهم أن تطبق شهرتها الآفاق وان تكون شبيهة بخلايا النحل التي تفيض بالعطاء والنماء ..

فإلى جانب الحرف المختلفة كالحدادة والخياطة وصناعة النسيج والفضة والذهب والأحذية وكتابة النسخ والنشرات الدينية ، فكانوا يهتمون بالفلاحة وبتربية المواشي .

وقلما كانت القوافل التجارية الرابطة بين المدن الرئيسية — فاس ، تازة ، وجدة ، مليلية ، فكيك — لا تضم مجموعة من يهود دبدو .

فهذا De Foucauld لا يخفي دهشته حين رأى المبادلات التجارية الهائلة بينها وبين المدن الجزائرية ، بدأ من تلمسان[24] .

ومن الناحية السياسية ، إذا صدقنا نفس الكاتب فإن يهود دبدو كانوا يدفعون جزيتهم السنوية لباشا مدينة فاس ، بينما كان مسلمو المدينة تحت سلطة باشا مدينة تازة[25] .

---

(23) Ibid. p.229.

(24) Ibid. pp. 232-233-277.

(25) - Ibid. p.375.
— Les Juifs au Maroc. op.cit. p.90.
ان ضريبة الجزية كانت مفروضة على البالغين من الرجال دون النساء، والقادرين عليها باستثناء الاحبار والعجزة والعبيد، تطبيقا للاية الكريمة رقم 29 الواردة في سورة التوبة.
«قاتلوا الذين لا يومنون بالله ولا باليوم الاخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد، وهم صاغرون».

وقد تفسر هذه الظاهرة بقوة عصبيتهم واعتمادهم على نفوذ اخوانهم لدَى الإدارة المركزية السلطانية ، ومما يؤكد هذا الرأي أن الثائر الجيلالي بوحمارة حاول ، في بداية القرن 20 ، أن يجعلهم من اتباعه ، فعين دفيد بن حيدة قائدا عليهم[26] .

وبما أن لكل ذي نعمة حسودا فإن اليهود كانوا عرضة للأخطار في فترات الفتنة ، فتنهب أموالهم وتخرب بيوتهم من طرف كل ناعق له اتباع من الأوباش والسفهاء[27] .

ففي 1875 اغتيل 20 يهوديا بملاح دبدو ، وفي 1877 تعرض قطاع الطرق لقافلة من التجار بين وجدة ومغنية فقتلوا أربعة يهود دبدويين ، وفي أواخر 1885 انتهكت مرة أخرى حرمة الملاح فنهبت الأموال وازهقت الأرواح[28] .

ولقد تكررت المضايقات والتعسفات على اليهود ، مما جعل المولى عبد العزيز يكلف بشؤونهم القائد بوشتا بن الهاشمي الجامعي ، فامره «أن يستوصي بهم خيرا ويدب عنهم ويدافع عنهم من يريد إذايتهم واضرارهم ويراعي فيهم حقوق الذمة ويقف في انصافهم من كل من لهم عليه حق ولا يهمل أمرهم ...»[29] .

وعلى أية حال ، ففي 1909 لم يفلت تجار الملاح من يد جماعة من اللصوص إلا مقابل مبلغ كبير من المال[30] .

---

(26) Les Juifs de Debdou. op.cit. p.267.

(27) Jose Benech. Essai d'Explication d'un Mellah. p.59.

(28) - Les Juif de Debdou. op.cit. pp.264-265.
- Revue Africaine 1924. op.cit. p.417.

(29) عبد الرحمن بن زيدان ــ العز والصولة في معالم نظم الدولة. ج 2 ــ ص. 142 ــ 143.

(30) - L. Voinot. Oudjda. op.cit. pp. 128-129.
- L'A.F. Déc. 1909 N°12. p. 422.

4 – جالية مدينة وجدة .

قلنا سابقا انه ليس من المستبعد أن اليهود شاركوا في تأسيس مدينة وجدة حيث انهم كانوا منتشرين في جل أحيائها في القرن 19 وحيث انهم كانوا يشكلون غالبية السكان في حي أولاد عمران الذي كانت لهم به بيعتان بالإضافة إلى معبد آخر بحي أهل وجدة[31] .

وإذا اعتبرنا أن الفروع العائلية القديمة الأصل هي أولاد ابن أديبة وأولاد أزولاي وأولاد ابن غوزي وأولاد شربيت وأولاد ابن اسمهون ... فإن أفواجا أخرى انضمت إليها في فترات مختلفة ، فأولاد ابن هروس وأولاد الدين وأولاد ابن ادراي وأولاد امسالم جاءوا من الصحراء ، وأولاد سحكون وأولاد ابن عزيز وأولاد ابن كمون جاءوا من جبال بني يزناسن ، وأولاد ابن حمو وأولاد امويال وأولاد ابادیا جاءوا من الجزائر ، وأولاد ابن كيكي وأولاد ابن سوسان وأولاد الكوانين انحدروا من مدينة دبدو[32] .

ولاشك أن هذه الأعداد الهائلة من الذميين طبعت علاقاتهم بالمسلمين بنوع من التوازن الايجابي والتعايش السلمي القائمين على المصالح المشتركة سواء على صعيد العلاقات بأصحاب البادية أو على صعيد تبادل المنافع والخدمات داخل المدينة .

فمن جهة وفي بادئ الأمر ، استطاعت الطبقة التجارية التي كانت تلعب دور الوسيط بين أسواق شرقي المغرب ومدينتي تلمسان ومليلية ان

---

(31) لم يكن ليهود وجدة ملاح خاص بهم كما كان الشأن في مدينتي سلا وتطوان اللتين بنيت فيهما حارة يهودية في عهد المولى سليمان.
الاستقصا. ج 8 — ص. 173.

(32) في 1910 كانت الجالية اليهودية الوجدية تشكل تقريبا خمس سكان المدينة. فوانو. وجدة. ص — 129.
Voinot. L. Oudjda. op.cit. pp.128-129.

توظف أموالها في تربية المواشي وكذلك في الزراعة ، بمشاركة أو بتسخير الفلاحين المسلمين الذين كانت معيشتهم تتأرجح بين اليسر والعسر تبعا للظروف المناخية والطبيعية . وهذا مكنها ، شيئا فشيئا ، من شراء الأراضي المجاورة للمدينة والتي ذكرت في عدة عقود قضائية بأنها تابعة لحي أو ربع أولاد عمران .

ومن جهة ثانية فإن اليهود كانوا يسيطرون على جملة من الحرف المهمة كالحدادة وصناعة الحلي والدباغة ... بحكم مهارتهم فيها .

نعم ، ان بعض الخدمات الحقيرة كنقل جثث الميتة وتمليح رؤس المتمردين التي كانت تعلق على أبواب المدينة ، كانت من وظيفة فقراءهم [33] ، وكانوا يرتدون — إلى عهد قريب — ملابس خاصة داكنة اللون ، وكانوا يمشون حفاة قرب أي مسجد ، وكانوا محرومين من ركوب الخيل ، لكنهم كانوا محترمين وموقرين [34] .

ثم ان وضعيتهم تطورت لصالحهم كلما توطدت علاقاتهم باخوانهم بالجزائر ، سواء في المجال الانساني بالمصاهرة والمؤازرة ، أو في المجال التجاري بتشابك المصالح ، أو في المجال التعليمي حيث كانت تلمسان أهم مركز يمنح الاجازات والشواهد الدينية ، أو حتّى فيما يخص بعض النزاعات القضائية التي كانت تعرض على الأحبار الجزائريين [35] .

إذن ، فكان من الطبيعي أن يشعر اليهودي الوجدي بكرامته الشخصية فيقلد زميله الجزائري في زيه الأوربي وأن يرفع صوته إذا هضم حقوقه أي مسلم [36] .

---

(33) L'A.F. Rens. Colon. Août 1906. N°8. p.255

(34) Oudjda. BSGO. 1886. op.cit. pp.273-274.

(35) Voinot. Oudjda. op.cit. pp.194-195.

(36) L'A.F.R. Colon. Août 1906. N°8. p.255.
- L'A.F. Sept. 1909. N°9. p.193.
— لم نعثر على أية وثيقة تثبت ان بعض اليهود الوجديين المغاربة كانوا يتمتعون بالحماية القنصلية الفرنسية.

ولقد تفطن الثائر الجيلالي بوحمارة – أثناء إقامته بالمدينة في صيف 1903 – إلى هذه الظاهرة التحررية في وسط اليهود ، فأبَى أن يلبي رغبة فئة متطرفة من اتباعه في اجبار الذميين على ارتداء زي خاص بهم ، لأنه كان يعلم علم اليقين أن اليهود لهم من يدافع عنهم في المحافل العالمية ، وأيضا في القطر المجاور حيث أن اليهود تمكنوا من الحصول على المساواة مع المسيحيين الفرنسيين منذ صدور مرسوم Crémieux في أكتوبر 1870 ، في حين أن يهود مدينة مليلية منحت لهم الجنسية الاسبانية[37] .

5 – النهضة اليهودية العالمية .

على غرار الأقليات اليهودية الموجودة في المناطق الداخلية ، كانت جالية يهودي شرقي المغرب في عزلة شبه تامة عن مراكز النهضة اليهودية العالمية إذا استثنينا الزيارات التي كانت تقوم بها ، بين الفينة والأخرى ، البعثات الدينية الموفدة من أحبار بيت المقدس لجمع التبرعات ولتذكير اخوانهم بالصلات العرقية والتاريخية بين الفئات اليهودية في كل بقعة من المعمور .

ولكن ، من طالع يمنها ان بعض الجمعيات الأوربية بدأت تهتم بأحوالها السياسية والقانونية والاجتماعية وتنشر بيانات في المحافل الدبلوماسية للمطالبة بتحسين هذه الأحوال .

ولهذا الغرض ، جاء إلى المغرب ، في بداية 1864 رئيس جمعية انجليزية Sir Moses Montefiore الذي كان مقدرا ومبجلا في الدوائر السياسية لكثرة أمواله وطول خبرته ، فاتصل مرتين بالمولى محمد ولم يتم مهمته إلا وبيده ظهير مؤرخ في 5 – 2 – 1864 يؤكد ويضمن حقوق الذميين المغاربة[38] .

---

(37) Passim. Les Juifs d'Afrique

(38) Miege. J.L. Le Maroc et l'Eu: p.564-569.

وهذا هو نص الظهير :

«...بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، نأمر من يقف على كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره واطلع في سماء المعالي شمسه المنيرة وبدره من سائر خدامنا وعمالنا والقائمين بوظائف أعمالنا أن يعاملوا اليهود الذين بسائر ايالتنا بما أوجبه الله تعالى من نصب ميزان الحق والتسوية بينهم وبين غيرهم في الأحكام حتّى لا يلحق أحدا منهم مثقال ذرة من الظلم ولا يضام ، ولا يناهم مكروُه ولا اهتضام ، وان لا يتعدوا هم ولا غيرهم على أحد منهم ، لا في أنفسهم ولا في أموالهم ، وان لا يستعملوا أهل الحرف منهم الا عن طيب أنفسهم وعلى شرط توفيتهم بما يستحقونه على عملهم لأن الظلم ظلمات يوم القيامة ، ونحن لا نوافق عليه لا في حقهم ولا في حق غيرهم ، ولا نرضاه لأن الناس كلهم عندنا في الحق سواء ، ومن ظلم أحدا منهم أو تعدّى عليه فإنا نعاقبه بحول الله ، وهذا الأمر الذي قررناه وأوضحناه وبيناه كان مقررا ومعروفا محررا ، لكن زدنا هذا المسطور تقريرا وتأكيدا ووعيدا في حق من يريد ظلمهم ، وتشديدا ليزيد اليهود امنا إلى أمنهم ، ومن يريد التعدي عليهم خوفا إلى خوفهم .... (26 شعبان 1280)[39] .

وتعززت هذه المبادرة بالدور الذي قام به التحالف اليهودي العالمي بتأسيس مدارس ابتدائية للغة الفرنسية في كل من تطوان في 1862 ، وطنجة في 1865 ، وفاس في 1883 ، والصويرة في 1888 ، والدار البيضاء في 1897 ، ومراكش في 1900 ، ومكناس والعرائش في 1901 ، والرباط في 1903 والجديدة في 1906[40] .

وقد يعزى عدم انشاء مؤسسة عصرية من هذا النوع بمدينتي وجدة

---

(39) الاستقصا. ج 9 — ص. 113 — 114.

(40) Les Juifs d'Afrique du Nord. op.cit. pp.97-218.

ودبدو لقلة الامكانيات المادية والبشرية وكذلك لمعارضة رجال الدين الذين كانوا يزاولون تعليما عتيقا في مؤسسات شبيهة بالكتاتيب القرآنية من حيث الأساليب التربوية والوسائل المادية إذ كان المتمدرسون من الأطفال والشبان يجلسون على حصير بسيط في قاعة ضيقة أو في البيعة[41] ليحفظوا ، عن ظهر قلب ، الدرس الديني الذي كتبه الحبر على لوحة صغيرة[42] .

ومهما كانت سلبيات هذه المؤسسات التعليمية فإنها شكلت البيئة الثقافية التي حافظت على أسس القومية اليهودية التي ازدادت عمقا ورسوخا بالمساندة العالمية الاعلامية والدبلوماسية التي كانت ترد أصداءها من المؤتمرات الدولية التي كانت تلح على الحقوق المدنية الكاملة التي يجب أن تتمتع بها الأقليات اليهودية في كل مكان .

وان الدور النشيط الذي قام به الامريكي White في مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1906 يفيد بأن اليهود المغاربة كانوا لايزالون يخضعون لتقاليد وأعراف الحكم الإسلامي ولو بشكل متفاوت ، وقد حان الوقت للتحرر منها ، ولا سبيل إلى ذلك إلا تحت حكم دولة أوربية ، وفي مقدمتها فرنسا .

---

(41) كانت مساحة اشنوغة اولاد يشو لا تتجاوز مائة م^2 بينما كان عدد التلاميذ يفوق المائة في بعض الاحيان.و.ع.

(42) - Le Maroc d'Aujourd'hui. op.cit. pp.380-381.
- Michaux-Bellaire. L'Enseignement Indigène au Maroc. R.M.M. 1911. p.422.

الرموز المستعملة في الكتاب

ـــ و.ق : وثائق ادارة الأوقاف بوجدة.
ـــ و.ق : وثائق عائلية.
ـــ م.و.م : مديرية الوثائق الملكية بالرباط.

— A.M.A.E : Archives du Quai d'Orsay. Paris.
— Arch. de Vincennes : Archives de l'Armée Française. Château de Vincennes.
— AIX. : Archives Nationales d'Outre-Mer. Aix-en-Provence.
— B.S.G.O : Bulletin de la Société de Géographie et d'Archéologie d'Oran.

الفـهـرس

تقديـم 7
الفصل الأول : في أعماق التاريخ 9
1 ــ مدلول اسم وجدة 11
2 ــ أصداء الفتوحات الإسلامية في المغرب الشرقي 18
الفصل الثاني : عهد الأمراء الزيريين 27
الفصل الثالث : وجدة : المدينة التي تنبعث من أجداثها.. 43
الفصل الرابع : العصبيات القبلية في مجريات الأحداث التاريخية 61
1 ــ استيطان الأفواج الأولى من القبائل العربية بشرق المغرب 63
2 ــ وجدة في عهد المرابطين 66
3 ــ هجرة القبائل العربية إلى المغرب الكبير بعد القرن 4هـ / 10م 68
4 ــ إمارة دبدو 76
الفصل الخامس : عهد الملوك العلويين 81
القسم الأول 81
1 ــ عهد مولاي محمد الأول 83
2 ــ قصة ابن مشعل بين الحقيقة والخيال 84
3 ــ الوحدة الوطنية في السياسة الاسماعيلية 87
4 ــ الأحلاف : حجر الزاوية في التوازن القبلي . 89
5 ــ عودة إلى سياسة الهيمنة التركية 91

القسم الثاني : عهدا عبد الرحمن بن هشام ومحمد بن عبد الرحمن 97
1 ـ موقف المغرب ازاء الاحتلال الفرنسي للجزائر (1830 ـ 1843)..... 99
2 ـ وقعة اسلي : 29 رجب 1260هـ / 14 ـ 8 ـ 1944م 111
3 ـ ثورة الأمير عبد القادر ضد المغرب 146
4 ـ المقاومة الشعبية للاعتداءات الفرنسية على شرق المغرب : 1852 ـ 1859 155
5 ـ الوضعية الاقتصادية والاجتماعية 169
القسم الثالث : 177
1 ـ حالة من السيبة في عهدي محمد الرابع والحسن الأول..... 179
2 ـ عودة إلى قضية الحدود المغربية الجزائرية.... 192
3 ـ تحصينات مدينة وجدة 200
القسم الرابع : فترة التفكك الداخلي والاحتلال الفرنسي 205
1 ـ فتنة بوحمارة..... 207
2 ـ فتنة بوعمامة 224
3 ـ الاحتلال الفرنسي لشرق المغرب..... 233
الفصل السادس : وضعية الجالية اليهودية 259
1 ـ جالية مستغلة ومحتقرة ؟؟؟ 263
2 ـ تنظيم الملاح..... 266
3 ـ جالية مدينة دبدو..... 267
4 ـ جالية مدينة وجدة..... 271
5 ـ النهضة اليهودية العالمية..... 273
الرموز المستعملة في الكتاب..... 276

سيصدر قريبا

• الجزء الثاني من كتاب :
وجدة وانكاد في دوحة الأمجاد.

كما سيصدر باللغة الفرنسية :

• La Ville Juive de DEBDOU

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء
الإيداع القانوني رقم 326 – 1985